J A D A L

دراسات

ستندال

عن الحب

ترجمة

بسام آصف ديبان

منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

STENDHAL

جدل

ستندال

عن الحب

في هذا الكتاب لا يقدّم لنا ستندال الحبّ تقديماً غير مباشر كماء رقراق عذب يجري من ينبوع الروح الصافي ويتدفّق في قنوات النفس ومجاريها محمّلاً بالعواطف والأحاسيس والمشاعر والانفعالات، ومُجابهاً في مساره بعوائق العادات المتوارثة والتقاليد المتّبعة. هذا الحبُّ الذي يقتبس سموه من سموّ الروح يعترض اندفاعه الصادق ما يعتمل في النفس من خوف وخجل وحياء وحشمة واحتشام وقيود التقاليد الاجتماعية والدينية التي تحابيها الأنظمة السياسية وتتبنّاها وتفرضها بالقوة والتعسّف، وحقد وضغينة وحسد وغيرة وغطرسة وزهو وافتعال وتصنّع وتكلّف وابتذال واستحواذ وتملّك، كل ذلك يذكره ستندال في كتابه هذا. ولكن ليس بأسلوب علمي جاف وصارم ومقيّد، إنما بمطلق الحرية والسلاسة معزّزاً بأمثلة وقصص من الواقع. فيطلق العِنان لأفكاره أن تنتظم كما تشاء وعلى هواها في الجمل والمقاطع، فغالباً ما نجدها متداخلة بعضها في بعض ومتشابكة كاختلاط المشاعر بالأحاسيس، والعواطف بالانفعالات، وكل قارئ يراها كما يناسبه ويلائمه حسب استطاعته ومقدرته وكفاءته.

ISBN 978-9921-774-06-1
9 789921 774061

JADAL.PUBLISHING
(+965)99900912
JADALBOOKSTORE.COM

دراسات

عن الحب

عن الحب

ستندال

ترجمة: بسام آصف ديبان

العنوان الأصلي بالإنجليزية

Love

Stendhal

1822

الطبعة الأولى: سبتمبر 2021م

المطبعة: شركة مطابع الخط - الكويت

ISBN: 978-9921-774-06-1

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر. اعملوا معنا في نشر وعي الحفاظ على حقوق الطبع والنشر، لنجعل عملية الإبداع أكثر أماناً.

منشورات جدل
JADAL PUBLISHING

WWW.JADALBOOKSTORE.COM
(+965) 99900912
JADAL.PUBLISHING

ستندال

دراسات

عن الحب

ترجمة

بسام آصف ديبان

المحتويات

الفصل الأول: عن الحب	75
الفصل الثاني: عن ولادة الحب	79
الفصل الثالث: عن الأمل	84
الفصل الرابع: مراحل الحب	86
الفصل الخامس: عن الخجل	87
الفصل السادس: غصن سالزبورغ	88
الفصل السابع: بعض الاختلافات في ولادة الحُبّ بين الجنسَين	90
الفصل الثامن: الحب أكثر شغفًا	92
الفصل التاسع: الصراحة	96
الفصل العاشر: تجربة التبلور	97
الفصل الحادي عشر: ما هو الجمال؟	100
الفصل الثاني عشر: تتمة التبلور	101
الفصل الثالث عشر: عن أول خطوة، وعن عالم الكبار، والمصائب	103
الفصل الرابع عشر: حلم اليقظة في الحب	105

الفصل الخامس عشر: لم نعد نحب	108
الفصل السادس عشر: الموسيقا	109
الفصل السابع عشر: الجمال المخلوع عن العرش على يد الحبّ	111
الفصل الثامن عشر: المسرح والحب	113
الفصل التاسع عشر: تتمة استثناءات في الجمال	115
الفصل العشرون: الحب والحساسية	117
الفصل الحادي والعشرون: عن النظرة الأولى	118
الفصل الثاني والعشرون: عن الشغف	121
الفصل الثالث والعشرون: عن حالات الحبّ الصاعقة	122
الفصل الرابع والعشرون: رحلة في بلد غريب	126
الفصل الخامس والعشرون: التعريف بالشخص	133
الفصل السادس والعشرون: عن الحياء	136
الفصل السابع والعشرون: عن النظرات	144
الفصل الثامن والعشرون: عن الكبرياء الأنثوي	145
الفصل التاسع والعشرون: عن شجاعة النساء	153
الفصل الثلاثون: مشهد فريد وحزين	157
الفصل الحادي والثلاثون: مقتطف من يوميات سالفياتي	158

الفصل الثاني والثلاثون: عن الحميمية	166
الفصل الثالث والثلاثون: قليل من الشك	172
الفصل الرابع والثلاثون: عن المُسارّات	173
الفصل الخامس والثلاثون: عن الغَيرة	177
الفصل السادس والثلاثون: تتمة عن الغَيرة	183
الفصل السابع والثلاثون: الاعتراف بالغيرة	186
الفصل الثامن والثلاثون: عن التباهي بالاعتزاز بالنفس	188
الفصل التاسع والثلاثون: عن الحبّ ذي المشاجرات	195
الفصل التاسع والثلاثون مكرّر ثانية: علاجات الحب	201
الفصل التاسع والثلاثون مكرّر للمرة الثالثة: الدواء	204

مقدمة المترجم

يُعدُّ ماري هنري بييل، وهو اسم الكاتب ستندال الحقيقي، أبرز وجوه الأدب الفرنسي في القرن التاسعَ عشرَ. اتّسمت آثارُه، الرومنطيقية السمة، والواقعية الطرح، بسخرية لاذعة، وبغوص قلّ نظيره في أعماق النفس البشرية، وبنزوع واضح إلى النقد الاجتماعي.

ويعدُّ من أبرز المشاهير في الأدب الفرنسي في القرن التاسع عشر، قرنِ الثورة الصناعية والثقافية معاً، خاصةً في روايتَيه الشهيرتَين «الأحمر والأسود» و «دير بارما» وتأتي أهمّية أدب ستندال في تحليل الشخصيات النفساني والاجتماعي الواقعي.

كانت عَلاقته بالثقافة الإيطالية مصدراً لإغناء تجربته، كما كان اهتمامه بالموسيقا مصدراً آخر لهذه التجربة؛ حيث كتب عن أهمّ العازفين في عصره: سيماروزا، موزار، روسيني..

وُلد ستندال في مدينة غرونوبل، وفَقَدَ أمَّه وهو في السابعة من عمره، وقد بقي هذا المصاب مؤثّراً في مجمل حياته، وهذا ما أثّر في جُلّ حياته. ويجد النقد النفساني في روايات ستندال منعكسات كثيرة لهذا الفقدان، وخاصّة في الحنين المَرَضيّ إلى إيطاليا التي تتحدّر منها أمّه، وإلى شجر البرتقال المزهر الذي يذكّر بالريف. انتقل ستندال وهو في السادسة عشرة من عمره إلى باريس ليدرس في مدرستها المركزية، لكنّه سرعان ما تحوّل عنها إلى السلك العسكري، فانتسب إلى حامية إيطاليا في الجيش الفرنسي، وحصل على رتبة ملازم، وبدأ بكتابة اليوميّات.

وثمّة في هذه اليوميّات، كما في رسائل ستندال المتكرّرة إلى حبيبته «بولين»، انتقادٌ لاذعٌ للمجتمع الفرنسي الذي صار محافظاً؛ لأنه بقي مجتمعاً ملكياً، ولأنّ الثورة الفرنسية التي كان هدفها تغيير التقاليد البالية في المجتمع أخفقت في تحقيق مشروعها. وقد أفقد هذا النكوص الاجتماعي ستندال ثقتَه ودفعه نحو التطلّع إلى أدب جديد قادر على تحليل ما آلت إليه الأوضاع. فوجد ضالته في المسرح، وهو الشكل الأدبي الأكثر رواجاً في ذاك الوقت. وإلى هذه المرحلة يعود عدد من محاولاته المسرحية مثل «الرجلان، ولوتيلييه» التي نسج هذه الأخيرة على منوال مسرحية «طرطوف» موليير.

لا يمكن للقارئ أن يلاحظ بسهولة تناقضات ستندال إلا إذا اطّلع على سيرته الذاتية. وسينعكس هذا التناقض بين النظرية والتطبيق، أو بين القول والفعل. لهذا فنحن ملزمون بعرض حياته منذ طفولته حتّى مماته، الذي ربطه كثير من الباحثين في الأدب والفلسفة وعلم النفس والاجتماع، بتناقضاته التي ما فتئت أن هدأ أُوارُها داخله.

ترافق وعيه بإخفاق المشروع الثوري باضطراب وجودي عميق عانى منه الشاب ستندال. ونتج هذا الاضطراب عن التناقض بين الحبّ الذي كان يلقاه في عائلته مقترناً بالعفّة والرغبات المقموعة وحبّ بنات الهوى الذي تتحوّل معه النساء إلى شيء مستحوذٍ عليه، فاقدٍ لإنسانيته. وكاد هذا الاضطراب يكون ثابتاً لدى ستندال وتجلّى في شخصية البطل النبيل، صاحب القيم التي كانت عاجزة دوماً عن تحقيق رغباتها، لكنّها حافظت على تأجّج عاطفتها، في حين اقترنت الشخصياتُ الانتهازية والأنانية بشخصيّات نسائية أسيرة رغباتها وسهلة المنال.

انقطع ستندال بين عامَي 1810 و1814 عن الكتابة، ليتفرّغ للبحث عن مكانة اجتماعية، فسافر إلى ألمانيا موظّفاً في البَعثة العسكرية، وشارك من هناك في الحملة العسكرية على روسيا. كما سعى جاهداً للحصول على وظيفة مقرّر في مجلس الدولة، ثم صار باروناً. وفي عام 1815 بدأ بالتوقيع باسم ستندال، انتحل ماري هنري بييل هذا الاسم المستعار ردّاً منه على استبداد والده وطغيانه. ونشر في باريس عدداً من الكتب الناجحة مثل: «تاريخ الرسم في إيطاليا». ثم نشر عام 1822 دراسته الشهيرة «عن الحبّ» وهو كتابان: الكتابُ الأول، يبحث في أنواع الحبّ ولواعجه على المستوى الشخصي واختلافه بين الرجل والمرأة وأنواعه ودرجاته وأشياء تفصيلية أخرى، أمّا الثاني؛ فقد تناول الحبَّ في تنوّعه على مستوى الأمم والبلدان. تميّزت هذه الدراسة بوجه خاصّ في إطلاق نظريته الفريدة المعروفة باسم «التبلور، أو البلورة» التي تعني تلك الحالة النفسانية التي يَنسب فيها المحبّ إلى محبوبه أفراحه وأحلامه وكأنّها مصدرُ الكمال وغايته. وفي عام 1825، بعد أن أصدر كتابَين عن «راسين» و«شكسبير»، كتب بحثاً عنوانُه «حول مؤامرة جديدة ضدَّ الصناعيّين» أطلق فيه مصطلح «الطبقة المفكّرة» عارضَ فيه الرأسمالية البرجوازية والأرستقراطية صاحبة الامتيازات. وتتميّز كتاباته، في هذه المرحلة، بانتقاد فرنسا المتزايد؛ إذ إنّها فَقَدَت أصالتها ولاختلافها الدائم مع بلد أحلامه إيطاليا.

تحوّل ستندال نحو الكتابة الروائية، وكان ذلك قفزةً نوعيةً في مسيرته الأدبية؛ إذ كان يعدّ الرواية جنساً أدبياً مبتذلاً وسهلاً تنقصه الأصالة. لكنه وجد أنّ بمقدور الرواية أن تُظهر الفرادة والخصوصية، وهو ما لم تكن الكتابة النفسانية الطاغية على كتاباته الشخصية قادرةً على الإحاطة

به. فكتب روايته الأولى «أرمانس» 1827 ثم روايته الأشهر «الأحمر والأسود» 1830. لكنها لم تحظَ بالنجاح المأمول؛ لأنّ ستندال جعل من بطل روايته شخصاً ثورياً يرفضُ المراءاة والانتهازية، ممّا لم يتّفق والأخلاق السائدة آنذاك. وفي السنة نفسِها، عاد ستندال إلى إيطاليا موظّفاً في السلك الدبلوماسي وبدأ بكتابة الحوليّات التي اعتمد فيها على مخطوطات قديمة. وبدأ كتابة «لوسيان لوفان» التي لم تكتمل.

بين عامي 1839-1836، أقام ستندال في الريف الفرنسي الذي خصّص له كتاباً كاملاً عنوانُه «مذكّرات سائح». ثم أصدر عام 1839 روايته الثالثة والأخيرة «دير بارما». وفي عام 1842 توفّي ستندال، إثر سكتة دماغية، في باريس مجهولاً يكاد لا يعرفه أحد من مواطنيه.

من أقوال ستندال:

- الحبُّ أشدُّ أنواع السحر فاعليةً.
- أفضلُ سلاح ضدَّ المرأةِ امرأةٌ أخرى.
- أَن تَصِفَ السعادةَ يعني أن تَحُطَّ من قَدرِها.
- أولى مؤهّلاتِ المؤرّخ، عجزُه عن الإبداع.

عاش ستندال التناقض منذ نعومة أظفاره، بين أبٍ متشدّدٍ مترمّتٍ وعنيف، وقاسي القلب، وبشع الهيئة، أورثه هذه البشاعة؛ وهذا سببٌ آخرُ ليكرَه والده بالإضافة إلى أنه كان من أنصار النظام الملكي، وضدّ الثورة الفرنسية. كان محامياً في البرلمان، وبين أمّ رقيقةِ القلبِ، صارخةِ الجمال. كان جدُّه والدُ أمّه أستاذاً للفلسفة وخالته اليزابيت شديدة الاعتزاز بالشرف على طريقة النبلاء. فأورثته هذا الاعتزاز أو على حد تعبيره: «لقد كوّنَت قلبي. فنقلت إليَّ طريقتها في الإحساس. وهذا كان سبباً في ارتكابي سلسلة من الحماقات السخيفة، بدافع من مراعاتي

لمقتضيات هذا الخلق السامي». أمّا خاله رومان، فقد كان دون جوان، فحاول أن يلقّن ابن شقيقته فنون الحبّ العابث.

وعلى الرغم من أن ستندال كان مهووساً بالقوة، وكتب مرة: «إنّ الضعفاءَ في نظري مجانين»، وفي شخصيّات رواياته أمثلة كثيرة تعبّر عن هذا العنف، هو - أيضاً- إنسانٌ خجول. وما إن يلتقِ امرأة، أول مرة، حتّى يرتجفَ في البداية، ويتصوّر بأنه يقترب من حافّة الهاوية. كان يتذمّر من شكله كلّما نظر إلى وجهه في المرآة، ورأى الشبه الكبير بينه وبين والده، فيُدمدم بامتعاض: «يا له من وجه كوجه الكلاب!». وجه أحمر خَشِن يفتقر إلى الرقة، الأنف مكوّر كبصلة، العينان على جانب كبير من القبح، يعلوهما حاجبان كثيفان. كم تمنّى أن يصحوَ يوماً ويجد نفسه وسيماً كبطل روايته الأحمر والأسود جوليان سوريل الذي تعشقه النساء، بلا كرش منتفخ، وساقين مفرطتين في القِصَر. كان زملاؤه في المدرسة يسمّونه «البرج المتنقّل».

كان والده يريد منه أن يصبح محامياً مثله، ولم ينقذه من هذا المصير سوى وفاة والدته. كتب في مذكراته أنّ طفولته كانت تعيسة بسبب تزمّت والده الذي يرفض الاختلاط.

لقد أحبَّ الثورة الفرنسية، وحين دخل عليه والده يحمل خبر إعدام لويس الرابع عشر وهو يصرخ «قتلوه الجبناء» يقول ستندال: «لقد غمرتني موجةٌ من الفرح الطاغي، لم أحسّ لها مثيلاً في حياتي».

في حياته التي لم تتجاوز التاسعة والخمسين عاماً، ظلّ ستندال حائراً في مفهوم العلاقة مع المرأة ونراه يكتب في إحدى رسائله: «هل المطلوب من الرجل أن يسلك إزاء المرأة مسلك فرتر الهيمان بطل غوته، العاشق الولهان الحزين، أو مسلك دون جوان، العاشق الذي يتميّز بالشجاعة والصراحة والحيوية وخفّة الروح».

يؤكّد معظم نقّاد الأدب أنّ شخصية ستندال وأبطال رواياته تجمع بين النموذجَين، فهو في مرّات عديدة يجد أنّ الحب على طريقة فرتر يُمكّن العاشق من الاستمتاع بالمشاعر الخيالية العذبة. أمّا الدون جوان، فهو يتمتّع بالحبّ مثلما يتمتّع القائد العسكري بالانتصار في الحرب. وقد ظلّ ستندال طيلة حياته يتأرجح بين شخصيتَي فرتر ودون جوان ويحلم بامرأة تبادله عاطفة مختلفة عن تلك التي يجدها عند معارفه وأقاربه. لكنّ حُلمَ الارتباط بالمرأة النموذج لم يتحقّق، فظلّ يحبّ الحبَّ نفسَه. كتب مرة يقول: «طالما كان الحبّ يمثّل لي أهمَّ شيء، بل الهدف الوحيد المهمّ في حياتي». ونجده يخصّص كتاباً لمشاعره ومفهومه للحبّ أسماه «عن الحبّ» وهو الكتاب الذي نحن بصدده، حيث يشرح فيه نظريته الخاصّة التي تتلخّص بأنّ هناك نوعَين من الحبّ، الحبِّ العاطفي، والحبِّ الجسدي. ويؤكّد ستندال أنّ الحبَّ العاطفي هو وحدَه الحقيقيُّ وهو يُولد ويتطوّر تطوُّراً تدريجيّاً.

ولكن هل ذاق ستندال الحبّ؟ على الرغم من أنه أحبّ إحدى عشرةَ امرأة، وكان يكتب الحرف الأول من اسم كلّ منهنّ على أوراق ملوّنة في آخر حياته.

كانت أول امرأة أثارت اهتمامه، ممثّلة شاهدها على أحد المسارح تُدعى مدام كابلي، لكنّه كان حبّاً ساذَجاً، ومن طرف واحد، حيث كان آنذاك في السادسةَ عشر من عمره. تردّد على المسارح بحثاً عن هذه الممثّلة، وإذا ذُكر اسمُها أمامه يحمرُّ وجهه. وتشاء المصادفات أن يلتقيَها مرة واحدة فأغمي عليه من المفاجأة. لكنه يلتقي زميلةً لها وهي ممثلة مغمورة تكبره بثلاثة أعوام، ويصاب من ورائها بمرض تناسليّ، الزهريّ، عانى منه حتى آخر يوم في حياته.

بعدها نراه يهيمُ عشقاً بفتاة تُدعى فيكتورين. كانت شقيقة أحد أصدقائه. لكنّه لم يلبث أن تركها من أجل عيون امرأة جميلة تكبره بعشرة أعوام اسمُها أنجيلا. سرعان ما تخلّصت منه. في باريس التي وصلها بداية عام 1800، كان يبحث عن حبّ جديد فوجده في ميلاني لوزان. ويصف لنا في يومياته اللقاء الأول معها: «ذهبتُ لزيارة ميلاني، وأنا أرتجف، وكلّفتني بإشعال النار في الموقد. فسرّتني هذه المهمّة، الدالة على رفع الكلفة، وبقينا معاً حتّى ساعة متأخّرة من الليل، كنت سعيداً جداً، ووددتُ لو أحسّتْ هي بمثل سعادتي. كانت رائعة وهي تسرد لي أقاصيصها الطريفة، وقد جلستُ قبالتها أحدّق في عينيها، ولا بدَّ أنها أحسّت بمدى الانفعال الذي أثارته روحها الرقيقة فيّ؛ لأنّ الفرح الذي ظهر على وجهها يثبت أنها تحبّني! أمّا أنا، فحسبي أنّ فمي وحده هو الذي تكلّم، بينما كان قلبي مشغولاً. وبعد أيام يصف زيارة أخرى لها: «إني عائد لتوّي من عند لوزان، ويخيّل لي أني لم أكن في يوم من الأيام سعيداً مثلما كنت اليوم، وأنا ألبس سترتي الأنيقة ورباط رقبتي الفاخر، وقبّعتي الجديدة، ولساني منطلق لا يتلعثم، لقد سرقت روحي من خلال حديثي، فأنسَتها قبح وجهي، واشتركت أناقة ثيابي في إخفاء ملامحي المنفّرة». وظفر بها أخيراً، وحين سافرت إلى مرسيليا عام 1805 لحق بها. لكن ظروفه المالية اضطرّته بعد مدة إلى العودة إلى باريس.

وهناك يتعرّف على مدام رو زوجة صاحب العمل، حاول أن يفاتحها بحبّه، لكنه خاف من غضب الزوج. وفي هذه الأثناء يلتقي حبّه القديم أنجيلا، التي كانت قد تزوّجت. لقد تذكّرته بصعوبة، بعد أن أخبرها أنها كانت تطلق عليه في الماضي لقب «الصيني البائس». وحين يعترف لها بحبّه تسأله مستغربة: «لماذا لم تصارحني بحبّك

يومئذ؟» وتتوطّد العَلاقة بينهما، لكنه يكتشف أنها تخدعه. وقد وصفها في يومياته: «بأنها كانت سمراء رائعة، حادّة الشهوات، وخليلة مثالية، لكنها تحمل قلب شيطان». وفي إثر انفصاله عنها، يقع في قصة حبّ جديد. هذه المرة فتاة شابّة تُدعى ماتيلد دومبوفسكي وقد أضافها إلى قائمة محبوباته اللواتي بلغن إحدى عشرة، واللواتي راح يتسلّى في آخر حياته برسم لوحات كبيرة عليها حروف أسمائهنّ ليعلّقها في البيت. إلا أنّ من بين هذا العدد من النساء والفتيات، هناك قلّة ممّن بادلنه الحب. أمّا الباقيات، فهو يتحدث عنهنّ باعتبارهنّ يحملن عواطف متواضعة. والواقع أن ستندال كان متواضعاً في اختياراته، فمعظم اللواتي عشقهن كنّ جميعاً متوسّطات الجمال. فقد كان لا يولي أهمّية لجمال الشكل قدرَ اهتمامه بجمال المشاعر، فكتب عن ميلاني يقول: «إنها ليست جميلة، لكنها سامية». ووصف أخرى بقوله: «لم أكن أتصوّر أنّ مثل هذه المشاعر الجميلة يمكن أن توجد على الأرض». والواقع أنّ أولئك النساء اللواتي ملأن حياة ستندال، هن اللواتي ملأن فيما بعد رواياته وقصصه بحكايات الغرام.

عن الحب

لا يسعني أخيراً أن أقول عن كتابه الذي بين أيدينا «عن الحبّ»، سوى أنه أصدره عام 1822 وهو تحليل نفساني واجتماعي للحبّ من وجهة نظره وانطلاقًا من تجربته الشخصية. يعبّر فيه عن شغفه التعِس بالشابّة ماتيلد فيسكونتيني دومبوفسكي. وفي هذا العمل يبتكر ويصف ظاهرة التبلور الشهيرة في الحبّ.

الفكرة بدأت بعد فشل علاقته الغرامية مع ماتيلد دومبوفسكي، في 29 ديسمبر 1819. وأنهاها في يوليو 1820. وجرّاء الإهمال بسبب انشغاله بالسفر مع الكونت سيفيرولي إلى سترسبورغ، ضاعت هذه المخطوطة مدة أكثر من عام. وفي عام 1821 استعادها، عند عودته إلى باريس، وقد أدرك أنّ كل أمله بماتيلد صار مستحيلاً، بحث عن ناشر ونشره في 6 يونيو1822. ويوم مماتها وقّع إحدى نسخ كتابه بعبارة: موت المؤلّف.

على الرغم من أنّ كتابه «عن الحبّ» بحث دراسيّ يقتضي المنهج العلمي مثل أيّ دراسة، الذي يعتمد الدقة والوضوح والمقدّمات والنتائج والتدرّج من البسيط إلى المعقّد والاستنتاج والاستقراء والاستدلال والمقدّمات والنتائج والبرهان.. إلخ. لا نجد عند ستندال من مقوّمات الدراسة التحليلية سوى بعض التعدادات والتسميّات والتفنيدات.

وفي مقابل بنية الجملة في الأسلوب العلمي التي تعتمد الإيجاز والقِصَر والوضوح، تأتي جمل ستندال طويلة فيّاضة تتالى عباراتها

وتتوالى مثل المشاعر والأحاسيس، يخال لنا أنها لا ترغب في التوقّف والانتهاء. يقدّم لنا الحبّ تقديماً غير مباشر كماء رقراق عذب يجري من ينبوع الروح الصافي ويتدفّق في قنوات النفس ومجاريها محمّلاً بالعواطف والأحاسيس والمشاعر والانفعالات، ومُجابهاً في مساره بعوائق العادات المتوارثة والتقاليد المتّبعة. هذا الحبُّ الذي يقتبس سموه من سموّ الروح يعترض اندفاعه الصادق ما يعتمل في النفس من خوف وخجل وحياء وحشمة واحتشام وقيود التقاليد الاجتماعية والدينية التي تحابيها الأنظمة السياسية وتتبنّاها وتفرضها بالقوة والتعسّف، وحقد وضغينة وحسد وغَيرة وغطرسة وزهو وافتعال وتصنّع وتكلّف وابتذال واستحواذ وتملّك، كل ذلك يذكره ستندال في كتابه هذا. ولكن ليس بأسلوب علمي جافّ وصارم ومقيّد، إنما بمطلق الحرية والسلاسة معزّزاً بأمثلة وقصص من الواقع. فيطلق العِنان لأفكاره أن تنتظم كما تشاء وعلى هواها في الجمل والمقاطع، فغالباً ما نجدها متداخلة بعضها في بعض ومتشابكة كاختلاط المشاعر بالأحاسيس، والعواطف بالانفعالات، وكل قارئ يراها كما يناسبه ويلائمه حسب استطاعته ومقدرته وكفاءته.

وسأترك للقارئ متعة استكشاف كثير من الجزئيات والتفصيلات المهمّة رغم بساطتها، وما هو مثير وشائق في هذا البحث الدراسي.

قد نختلف مع ستندال في كثير ممّا يطرح، لكننا بالمقابل كل منا سيجد ما يثير في داخله التساؤل الذي كان غائباً عنه: «إلى أيّ حبّ أميل أنا؟ ومن أيّ طبع أنا؟ وهل تنهشني الغَيرة حقيقة، ويقتلني الحسد؟ وهل يشعرني الحبّ بالزهو والاعتداد بالنفس؟ وأيّ من الأشخاص يناسب طبعي بصدق؟ وأسئلة كثيرة غيرها تتدافع داخلنا.

المترجم

المُقدّمة الأولى[1]

على الرغم من أنه يعالج مسألة الحبّ، لا يُعدّ هذا المجلد رواية أبداً، خاصةً أنه غيرُ مسلٍ كرواية. هو -تماماً- وصف دقيق وعلمي فقط لنوع من الجنون نادر جداً في فرنسا. فإمبراطورية آداب السلوك، التي تتوسّع كلّ يوم، وبشكل زائد -أيضاً- بفعل الخوف من السلوك المضحك أكثر منه بسبب نقاء أخلاقنا، جعل من هذه الكلمة المستخدمة كعنوان لهذا العمل كلاماً نتجنّب التفوّه به وحده تماماً، الذي يمكن أن يبدوَ صادماً حتّى. لقد بذلت قُصارى جُهدي لأجعل منه أسلوباً، لكن جفاف اللغة العلمية، وضعني، على ما أعتقد، بمنأى عن كلّ لوم في هذا الخصوص..

كنت أعرف أمين سرّ أو أمينَين مفوّضَين، سيستطيعان عند عودتهما أن يقدّما لي خدمة. حتى الآن، ماذا بوسعي أن أقول للناس الذين ينكرون الحقائق التي أسوقها؟ أرجو ألاّ يستمعوا إليّ.

يمكن أن أُلام على التبجّح في الطريقة التي اعتمدتُها. من المسموح لمسافر أن يقول: «أنا كنتُ في نيويورك، ومن هناك سافرتُ أنا إلى أمريكا الجنوبية، وصعدتُ أنا حتى سانتا ـ فيه ـ دو ـ بوغوتا. وفتك بي الناموس والبعوض أثناء الطريق، وحُرمتُ أنا، ثلاثة أيام بحالها، من استخدام عيني اليمنى».

1- مايو 1826

لا يُدان البتّة هذا المسافر على حبّه الكلامَ عن نفسه؛ ويُسامَح على كلّ هذه الـ «أنا»؛ لأنه الأسلوب الأكثر وضوحاً والأفضل تشويقاً في رواية ما رآه.

ولكي يكون واضحاً وطريفاً، إذا أمكنه هذا، يقول صاحب الرحلة في مناطق لا يعرفها الإنسان: «ذهبتُ بصحبة مدام دو شيراردي إلى مناجم ملح هالوين.. وكانت الأميرة كريسانزي تقول لي في روما.. ذات يوم، في برلين، رأيت الكابتن الوسيم لـ ..». كل هذه الأمور الصغيرة حصلت بالفعل للمؤلّف الذي أمضى خمسةَ عشرَ عاماً في ألمانيا وفي إيطاليا. ولكنه فضولي أكثر منه حسّاس، لم يواجه قطّ أدنى مغامرة، ولم يشعر قطّ بأيّ عاطفة شخصية تستحقّ أن تُروى؛ وإذا نسبنا له زهو الاعتقاد بخلاف هذا، زهوًا أكبر منعه أن يطبع قلبه ويبيعه للجمهور مقابل ستة فرنكات، على غرار هؤلاء الناس الذين، في حياتهم، يطبعون ذكرياتهم.

في عام 1822، عندما كان المؤلّف يصحّح البراهين على هذا النوع من الرحلة الأخلاقية إلى إيطاليا وألمانيا، عالج المخطوطة التي تضمّ الوصف المفصّل لكل مراحل مرض الروح المسمّى بـــ الحبّ، بهذا الاحترام الأعمى الذي كان يظهره عالم من القرن الرابعَ عشرَ تجاه مخطوطة لـ «لاكتانس» أو لـ «كينت ـ كيرس» اللذين تم نبشُهما للتو. وحينما كان المؤلّف يصادف مقطعاً غامضاً، والحق يقال، غالباً ما يحصل هذا له، يعتقد دائماً أنّ «أنا» من كان المحقوق. ويعترف بأن احترامه للمخطوطة القديمة ذهب به إلى أن طبع عدة مقاطع لدرجة أنّ المخطوطة لم تعد هي ذاتها. لا شيء أكثر جنوناً ممّن فكّر في إرضاء الناس؛ لكن المؤلّف، الذي رأى باريس بعد رحلات طويلة، كان يعتقد أنّ من المستحيل تحقيق نجاح دون القيام بأعمال خسيسة

تجاه الصحفيين. وعلى هذا، حينما نقوم بهذا القدر من الأعمال الخسيسة، فلا بدَّ أن نحتفظ به لرئيس الوزراء. ما نسمّيه نجاحاً كونه خارج المسألة، هو أنّ المؤلّف تسلّى بنشر أفكاره بدقّة مثلما خطرت على باله. وهكذا، تثير إعجابه الشديد الحكمة التي تصرف بها فلاسفة اليونان قديماً.

يلزمنا سنوات حتى نلج إلى حميمية المجتمع الإيطالي. ولعلها ستكون رحلتي الأخيرة إلى هذا البلد.

فمنذ حركة عمّال الفحم واجتياح النمساويين، لن يُستقبل أبداً أيّ غريب صديقاً في الصالونات التي كانت تُقام فيها المباهج المجنونة للغاية. سنشاهد الأوابد، والشوارع، وساحات المدينة العامّة، إنما المجتمع أبداً، سيشعر الغريب بالخوف؛ ويرتاب السكّان من أن يكون جاسوساً أو يخشون أن يسخر من معركة آنترودوكو ومن الأعمال الدنيئة الحتمية في هذا البلد حتى لا يكون مضطهداً من قبل ثمانية وزراء أو عشرة أو محظيين يحيطون بالأمير. كنتُ أحب السكّان بالفعل، فاستطعت رؤية الحقيقة. أحياناً، لعشرة أشهر متتالية، لم أتفوّه بكلمة فرنسية واحدة، ولولا الاضطرابات وحركة عمّال الفحم، لما رجعتُ إلى فرنسا أبداً. فطيبة القلب هي ما اكتسبته قبل كل شيء.

رغم الكثير من الحرص حتى أكون صريحاً وواضحاً، لا أستطيع أن أصنع المعجزات؛ ولا أستطيع أن أعطي الصُمَّ آذاناً ولا العميان عيوناً. وهكذا، فالناس المحبّون للمال والمسرّة العارمة، الذين ربحوا مئة ألف فرنك في العام الذي يسبق اللحظة التي يفتحون فيها هذا الكتاب، لا بدَّ لهم أن يغلقوه بسرعة كبيرة، خاصة إذا ما كانوا مصرفيين، أو أصحاب مصانع، أو صناعيّين محترمين، أيّ أناس ذوي أفكار في منتهى

الإيجابية. قد يكون هذا الكتاب أقلّ غموضاً لمن ربحوا المال الكثير في المضاربات أو اليانصيب. فمن شأن هكذا ربح أن يوجد بجانب عادة قضاء ساعات بكاملها في أحلام اليقظة، والتمتّع بالإحساس تقدّمه لوحة لبرودون، أو جملة لموزارت، أو أخيراً نظرة معيّنة فريدة من امرأة غالباً ما تفكّر فيها. فبهذا لا يكون الناس الذين يدفعون أجور ألفي عامل في نهاية كل أسبوع يضيّعون وقتهم البتة؛ فذهنهم مشحوذ دائماً لما هو مفيد وإيجابي. والحالم الذي أتحدّث عنه هو الإنسان الذي قد يكرهونه إن كان عندهم وقت فراغ لهذا؛ وهو من قد يتخذونه طائعين كأضحوكة في دعاباتهم. فالصناعي المليونير يراوده شعورٌ مبهمٌ؛ إذ إنّه إنسان فكراً قبل أن يكون كيساً من ألف فرنك.

أرفض هذا الشابّ المجتهد الذي، في السنة ذاتها التي كان فيها الصناعي يكسب مئة ألف فرنك، تعرف هو على اللغة اليونانية الحديثة، وهذا ما يفتخر به للغاية، لدرجة أنه يتوق سلفاً إلى اللغة العربية. أرجو ألا يفتح هذا الكتاب كل إنسان لا تشغله القضايا الخيالية الغريبة على الزهو، الذي قد يخجل خجلاً شديداً من افتضاح وجوده في الصالونات.

أنا متأكّد تماماً أنني لا أعجب هؤلاء النساء اللواتي، في ذات الصالونات، يحظين عَنوة بالودّ في كلّ الأوقات. أنا متفاجئ بهذا بصدق للحظة، وقد اندهشن، لدرجة أنهنّ وهنّ يتساءلن، لم يعدن يستطعن معرفة ما إذا كان هكذا شعور يعبرن عنه لتوهنّ طبيعياً أم متكلّفاً. كيف يمكن لهؤلاء النساء أن يحكمنَ على وصف مشاعرهنّ الحقيقية؟ لهذا كان هذا العمل عدوهنّ اللدود، فقلنَ إنّ هذا المؤلّف لا بدَّ وأنه إنسان رذيل.

الاحمرار فجأة، حينما نصل إلى التفكير ببعض الأفعال في شبابنا؛ وارتكاب حماقات عن حُسن نية والإصابة بالغمّ من هذا، ليس لأننا كنّا

مضحكين بنظر مجتمع الصالون، إنما بالأحرى بنظر شخص بعينه في هذا الصالون؛ فأن نكون، في السادسة والعشرين من عمرنا، مغرومين بصدق بامرأة تحبّ واحداً غيرَنا، أو أيضاً (إنّما الأمرُ نادر جداً، لدرجة أنني أكاد لا أجرؤ على كتابته خوف أن أقعَ في الأمور الغامضة، كما في الطبعة الأولى)، أو أيضاً، بدخولنا إلى الصالون الذي فيه المرأة التي نعتقد أننا نحبّها، لا نفكّر إلا بقراءة ما في عينيها ممّا تظنّه بنا في هذه اللحظة، وليس عندها أيّ فكرة في أن تُظهر الحبّ لنا: هذه هي الأسبقيات التي سأطلبها من قارئي.

وهذا هو الوصف لكثير من المشاعر المرهفة والنادرة التي بدت مبهمة للأشخاص ذوي الأفكار الإيجابية. ما العمل لنكون واضحين بنظرهم؟ أن نعلن لهم عن رفع بمقدار خمسين سنتيماً، أو تغيير في تعرفة جمارك كولومبيا[1].

الكتاب الآتي يشرح ببساطة، وبطريقة منطقية، ورياضية، إن جاز التعبير، مختلف المشاعر التي تتعاقب الواحدة تلوَ الأخرى، والتي بمجملها تُسمّى شغف الحبّ.

تصوّروا شكلاً هندسياً معقّداً للغاية، مرسوماً بقلم رَصاص أبيض على لوح أردواز كبير: حسناً! سأشرح هذا الشكل الهندسي؛ ولكنّ الشرط الضروري، أنه يجب أن يكون مرسوماً من قبلُ على لوح الأردواز؛ فأنا ليس بمقدوري أن أرسمَه بنفسي. هذه الاستحالة هي ما يجعل من الصعب جداً تأليف كتاب عن الحبّ لا يكون رواية. فلمتابعة امتحان

1- قيل لي: «احذف هذه الفقرة، لم يعد شيء صحيحاً؛ ولكن صنِ الصناعيّين؛ فهم سيثورون على الطبقة الارستقراطية.» - في عام 1817، لم أخشَ النوّاب العامّين؛ لماذا سأخاف من أصحاب الملايين في عام 1826؟ البوارج المقدَّمة إلى باشا مصر فتحت عينيّ على تعدادها، فأنا لا أخشى سوى ما أقدّره. (الكاتب).

فلسفيّ باهتمام عن هذه العاطفة، يلزم شيء آخر غير ذهن القارئ؛ فمن الضروري جداً أن يكون شَهِدَ الحبّ. وعلى هذا، أين يمكننا رؤية عاطفة ما؟

هذا هو سبب الغموض الذي ليس باستطاعتي إقصاؤه أبداً.

إنّ الحبّ يشبه ما ندعوه بدرب التبّانة في السماء، مجموعة لامعة مشكّلة من آلاف النجمات الصغيرة، التي كلّ منها غالباً ما تكون سديماً[1].

لقد دوّنت الكتب أربع أو خمسمئة شعور صغير ومتعاقب. أفضل هذه الكتب، مثل كتب الهلوازية الجديدة، وروايات مدام كوتان، ورسائل الآنسة ليسبيناس، ومانون ليسكو، تمّت كتابتها في فرنسا، البلد الذي يخاف فيه الكوكب المسمّى حبّ من المثير للسخرية على الدوام، والمخنوق من مقتضيات العاطفة الوطنية، والزهو، ولا يصل أبداً تقريباً إلى سموّه.

ما الذي نعرفه إذاً عن الحبّ انطلاقًا من الروايات؟ وماذا سيكون بعد رؤيته موصوفاً في مئات المجلدات المشهورة، ولكننا لم نحسّ به قطّ، ونبحث في هذا الكتاب عن شرح هذا الجنون؟ سأجيب مثل صدى: «هذا جنون».

أيّتها الشابّة المسكينة خائبة الأمل، هل ما زلتِ تريدين الاستمتاع بما يشغلك كثيراً منذ بضع سنين، الذي لم تجرُئي على التحدّث عنه لأحد، والذي كاد يفقدُك شرفَك؟ فمن أجلك، أعدتُ كتابة هذا الكتاب وسعيتُ إلى أن أجعله أكثر وضوحاً. بعد أن تقرئيه، لا تتحدثي

---

1 - سديم: (جمعها سُدُم) بقع في الكرة السماوية ضعيفة النور منها ما هو تجمّع غازات مضيئة، ومنها ما يضمّ العديد كثيرًا من الكواكب البعيدة جداً. والتي تظهر كأنّها سحابة بيضاء. (المترجم)

عنه أبداً إلا بجملة احتقار صغيرة، وارم به في مكتبتك الشبيهة بشجرة ليمون، خلف الكتب الأخرى، وقد أتَرك فيه حتّى بعض الصفحات غير المنتزعة.

ليس بعض الصفحات غير المنتزعة فقط ما سيتركه الكائن غير الكامل، الذي يظنّ نفسه فيلسوفاً لأنه بقي دائماً غريباً عن هذه العواطف المجنونة التي تنيط بنظرة واحدة كلّ سعادتنا الأسبوعية. وغيرنا، بوصولهم إلى سنّ النضج، ينسيهم زهوهم الكبير أنهم يوماً ما استطاعوا أن ينحطّوا إلى درجة مغازلة امرأة فتعرّضوا للإذلال من رفضها؛ سيؤجّج هذا الكتاب حقدهم. من بين الكثير من الروحانيين الذين رأيتهم يدينون هذا العمل لأسباب مختلفة، إنما دائماً بغضب، الوحيدون الذين بدَوا لي مضحكين هم هؤلاء الناس الذين لديهم زهو مضاعف في الادّعاء بأنهم كانوا دائماً فوق حالات ضعف القلب، وفي أنهم مع ذلك لديهم نفوذ كبير في إعطاء الأولوية إلى درجة الدقّة لبحث فلسفي، ما هو سوى وصف متبوع بكلّ حالات الضعف هذه.

والأشخاص الوقورون، الذين يتمتّعون في العالم بلقب الرجال الحكماء لا العاطفيين إطلاقاً، هم أكثر قرباً بكثير من فهم رواية ما، فمهما كان كتاب فلسفي شائقًا، حيث يصف المؤلّف فيه ببرود المراحل المختلفة لمرض النفس المسمّى حبّ. فالرواية تؤثّر فيهم قليلاً؛ إنما من حيث البحث الفلسفي، وهؤلاء الرجال الحكماء هم كالعميان الذين يُقرأ لهم وصف لوحات المتحف، ويقولون للمؤلّف: «اعترف، يا سيدي، أن عملك مبهم إبهاماً فظيعاً». وماذا سيحصل لو التقى هؤلاء العميان بعض الروحانيين، المهووسين منذ زمن طويل بهذه الوجاهة، والمدّعين بسلطان مطلق أنهم نافذو البصيرة؟ سيعامل المؤلّف المسكين بظرف.

وهذا - أيضاً- ما حصل له عند طبعته الأولى. لقد تمّ إحراقُ كثير من النسخ حالياً بسبب الزهوّ الساخط للروحانيين المتشدّدين. لا أتحدّث عن شتائم، لا تقل عن المتملّقة بسبب هياجهم: تمّ الإعلان عن أنّ الكاتب سفيه، ولا أخلاقي، يكتبُ للشعب، وهو إنسان خطير، و.. إلخ. في البلدان المنهوكة بالحكم الملكي، تكون هذه العناوين المكافأة الأكثر ضماناً لمن يرتئي أن يكتب عن الأخلاق ولا يهدي كتابه إلى مدام دوباري في ذاك العصر. موفق الأدب إذا لم يكن على الموضة، وإذا كان الأشخاص الذين كُتب لهم وحدهم يحبّذون الاهتمام به! ففي عصر مسرحية السيد، لم يكن كورنييّ سوى رجل صالح بالنسبة للسيد ماركيز دانجو. اليوم، جميع الناس يتوهّمون أنهم خلقوا لقراءة السيد لامارتين؛ نعمَ الأمر لمكتبة البيع لديهم؛ إنما بئس الأمر ومئة مرة بئس الأمر لهذا الشاعر العظيم. في أيامنا هذه، للعبقرية مراعاة لبعض الأشخاص الذين يجب ألا نتصوّرهم أبداً وإلا، ارتكبنا مخالفة.

إنّ حياة الكدّ، والنشطة، والمحترمة، والإيجابية تماماً، لمستشار دولة، أو صاحب مصنع أقمشة قطنية أو مصرفي نشيط بقوة عند الحاجة بالنسبة لعمليات القروض، تُكافأ بالملايين، وليس بالمشاعر الرقيقة. وشيئاً فشيئاً يتحوّل هؤلاء السادة إلى عظماء؛ ويُنسب لهم كلّ ما هو إيجابي ومفيد، فتعاف أنفسُهم الإحساسَ بكلّ المشاعر، الذي بأمسّ الحاجة إلى وقت فراغ، والذي يجعل من أكبر عاجز عن كلّ اهتمام معقولاً وقدوة.

لم تُؤلّف هذه المقدّمة إلا للمناداة بأنّ هذا الكتاب مصيبته أنه لا يمكن أن يفهمَه إلا الأشخاص الذين وجدوا لأنفسهم أوقاتَ فراغ للقيام بأمور مجنونة. والكثير من الأشخاص سيعتبرون أنهم مهانون، فآمل ألاّ يتجاوزوا الحد.

المقدمة الثانية[1]

أنا لا أكتب إلا من أجل مئة قارئ، وعن هؤلاء التعساء، والمحبّبين إلى النفس، والساحرين، غير المنافقين أبداً، وغير الاعتباريين، الذين أودّ لو أعجبهم؛ أعرف منهم، بصعوبة، واحداً أو اثنين. إنني لا أشكل أي حالة من كل ما يكذب على أنّ لي اعتباراً ككاتب. لا بدّ لتلك السيدات الحسناوات أن يقرأن إرشادات فرن الطهي لديهنّ ومجموعة المواعظ الدارجة، ما يُسمّى ماسيّون أو مدام نيكر، حتى يستطعن التحدث عن هذا مع النساء الوقورات اللاتي يوزّعن الاعتبار. وما نلاحظه جيداً، هذا المقام الجميل يتمّ نيلُه دائماً، في فرنسا، بالتظاهر بصورة الكاهن العظيم لحماقة ما.

هل كنتَ في حياتك تعِساً بسبب الحبّ؟

أسأل من يودّ قراءة هذا الكتاب. أو، ماذا لو لم تشعر روحك بمصيبة أخرى سوى مصيبة التفكير بقضية ما، أو بعدم تسميتك نائباً في الانتخابات الأخيرة، أو باعتبارك أقلّ موهبةً من المألوف في موسم مياه إيكس الأخير، - سأواصل أسئلتي التطفلية، وأسألكَ ما إذا قرأتَ في العام أحد هذه الأعمال الوقحة التي تجبر القارئ على التفكير؟ على سبيل المثال، كتاب إميل، للكاتب جان جاك روسّو، أو المجلّدات الستة للكاتب مونتيني؟ وإذا لم تكن تعِساً قطّ من هذا الضعف للأنفس القوية، وإذا لم تَعتَد، خلافاً للطبيعة، على التفكير وأنت تقرأ، هذا الكتاب الذي سيؤلبك على المؤلّف، إذ سيجعلك تشكّك بأنه توجد سعادة معيّنة لا تعرفها أنت، وكانت تعرفها مدموازيل ليسبيناس.

1- يونيو 1854.

المقدمة الثالثة

جئتُ ألتمس المغفرة من القارئ على الشكل الفريد لفيسيولوجية الحبّ هذه.

منذ ثمانية وعشرين عاماً (في 1842) والانقلابات التي أعقبت سقوط نابليون تحرمني من دولتي. وقبل عامين من ذلك، رمتني المصادفة، حالاً بعد انسحاب روسيا، في قلب مدينة محبّبة إلى النفس حيث كنتُ أنوي بجد أن أمضيَ فيها بقية أيامي، وهذا ما كان يفرحني أشدَّ الفرح. في لومباردو السعيدة، وفي ميلانو، وفي البندقية، الكبيرة، حيث، بكلام أوضح، الشأن الوحيد في الحياة، هو المتعة. فهناك، لا أحد يهتم لأفعال جاره وحركاته؛ ونكاد لا نهتمّ فيها بما يجري لنا. وإذا ما لاحظنا وجود الجار، لا نفكّر في كرهه. انزعوا الرغبة في الاحتلالات المتكرّرة لمدينة من الإقليم، في فرنسا، ما الذي يبقى؟ إن انتفاء، أو استحالة الرغبة الفظيعة، يشكّل الجزء الأكثر ثباتاً لهذه السعادة، التي تجذب جميع سكّان الإقليم في باريس.

عقب الحفلات التنكرية في كرنفال عام 1820، التي كانت أكثر إبهاراً من المعتاد، شهد مجتمع ميلانو ظهور خمسة إجراءات مجنونة بالكامل أو ستة؛ على الرغم من أننا اعتدنا في ذاك البلد على أمور قد نعدّها لا تُصدق في فرنسا، انشغلنا فيها شهراً بحاله. قد يثير الأمر المضحك الخوف في هذا البلد من التصرّفات المستهجنة؛ فأنا بحاجة إلى الكثير من الوقاحة كي أتحدّث عنها فقط.

ذات مساء، وبينما كنا نفكّر بعمق في مفاعيل هذه الأعمال الطائشة وأسبابها، في بيت مدام بييتراغرووا القريبة إلى القلب، التي، على غير العادة، لم تنخرط في أي من هذه التصرفات المجنونة، أخذتُ أفكر أنه قبل عام، ربما، لن يبقى لي سوى ذكرى غير أكيدة حقاً عن هذه الأفعال الغريبة والدوافع التي ننسبها لهم. أسرني برنامج حفلة موسيقية، كتبت حوله بضع كلمات بالقلم الرَّصاص. أردنا أن نلعب القمار بالورق لعبة الفرعونية؛ لقد كنا ثلاثين شخصاً جالسين حول طاولة خضراء؛ لكن الحديث كان حامياً للغاية، لدرجة أننا نسينا اللعب. وعند آخر السهرة باغتنا الكولونيل سكوتي، أحد أحب الرجال في الجيش الإيطالي؛ سألناه عن رأيه في الظروف المتعلّقة بالأفعال الغريبة التي كانت تشغلنا؛ فأخبرنا، في الحقيقة، بعض الأمور التي جعلته المصادفة فيها موضع ثقة، والتي قدمت لهم مظهراً جديداً تماماً. فاستأنفتُ برنامج الحفلة الموسيقية لدي، وأضفتُ هذه الظروف الجديدة.

لقد تمّت مواصلة هذه المجموعة عن الخصوصيات حول الحب بالطريقة ذاتها، بالقلم الرصاص على قصاصات ورقية، أخذتها في الصالون حيث كنتُ أسمع رواية القصص الطريفة. فبحثتُ سريعاً عن قانون عام كي أعرف المراتب المتنوّعة. وبعد شهرين، أعادني إلى باريس الخوف من أن يتمَّ اعتباري واحداً من حركة عمّال الفحم، مدة بضعة أشهر فقط، على ما أعتقد؛ لكنني لم أرَ ثانية قطّ ميلانو التي قضيتُ فيها سبعة أعوام.

كنتُ أموت من الضجر في باريس؛ فخطرت على بالي فكرة إشغال نفسي أيضاً بالبلد المحبّب إليّ الذي كان قد طردني منه الخوف؛ فجمعت أكوام قصاصاتي الورقية، وجعلتُ منها سجلاً قدّمته كهدية

إلى صاحب مكتبة بيع كتب؛ ولكن سرعان ما ظهرت فجأة إحدى الصعوبات؛ فقد صرّح صاحب المطبعة أنه يستحيل عليه العمل على مدوّنات مكتوبة بالقلم الرَّصاص. فرأيتُ جيداً أنه كان يجد هذا النوع من النسخة لا ترقى إلى مقامه. كان الشابّ المتدرّب على الطباعة الذي أعاد لي مدوّناتي يبدو خجِلاً تماماً من الموقف الحرج الذي كُلِّف به؛ فقد كان يعرف الكتابة: فأمليتُ عليه المدوّنات التي بالقلم الرصاص.

وفهمتُ -أيضاً- أنّ الكتمان كان يُملي عليّ واجب تغيير أسماء العلم ولا سيّما في الاستماع إلى الطرائف. بالرغم من أنه قلما يقرؤون في ميلانو، هذا الكتاب، إذا ما أُخِذَ إلى هناك، فمن شأنه أن يبدو إساءة فظيعة.

فنشرتُ -إذاً- كتاباً بائساً. سأتحلّى بالشجاعة في الاعتراف أنه في تلك الحقبة كانت لديّ الشجاعة في ازدراء الأسلوب اللبق. كنتُ ألاحظ أن الشابّ المتدرّب مهتمّ تماماً في تحاشي نهايات الجمل الطنّانة والكلمات المتتابعة التي تشكّل أصواتاً مستهجنة. بالمقابل، لم يحجم في كل حين عن تغيير ظروف الأحداث العصية على التعبير: فولتير، بذاته، يخاف من الأمور صعبة القول.

لم يكن لمقال عن الحبّ أن يستحقّ أيّ قيمة إلا انطلاقًا من الدقائق الصغيرة للإحساس الذي أرجو من القارئ أن يتحقّق منه في ذكرياته، إن كان سعيداً بما يكفي ليشعر به. ولكن ثمّة ما هو أسوأ؛ فقد كنتُ حينها، كما أنا دائماً، قليلَ الخبرة للغاية في الأمور الأدبية؛ فقام صاحب المكتبة الذي أهديته المخطوطة بطباعتها على ورق رديء وبحجم مضحك. وهكذا، أخبرني بعد شهر، إذ إنني سألته عن أخبار الكتاب: «لا نستطيع القول بأنه مبجّل؛ لأن أحداً لم يلمسه».

في ذاك الوقت، وقد تشبّعتُ تشبُّعاً تامًّا، وأُغرمتُ تماماً بأدق الحالات التي لاحظتها في إيطاليا هذه التي كنتُ أعشقها، وأتجنّب بعناية كلّ الاستثناءات، وكلّ صور لطافة الأسلوب التي من شأنها أن تجعل مقالاً عن الحبّ أقلّ استهجاناً خاصة بنظر أهل الأدب.

فضلاً عن ذلك، لم أداهن الجمهور بتاتاً، فقد كانت حقبة حيث يبدو الأدب، وقد عُجن تماماً بمصائبنا، الكبيرة للغاية والحديثة جداً، لا شغل له سوى التخفيف من زهونا البائس؛ فكان يُقفي مجد [gloire] / غلوار / مع /فيكتوار/انتصار [victoire]، ومحاربين [guerriers] /غيرييه/مع /لورييه/ غار [lauriers]، و.. إلخ. فيبدو الأدب المضجر لتلك الحقبة أنه لا يبحث أبداً عن أحوال الناس التي يبدو أنه يعالجها؛ فهو لا يريد سوى فرصة لمديح الشعب العبد للموضة، وسوى رجل عظيم نادى بالأمة العظيمة، متناسياً أنها ليست عظيمة إلا مع الظرف الذي جعله عظيماً.

كانت نتيجة جهلي لشروط النجاح الأكثر تواضعاً عدم إيجاد سوى سبعة عشر قارئاً من عام 1822 إلى عام 1833؛ وبالكاد يكون هذا، بعد عشرين عاماً من الوجود، إذا فهم مئة فضولي تقريباً مقالاً عن الحب. تحلّى بعضهم بالصبر في ملاحظة مختلف مراحل هذا المرض لدى الأشخاص المصابين به من حولهم؛ ولفهم هذا الهوى، يجب أن نتحدّث عنه كمرض؛ لأنه منذ ثلاثين عاماً يختبئ الخوف من المثير للسخرية بكثير من الحرص بيننا؛ ومن ذاك الطريق يمكننا الوصول إلى الشفاء أحياناً.

في الواقع، لم يكن هذا إلا بعد نصف قرن من الثورات التي استحوذت على كلّ اهتمامنا بالتناوب؛ لم يكن هذا، في الواقع، إلا

بعد خمسة تغييرات كاملة في نظام حكوماتنا وتوجهاتها، حتى بدأت الثورة فقط بالدخول إلى أخلاقياتنا. كان الحبّ، أو أكثر ما يحلّ محلّه بوجه عام بسلبه اسمه، قادراً على كل شيء في فرنسا في عهد لويس الخامسَ عشرَ: فكانت نساء البلاط يصلن إلى رتبة عقيد؛ وهذه المكانة لم تكن على الإطلاق إلا للأجمل في البلاد. وبعد خمسين عاماً، لم يعد ثمّة بلاط، فالنساء الأكثر اعتماداً في البرجوازية المهيمنة، أو في الأرستقراطية المستاءة، لن ينجحن في أن يُعطَيْنَ دكان تبغ في أصغر بلدة.

يجب حقاً الاعتراف بهذا، لم تعد النساء يلحقن الموضة؛ ففي صالوناتنا المرموقة جداً، يسعى الشبّان بأعمار العشرين لعدم توجيه الكلام لهنّ؛ فهم يفضلون التحلّق حول المتحدث الفظّ الذي، بلهجته البلدية، يطرح مسألة المؤهّلات، والسعي إلى قول كلمتهم في هذا الأمر. ويفضّل الشبّان الأثرياء الذين يتباهون في أن يظهروا محبّين للهزل، بغية الظهور بأنهم يواصلون الرفقة التي كانت فيما مضى، أن يتحدّثوا عن الخيول ويقامروا بمبالغ ضخمة في الحلقات التي لا تُقبل فيها النساء قطّ. إن اللامبالاة المميتة التي يبدو أنها تحكم علاقات الشبّان مع النساء اللواتي بعمر الخامسة والعشرين، التي يردّها هَمُّ الزواج إلى المجتمع، وربما ستتقبل العقول الحكيمة بتورّع هذا الوصف الدقيق للأطوار المتعاقبة للمرض الذي يُدعى الحبّ.

إن التغيير الفظيع الذي أوقع بنا في الضجر الحالي والذي جعل المجتمع غامضاً في عام 1778، كما نجده في رسائل ديدرو إلى عشيقته، مدام فولان، أو في ذكريات مدام إبيناي، يمكنه أن يدفع إلى البحث عن أيّ من حكوماتنا المتعاقبة قتلت بيننا القدرة على الاستمتاع، وقرّبتنا من الشعب الأكثر كآبة على وجه الأرض. ونحن

لا نعرف حتى نسخ برلمانها ونزاهة أحزابها، الشيء الوحيد المقبول الذي ابتكرته. بالمقابل، أسخف تصوّراتها البائسة، عقلية الكرامة، جاءت لتستبدل وسطنا المرح الفرنسي، الذي لم نعد نصادفه قط إلا في الخمس مئة حفلة في ضاحية باريس، أو في جنوبي فرنسا، بعد بوردو.

ولكن أيّاً من حكوماتنا المتعاقبة شاءت هذه المصيبة الفظيعة في أنكلزتنا؟ هل يجب اتهام هذه الحكومة الفعّالة لعام 1793، التي منعت الأجانب من المجيء للتخييم فوق مونمارتر؟ هذه الحكومة التي -بعد أعوام قليلة- ستبدو لنا بطولية، وتشكّل الفاتحة الجديرة للحكومة التي -في عهد نابليون- ستحمل اسمنا في جميع عواصم أوربّا.

سنغفل عن الهفوة المتعمّدة حقاً من مديرية حكومة المديرين، المشهورة بمواهب كارنو، وبحملة 1797-1796 الخالدة، في إيطاليا.

كان فساد حاشية بارّاس ما يزال يُذكّر ببهجة النظام القديم؛ ولطائف مدام بونابرت تظهر أنه لم يكن لدينا مذ ذاك أي ميل لتجهُّم الإنكليز وعجرفتهم.

إن التقدير العميق الذي -رغم روح الحسد من جانب حي سان جرمان- لم نستطع الدفاع عنه بسبب طريقة حكم القنصل الأول، ورجال المناصب الأولى الذين جعلوا مجتمع باريس ذائع الصيت، أمثال آل كريتيه، وآل دارو، و.. إلخ، ولم يسمحوا أن توضع على عاتق الإمبراطورية مسؤولية التغيير المعتبر الذي حدث في الشخصية الفرنسية أثناء النصف الأول هذا من القرن التاسع عشر.

من غير المجدي الدفع بامتحاني أكثر: فالقارئ سيفكّر وسيعرف جيداً أن يستخلص..

السيد ستندال وأعماله الكاملة [1]

هذه المرة، ما هو إلا فصل عن تاريخ أدب عصر إعادة المَلَكيّة. لقد انشغلنا كثيراً منذ بعض الوقت بالمؤلّف النبيه، السيد بييل، الذي كان قد تنكّر باسم مستعار ستندال[2] القريب من اللغة التوتونية بعض الشيء. حينما مات في باريس، في 23 مارس عام 1842، ساد الصمت حوله؛ بكاه بعضهم، وسرعان ما نسيه أغلبهم. وما كادت تمرّ عشر سنوات، حتى أخذ جيل جديد بحاله التعلّقَ بأعماله، والبحث عنه، ودراسته في جميع وجوهه تقريباً كأحد الأقدمين، وتقريباً كأحد الكلاسيكيين؛ وحوله وحول اسمه كواحد من عصر النهضة. فقد كان مذهولاً بها. ومن عرف السيّد بييل شخصياً، والذين أكثر من تذوّقوا موهبته، سعداء في إعادة الحديث عن هذا الكاتب المتميّز، وإن فعلوا هذا بحماسة أقلّ من النقّاد أمثال السيد بلزاك، الذين لم يروه إلا في النهاية والذين اخترعوه، ليسوا مهيّئين بسبب هذا الأمر لينصفوه أقلّ إنصافًا وليتعرّفوا أقلّه على نصيبه المعتبر في الأصالة والتأثير، وطريقته في المنفعة الأدبية.

يوجد في السيّد بييل شخصيتان متميّزتان، الناقد والروائي؛ فلم يأتِ الروائي إلا فيما بعد وعلى أثر الناقد: فقد بدأ الناقد منذ عام 1814. وسأهتمّ اليوم بالناقد وحده، فهو يستحقّ هذا حقّاً بسبب شخصيته الفريدة، الجديدة، واللاذعة، والموهمة بالتناقض، والمُصيبة في أحيان

---

1 - مقتطف من بعض مسامرات الاثنين، لسانت بوف، المجلد IX. مكتبة غارنييه فرير.

2 - ستندال مدينة في الساكسالبروسي، مسقط رأس وينكلمان. وعلى الأرجح أن ستندال فكر في هذا باتخاذه الاسم الذي أصبح بفضله دليلاً للفنّ في إيطاليا.

كثيرة، التي ما يزال يقدّمها لنا، والتي صدمت بقوة شديدة ليس الجمهور فحسب، بل أصحاب المهن والعقول المتيقّظة في عصره أيضًا.

إنّ هنري بييل، مثل بول لويس كوربيه، من القلّة القليلة جداً الذين - عند نهاية الإمبراطورية عام 1814، ومن اليوم الأول- وجدوا أنفسهم متأهّبين للنظام الجديد الذي كان يحاول ذلك، وكان له ذلك أكثر من كوربيه وغيره أيضاً، إذ إنه لم يكن ساخطاً ولا مستاءً: خدم الإمبراطورية بحماسة؛ فقد كان موظّفاً حكومياً وعلى وشك أن يصبح مديراً عندما سقط بالسقوط العام؛ فسرعان ما وجد نفسه رجل فكر، مفعماً بالأفكار والآراء حول الفنون، والأدب، والمسرح، ومندفعاً لتطعيم الآخرين بها. بييل، هو الفرنسي (أحد الأوائل) الذي خرج من دياره، وقارن، كما يقال حرفياً. وبالتحاقه بالجيش العظيم وهو يجوب أوربّا كأحد أعضاء الأركان العامة للسيد دارو الذي كان قريبه، كان يولي اهتمامه لآلاف الأشياء، لأوبرا سيماروزا أو موزارت، للوحة، للتمثال، ولكل مادة جديدة وجميلة، ولعبقرية شتّى الأمم؛ ويقاوم أمّته بصوت منخفض تماماً، ضد هذه الأمّة الفرنسية التي كانت قوية جداً باعتقاده في الحكم عليها، وضدّ الذوق الفرنسي الذي كان يطالب بإحيائه وبعثه، على أقلّ تقدير أثناء الدردشة: كان هذا حقّاً فرنسياً أيضاً. شيء فريد! بينما السيد دارو، المنشغل بالقضايا الكبرى ويحمل على كاهله عبء إدارة الأقاليم المستولى عليها أو تموين الجيوش، كان ما يزال يجد الوقت للدردشة مع أصدقائه أدباء فرنسا، أنصار بيكار وأنصار أندريو، ومع مراسلات فائقة الجمال، ومفعمة بالدماثة وسديدة الرأي كان هناك إلى جانبه تمامًا الأكثر ثقافة بين مندوبي الحروب، والأقلّ كلاسيكية بين المستمعين من مجلس الدولة، بييل، الذي كان يتزوّد بالملاحظات والخبث،

ويراكم كل هذا التبحّر الجميل اللاذع، غير المتوقّع، والخالي من النهج إنما قوي للغاية وغزير، لا بدّ وأنه هاجم به بسرعة ودحض النظام الأدبي المهيمن. وهكذا، سأكرر، ألفى نفسه في موقع، منذ 1814، حيث القلّة القليلة جداً وصلت إليه. في الموسيقا، والرسم، والأدب، ظهر حالاً بقريحة فريدة؛ فكانت أفكاره على وجه الخصوص مثيرة.

في هذا الدور النشط الذي اضطلع به بتميّز مدة اثنتي عشرة سنة، ما زلت أتخيّل صورته. بعد حروب الغزو الأوربّية الكبرى والاجتياح، جاءت حروب القلم وصراعات الكلام على الأنظمة. وعلى هذا - في هذا النظام الجديد- تخيلوا جندياً من الخيّالة، خيّالاً، وحصاناً خفيفاً في الطليعة غالباً ما يذهب ويشتم الأعداء حتى في معقلهم وأيضاً، في فرارهم وهربهم المتكرّر، وتثور نخوته فيستحثّ الرتل الصديق الذي كان يسير أحياناً ببطء شديد وتثاقل، فيرغمه على حثّ خطاه. هذا ما كان دور بييل ومناورته: خيّال طليعة رومانسي، متخفٍ، باسمه ستندال، ولا أعرف بأيّ معطف إسكندنافي يستهزئ فضلاً عن ذلك بما هو وقور وعاطفي، ولامع، ومغامر، ونكِد، وصلب كفاية في الرد، وبارع في المماحكة.

لقد وُلد في غرينوبل الثالث والعشرين من شهر كانون ثان عام 1783، وهو ابن لمحام، وحفيد لطبيب، ينتمي إلى الطبقة البرجوازية العليا في البلاد. نهل مَن عائلته مشاعر الفخر المعتادة كثيراً في هذا الإقليم الجميل والنبيل. تلقّى في بيت جدّه تربيةً جيدة وتثقيفاً متبايناً. في السابعة من عمره فَقَدَ أمّه، فكان أبوه يعيش منعزلاً تماماً عن أولاده. تعلّم على يد معلّميه في اللاتينية، والباقي للمصادفة، كما لنا أن نتخيّله في تلك السنوات من الاضطرابات الأهلية. كانوا في العائلة يقرؤون للشعراء الإيطاليين، ويحب حتى الاعتقاد أنّ عائلة جده تلك من أصول

إيطالية. في العاشرة من عمره، ألّف خفيةً ملهاةً نثريةً، أو على الأقلّ الفصل الأول. هو أيضاً، عاش حقبة فلوريان. إن شرفة بيت جدّه، التي لها إطلالة خلّابة على جبل ساسيناج، والتي كانت مكان الاجتماع في الأماسي الصيفية، كانت كما يقول، مسرح مسرّاته الرئيسة أثناء عشر سنوات (من 1789 إلى 1799). وبدأ بتأهيل نفسه وبالانعتاق متّبعاً حصص المدرسة الرئيسة، المنشأة التي تأسست عام 1795 بموجب قانون الاتفاقية، وفي جزئها الكبير من مخطط السيد ديستوت تراسي. أسميه السيد تراسي؛ لأنه كان أحد عرّابي بييل الفكريّين، الذي حمل له بييل دائما الامتنان وعاهده، حتى النهاية، وأثار إعجابه؛ لأن مدرسة كاباني وتراسي الفلسفية كانت مدرسته، التي يعلنها للملأ في اللحظة التي نتوقّع فيها الأقلّ. هذا الرومانسي المتقدّم جداً يتمتّع بشيء خاصّ، وبكونه في تناقض وعدائية مع نهضة شاتوبريان الأدبية المسيحية ومع سعي مدام دوستايل الروحاني الحثيث؛ فهو يصدر عمّا هو نقي ومباشر من القرن الثامنَ عشرَ. كانت إحدى معايبه في بذل التكلّف. ففي اللحظة التي كان فيها يثير موضوع لوحة بالشكل الأمثل؛ والتي فيها هايدن يقوده إلى ميلتون؛ والتي يأتي فيها ليلقي بإحساس أجمل أبيات دانتي أو بترارك، وفجأة يرجع عن رأيه ويضع على قبّعته شارة كفر صغيرة. ويدفع بهذا التفرّد إلى الخِسّة. كان عقله وقلبه يستحقّان أفضل من ذلك.

لقد روى السيد كولومب - وهو أحد أقاربه وأصدقائه- حياته بصورة جيدة للغاية. لدى مغادرة بييل المدرسة المركزية حيث في النهاية، كان قد درس الرياضيات بحماسة، قدم إلى باريس أول مرة؛ وكان عمره سبعة عشر عاماً، وصل إليها في 10 نوفمبر عام 1799، في اليوم اللاحق بالضبط لـ 18 بريمير: التاريخ الذي لا يُنسى والمناسب جداً ليعطي

بصمة لنفس شابّة! العام اللاحق، وكونه رافق السيد دارو في إيطاليا، التحق بالمقرّ العام وشهدَ كهاوٍ معركة مارينغو. وقد أثارته العجائب، سئم حياة المكتب، ودخل رقيباً في الخيالة في كتيبة الخيالة، وأصبح فيها برتبة ملازم: قدّم استقالته بعد عامين، أثناء اتفاقية سلام أميان. وفي هذه الأثناء، وأثناء إقامته في لومباردي في ميلانو، وفي بريتشيا، وبرغام، وفي هذه السنّ الأقلّ من عشرين عاماً، ووسط عواطف المجد والشباب، وروعة الطقس، والمتعة والجمال، أنهى تعليمه الفعلي، واكتسب التأهيل الداخلي الذي لن يقوم به ثانية إلا للتطوير والنضج مذ ذاك: فقد كان له مثله الأعلى في الفنون الجميلة، والطبيعة، وله وطنه المختار. وإذا بدت روايته شارتروز دو بارم أفضل ممّا ألف، وإذا كان الأمر منوطاً بالقارئ أولاً، فهذا لأنه، من الصفحات الأولى، أعاد بحيوية وروح ذكريات ذلك الزمن المشرق.

وعلى ما أعتقد، أن مونتيني هو من قال: «البشر يفعلون لبعضهم أسوأ ما يستطيعون». وبييل، هذا المتشكّك، والساخر والمتخوّف، قد كان حسّاساً. «لقد أصبحت حساسيتي شديدة للغاية»، فقد كتب قبل مماته؛ «ما يمسّ الآخرين يجرحني جرحاً بليغاً. هكذا كنت في عام 1799، وما أزال هكذا في عام 1840: لكنني تعلّمت أن أخفيَ كلّ ذلك تحت غطاء السخرية التي لا يدركها العامّة».

لم تكن هذه السخرية عصيّة على الإدراك إلى الدرجة التي يعتقد؛ فقد كانت واضحة جداً وتشكّل حاجزاً يسدّ على الكثير من الصفات الحسنة، وتحطّم الموهبة أيضاً. من هنا كان مفتاح بييل. متحدّثاً عن الانطباع الذي يُحدثه على الأرض منظر المنتدى الذي يتأمّله فوق أطلال الكولوسيوم، ويستسلم لحظةً للمضيّ إلى حماسه الروماني، لطالما خشي

الإفراط في قول هذا كيلا يخاطر بسمعته لدى القرّاء الباريسيين فيقول: «أنا لا أتحدّث عن العامّة التي وُلدت كي تتأمّل بإعجاب لغة التفخيم عند كورين؛ فالأشخاص المرهفون قليلاً لديهم هذه المصيبة الكبيرة جداً في القرن التاسعَ عشرَ: فحينما يلاحظون المبالغة، لا تعود نفسهم مستعدّة إلا لاختلاق السخرية». وهكذا، رمى بييل بنفسه في عكس ما هو موجود من كلام مفخّم القريب من الخطابة؛ فسيذهب إلى حدّ احتقار بوسّيه وما يسمّيه جمله. إن ما هو موجود من عقول رتيبة تخلط - وهو يتأمّل راسين بإعجاب - الأجزاء الأكثر ضعفاً مع حالات الجمال الكبيرة، وسيكون بالفعل على وشك عدم الإحساس بـ «أثالي». وما هو موجود من حالات نفاق في الاعتقادات الدينية، لا يحسب نفسه كافراً أبداً؛ فسيذهب إلى حدّ المخاطرة بما هو وقح ومخلّ بالآداب في الوقت المناسب. بالإجمال لطالما كان يصدُّه الخوفُ عن الغُبن ويتملّكه: وهذا هو العيب. لعلّ كبرياءه كان في حالة تثبّطه عن تخمين عواطفه. ولكنّ في الوقت الذي ينام فيه هذا العيب، في تلك اللحظات الهادئة حيث يغدو فيها إيطالياً، ومن سكّان ميلانو، وباريسياً من الزمن الجميل؛ حينما يلفي نفسه في حلقة من الناس الذين يسمعونه، ومن حفاوة من يثق بهم (لأنّ هذا الساخر عند الهجوم السريع يكون بحاجة ماسّة إلى الحفاوة)، في المقابل وأثناء كلّ هذا، تسخر روح بييل، المطمئنة من جانب ضعفه، وبشكل ظاهر للعيان، وبنظرات وقحة، وسعيدة وفرحة، وهو يتحدّث عن الفنون والفنانين، وانجذابهم إلى الخيال، وتأثيرهم الفائق في إبهاج المرهفين، مما يسمح باستشفاف بعض من عواطفه اللطيفة والرقيقة، أو على الأقل بريق حزن سريع في عينيه حيث يقول بييل : أن صالون من ثمانية أشخاص أو عشرة قريبين إلى القلب يكون

فيه الحديث مرحاً وطريفاً حيث نحتسي مشروب البنش[1]. الخفيف في الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً[2]، يكون مكانَ مجتمع أجد نفسي فيه بأفضل حال. وهناك في مركزي أفضّل للغاية أن أسمعَ أحداً غيري يتكلّم؛ بطيبة خاطر لأستغرق في صمت سعيد، وإذا ما تكلّمت، لا يكون إلا لأدفع ثمنَ تذكرة دخولي».

في هذا العام من المارينغو وقبل خمسة عشر يوماً من ذلك، حضر في إيفري عرض ماتريمونيو سيغريتو، لسيماروزا: فكانت إحدى متعه الكبرى وتاريخاً لا يُنسى من حياته فكتب: «كم من الأماكن لن أقطعها سيراً على الأقدام، بعدها بأربعين عاماً، وكم من الأيام في السجن لن أخضع لها كي أسمع دون جوان أو الماتريمونيو سيغريتو! ولا أعلم لأيّ شيء آخر سأبذل هذا المجهود».

لن أتبعه في جولاته عبر أوربّا في عهد الإمبراطورية. فمراسلاته التي علينا نشرها قريباً ستبيّن لنا هذا بالإضافة إلى مصادفة لا تُنسى، ولا سيّما في موسكو عام 1812. وقد فقد مكانه مع دعم السيد دارو عام 1814، بدأ حياته رجلَ فكرٍ ومواطناً عالمياً، أو بالأحرى رجلاً من ميدي يعود إلى باريس من حين لآخر: «عند سقوط نابليون، يقول بييل في مقدّمة حياته لـ روسيني، كاتب الصفحات الآتية، الذي كان يجد خديعة بقضاء شبابه في الأحقاد السياسية أخذ يدير العالم. «رغم عناية بييل التي حرص أحياناً على إخفائها، كانت أعوامه الأربعة عشر

---

1 - البنش: مشروب كحولي إنكليزي يتكوّن من الشاي والسكر والقرفة وعصير الليمون والرّوم. (المترجم).

2 - يسجّل اثنتي عشرة ونصف؛ لاعتقاده أنه لاحظ عندما تدقّ الساعة الثانية عشرة ليلاً، يخلي الضجرون أو الناس عادة الصالون إخلاء منتظماً؛ ولا يعود يبقى سوى انتقاء الناس المحبّبين والمثقفين في كل شيء. (المترجم)

في العيش في عهد القنصلية وعهد الإمبراطورية قد قدّمت له بصمة؛ فبقي موسوماً في زاوية من هذه الحقبة العظيمة، وبهذا يتميّز عن جيل المجدّدين الذين سيختلط معهم ويتقدّم على معظمهم. وتحتم عليه تقديم بعض التضحيات لصوت العصر والتصالح إلى حدّ ما مع الليبرالية، وسرعان ما أصبح القائد والمسيطر: لقد عرف مع ذلك كيف يتملّص ويقاوم التعسّف الأخلاقي الذي كان هذا الرأي حينها -بصفته رأي حزب- يمارسه على العقول الأكثر تميّزاً؛ فعرف كيف يكون مستقلاً، ويفكّر في كلّ شيء ويسير من تلقاء نفسه. «لقد استقال الفرنسيون عام 1814»، كان يقول غالباً مع التأسّف والقنوط كرجل رأى الشمس الأكثر جمالاً والأيام الأكثر مجداً. ولكن ما يخصّه كفرنسي ألم يقدّم قطّ استقالته المطلقة ويبدأ من جديد دائماً؟

أتناول بييل في عام 1814، وفي المجلد الأول الذي نشرته: الرسائل المكتوبة عن فيينا في النمسا حول الموسيقار الشهير جوزيف هايدن، يتبعها حياة موزارت، و.. إلخ، من قِبَل لويس ألكسندر سيزار بومبيه. لم يكن قد فكّر بعد في قناعه ستندال. إنها فرادة وغرابة أيضاً لدى بييل، ناجمة عن المصدر المذكور سابقاً (الخوف ممّا هو مثير للسخرية)، وعن تنكّره هكذا في الكتابة إلى حدّ ما. ويتباهى بأنه ما هو سوى هاوٍ. في هذا المجلّد، يتمّ تقديمُ حياة موزارت كما كتبها السيد شيليتش تيغرول فترجمها ببساطة عن الألمانية: وليس فيها صحيح سوى نقطة معينة؛ أمّا الرسائل حول هايدن، التي تمّت ترجمتها جزئياً وتقليدها عن الإيطالية من قبل كارباني، والمؤلّف لا يذكر هذا، بالرغم من أنه يبدو مشاراً إليه في مدوّنة اشتغلها حول الرسائل الأصلية. فثمة ما يضيع في هذه المتاهة من التعديلات، والاقتباسات والحيل الصغيرة. يا لَعمليات

الحيطة والخداع، يا لُطف الله، من أجل أمر بسيط للغاية! كالبرانس المقنّعة، منذ بدايته، يرتديها فوق ثيابه كمؤلّف.

زد على ذلك أن الكتاب ممتع جدّاً وأحد أفضل أعمال بييل، من حيث إنه أقلّها تفكّكاً. ففنّ هايدن، وعبقريته، وطابع هذه الموسيقا الغنية، والعلمية، والرائعة، والتصويرية، والراقية، تُقدّم فيه بشكل مرهف الحسّ ومفهوم من الجميع. وبييل الأول في فرنسا من يعلّم في هذا الكتاب اسم بعض الأعمال الرائعة التي ستستغرق أمتنا وقتاً لتستسيغها؛ حيث أخذ يعبّر بإبداع، فيما يخصّ مؤلّفات سيماروزا وموزارت، عن طبيعة الروح والميل اللذين هما الأكثر موافقة للتطوّر الموسيقي. وعند حديثه عن فيينا، والبندقية، يظهر هنا السياسة المحظورة، واللّذة اللطيفة المستحوذة على القلوب، والموسيقا، وأرق الملذّات الشهوانية، التي تأتي لتملأ أوقات الفراغ وتجعلها ممتعة فلا يفسدها أيُّ قلق ووحدها العواطف من تنعشُها. إنه يتمتّع بأدقّ الملاحظات حول تناقض عبقرية الشعوب، وحول المرح الإيطالي المتعارض مع المرح الفرنسي: «فالمرح الإيطالي، هو المرح الذي يفصح عن السعادة؛ وبيننا سيكون قريباً جداً من الصوت النشاز؛ وسيُظهر ذاته سعيداً، ويشغل الآخرين بأنفسهنّ بصورة أو بأخرى. أمّا المرح الفرنسي، فلا بد له أن يُظهر للمستمعين أن المرء لا يكون مرحاً إلا كي يعجبهم.. فالمرح الفرنسي يتطلّب الكثير من العقل؛ وهو ذلك المرح الذي لدى لو ساج وجيل بلا: إنّ المرح الإيطالي قائم على رهافة الإحساس، بشكل أنّ الإيطالي، عندما لا يُفرِحه شيء، لا يمرح البتة.»

يبدأ بييل هذه الحرب الصغيرة التي سيشنّها على سمة أمتنا، التي يريد أن يرى زهوها بنفسها دائماً على أنه حافز رئيس وسمة طاغية

فيقول: «الطبيعة جعلت الفرنسي مغروراً وحيوياً أكثر منه مرحاً». ويضيف: «تصنع فرنسا أفضل رماة القنابل في العالم لتستولي على المعاقل بالحراب، وعلى الناس الأكثر إضحاكاً. ليس لدى إيطاليا البتة كوليه ولا ممّا يقارب المرح اللذيذ «للحقيقة» في النبيذ».

سأوقف هنا بييل سامحاً لنفسي بملاحظة أنني لم أفهم فهماً جيداً للغاية التتمة وترابط أفكاره. وأنّ الزهو (كما يدعوه)، المتسامي إلى الشعور بالفخر الذي يولده المرح الحيوي، والصريح، والمسلّي واللذيذ من واحد مثل كوليه أو مثل ديزوجييه، هذا ما أفهمه بصعوبة، فجميع الكوندیلاك في العالم لن يفسّروا لي هذا التحوّل بالعاطفة الشخصية للغاية إلى شيء غير متوقّع جدّاً، ولا إرادي للغاية. وهذا ما جعل بييل يُغالي غالباً في ملاحظة صحيحة بدفعها إلى التمادي وبرغبته في أن يجدها في كلّ مكان. وهو -فضلاً عن ذلك- ثاقب الفكر وذو بصيرة عندما يلاحظ أن الضجر عند الفرنسيين، بدلاً من السعي إلى التخفيف عن أنفسهم واغتباطهم بالفنون الجميلة، هُم يفضّلون التلهّي والتسلّي بالحديث: لذا أجده منهجياً حينما يقدّمه في الحديث، فيقول: «الزهو الذي هو شغفهم الطاغي، يجد في كلّ لحظة الفرصة في الظهور، سواء في صُلب ما يقولونه، أو بطريقة قول ذلك. إنّ الحديث، يضيف، بالنسبة لهم لعباً، وسيماء ومظهر أحداث. هذا الحديث الفرنسي، الذي كغريب يمكن سماعُه كلَّ يوم في مقهى فوي وفي الأماكن العامّة، فيبدو لي المتاجرة المسلّحة بوجهَين من الزهو».

لا بدَّ من أن يُترك للشعوب المتنوّعة فطرتها، مع السعي إلى إخصابها وتوسيعها. فالفرنسي اجتماعي، ويكون هكذا بالكلام على وجه الخصوص؛ والشكل الذي يفضّله هو -أيضاً- فالشكل الذي

يقدّمه إلى الفكر وهو يتحدّث، أو وهو يستقرئ، وهو يطلق حكمه وهو يسخر: فالغناء، والرسم، والشعر، كل هذه النشاطات رهينة أذواقه ولا تأتي إلا بعد حين، فالفنون عموماً بحاجة إلى شيء ما لتعجبه وينجح تماماً في بيته، إلى أن يصادف هذا الميل الأولي لروحه ويندمج معها على الأقلّ عند مروره. في فيينا، وفي ميلانو، وفي نابولي، نشعر بغير هذا: لكن بييل لفرط ما شرح هذا الاختلاف وساق له الأسباب، وأراد الإمساك بالمبدأ الوحيد على طريقة كوندياك وهيل فيتيوس، ماذا فعل أيضاً بنفسه، مع استهزائه بالذوق الفرنسي، إلا تقييم الفنون الجميلة على الطريقة الفرنسية؟

في الحقيقة، عندما يستسلم بييل لأذواقه وغرائزه في الفنون، يبدو لي أنه شديد الشبه برئيس بروسيا: فهو يحبّ الرقيق، والخفيف، واللطيف، والسهل في القدسية، السيماروزا، والروسّيني، ولهذا بنظره موزارت هو لافونتين الموسيقا. ويعشق كورّيج المحبّب كما أريوست. وإعجابه تجاه بيترارك صادق، كإعجابه تجاه دانتي. يبدو لي أنه قد تعلّمه بعض الشيء: ففي هذه الأجزاء المتسامية والعنيفة قليلاً، النباهة هي من تنبّه الإحساس داخله.

فصُلب ذوقه وحساسيته هو شبيه بما نتوقّعه من أبيقوري مرهف: «يا للجنون، كتب إلى صديق من باريس عام 1814، في نهاية رسائله حول موزارت، في الانشغال بهذه المصالح السياسية الكبيرة التي لا تهمنا البتة! فأن يعمل ملك الصين على شنق كل الفلاسفة؛ وأن تتخذ النرويج دستوراً، سواء كان حكيماً، أو مضحكاً، ماذا يهمّنا هذا؟ فيا له من خداع مُضحك في تبني هموم الجلالة، وفقط همومها! هذا الوقت

الذي تضيعه في مناقشات تافهة محسوب من حياتك؛ فالشيخوخة قادمة، وأيامك الجميلة تمرّ: فنحن نحبّ، الآن، و.. إلخ.».

ويكرّر اللازمة الشهوانية لحدائق أرميد. ذات يوم في روما وقد جلس على درجات كنيسة سان بييترو في مونتوريو، يتأمّل غروب الشمس الخلّاب، أخذ يفكّر في أنه سيصبح في الخمسين من عمره بعد ثلاثة أشهر، فاغتمّ من هذا وكأنّها مصيبة مفاجئة. كان يفكّر تماماً مثل هذا الشاعر اليوناني، «كم هو أحمق حقّاً الإنسان الذي يبكي على ضياع حياته، والذي لا يبكي قطّ على ضياع شبابه»[1].

لم يكن يحمل تلك العقيدة الصارمة والصعبة أكثر من تلك التي تسمو بالنفس إلى الكمال عند الشيخوخة، التي يعتنقها أنصار دانتي، وميلتون، وهايدن، وبيتهوفن، وبوسّان، ومايكل آنجلو، التي ستكون -أيضاً- نعمة، عندما لا يُرى فيها سوى نهج سام.

أمضى بييل في ميلانو في إيطاليا الجزء الأكبر من السنوات الأولى لعصر إعادة الملَكيّة؛ وعرف فيها بيرون، وبيلّيكو، ومانزوني قليلاً؛ وبدأ يحارب فيها لصالح قضية المدرسة الرومانسية كما كان يتصوّر. وفي عام 1817، كان ينشر تاريخ الرسم في إيطاليا، وأهداه إلى نابليون. يوجد لهذا الإهداء ترجمتان، واحدة فيها اسم المنفي إلى سانت هيلين، والأخرى، الأكثر غموضاً والأكثر إبهاماً، من دون اسم؛ وفي الاثنتين، يُعامل فيهما نابليون كملك ما زال موجوداً، وبارتباط بييل بأعلى السلطات الراهنة (كما يشير) كانت سلسلة أفكاره تؤكّد أنه، في مجال الأدب والفنون، هي خطوة للأمام، وليست ردّ فعل ضد الإمبراطورية، بدعي أنه يحاول أن يخطوَها. في هذه المجلّدات الرائعة وبقراءة

1- لقد كان من الرأي القائل إنّه يجب إخفاء الموت مثلما نخفي آخر وظيفة عبثية للحياة.

مختلفة، كان بييل يتحدث عن الرسم وعن كثير من الأمور الأخرى، عن التاريخ، عن الحكومة، وعن الأخلاق. ونعرف في داخله العكس تماماً إن هذا الشخص الإقليمي الذي سخر منه، الذي كان خوفه الأكبر في أحد الصالونات جاء من كونه أنه وجد نفسه وحيداً في رأيه.

إن بييل بإرادته هو نقيض ذاك الرجل تماماً: فهو معارض للمتعة. ويحبّ بالإجمال أن يكون ذا رأي غير مُتوقّع؛ فهو لا يتحمّل المتفّق عليه في أيّ شيء كان. ولم يعد لديه الإيمان الذي لا يلزم للحكومة النيابية؛ فهو لم يردد مع الفلاسفة ضد اليسوعيين، ولو كان مكان البابا لما ألغاهم كما يقول. فلديه حرف المكيافيلية التي تُنبئ برئيس الدير غالياني، أحد الرجال الذين تعلّق بهم في الماضي (مع مونتيسكيو رسائل فارسية). كان من الواجب فضلاً عن ذلك إيقافه عند كل خطوة لو أردنا بعض التبريرات. ومن فرط قطع صلته بما هو تقليدي، كان يخلط الكثير من الأمور ويضربها ببعض. ولا يدخل في منطق وصحة بعض الأحكام السالفة التي ليست لهذا السبب هي عبارة عن أخطاء. ثمة بعض المناكدة لكثير من الفكر عنده، ولديه ثغرات كبيرة في الحسّ السليم، ولكن بعض الثغرات والفجوات فقط. فهو يتحسّر بشكل خاصّ على العصر الذهبي لإيطاليا، عصر آل لوران الرائع وآل ليون العاشر، الشباب والوسيمين الأصلاء بأعمار السابعة عشر عاماً، والكاثوليكية قبل لوثر، الرائعة جداً، والميسورة جداً في ديارها، والمفضّلة جداً في ازدهار الفنون الجميلة: فكان يعبد الجميل ويعشق هذه البقعة التي على مرأى من جميع من هم جديرون بها، ينطقون فيها بلكنة لا تُسمع بتاتاً في أماكن أخرى: «أو، ديو! كومْي بيلّو!»[1]. في كلّ حين يعرّج علينا

1 - هذا باللغة الإيطالية ومعناه بالعربية: أوه يا إلهي! كم هو جميل! (المترجم)

بعدائية تجاهنا إلى حدّ ما، تجاه فرنسا. لطالما ضمر الحقد لأنصار لا آرب حتى الموت، ولكل أساتذة الأدب والذوق، الذين يفسدون تماماً الذوق والذين - فيما يتعلّق بالمتع الدرامية- سيشوّهون الإحساس داخل المشاهد نفسها. هذا ما قاله وها هو يتهمنا بأننا ميّالون إلى الانسداد، إلى انسدادٍ مستدام، انسدادٍ يتمسّك، بحسب رأيه، بفقدان الطبع وبكل ما لدينا من زهو كبير أكثر من أن نجرؤ على أن نكون ذاتنا. ويأخذ علينا حبّنا في الفنون تلقي الآراء سالفة الصنع، والوصفات المريحة، والاحتفاظ بها طويلاً، حتى بعد أن تجاوزتها الفائدة منها يوماً ما [المدوّنة]. لقد كان لا آرب مفيداً عام 1800، عندما كان لزاماً على جلّ الناس - بعد الثورة- إعادة ترميم تربيتهم: هل هذا سبب لتخليد الأحكام السريعة التي تلقيناها منه؟ وذهب به الأمر إلى اتهام ذلك الرجل الحصيف جداً والبريء جداً لا آرب الذي علّم الأدب لمئة ألف فرنسي جعل منهم قضاة سيّئين، وقد خنق بالمقابل عبقريّين أو ثلاثة، ولا سيّما في الإقليم. ومنذ أن توقّفت سيطرة لا آرب وزالت العوائق، ولما كنّا لم نرَ شيئاً يصدر، لم نعد نصدّق قصة هذين العبقريّين أو الثلاثة المخنوقين. هذا ما كان السيد بييل يقوله عن الرجل.

الآن وقد بدأنا نفهم ماذا كان الدور المحرض لبييل في النقاشات الأدبية لذاك العصر. ولقد فقد هذا الدور الكثير من قيمته اليوم. في الأدب كما في السياسة، أصبحنا عموماً حذرين ورصينين؛ وهذا لأننا ارتكبنا الكثير من الأخطاء. فكنّا نعارض بلا توقّف راسين وشكسبير، فأنصار شكسبير العصريون لم يأتوا، وراسين، وكورنيّ، المعاد إنتاجهما من جديد دفعة واحدة، ذات يوم، من قبل ممثّلة كبيرة، بديا ثانية بنظر الأجيال التي نستهما سابقاً لا أعرف بأيّ شيء جديد ومجدّد. وهذا

يعني، ولكي نكون منصفين، أنه يجب الاعتراف بأن المسرح المعاصر -بمجمله- لم يكن بلا جدارة وبلا قيمة أدبية؛ فالنظريات أفلست؛ وأيّ عبقرية درامية وحدها، استخدمت جيداً كلّ قواها، استطاعت أن تحكم لهما، مع عدم الاستغناء عنها. هذه العبقرية، ألاّ تختص قطّ بالنقد الخلّاق، فقد تخلّفت؛ وتم تقديم بعض المواهب في المرتبة الثانية وسارت حثيثاً إلى المصادفة. وفي هذا الوقت، وتعباً من المقاومة، تم التوقيع على نوع من الصلح بين الأنظمة المتعارضة، فبدت النزاعات النظرية منهكة: المستقبل يبقى مفتوحاً، ويكون كذلك مع امتداد واتساع أفق لم يكن بالتأكيد في عام 1820، تلك المدة التي كان فيها النقّاد أمثال بييل يحاربون كي يفسحوا مكاناً واضحاً للموهبة ويغزوا كلّ مكامنها الصريحة.

إن العدالة تقتضي إذاً أن نتقبّلَ بييل في مدّته وأن نحسبَ له بعض الخدمات التي استطاع أن يقدّمها. فما فعله في الموسيقا لصالح قضية موزارت، وسيماروزا، وروسيني، ضد أنصار باير، وبيرتون والمعلمين المحلّفين لنقد الموسيقا حينذاك، فعله في الأدب ضدّ أنصار ديسّو، ودوفيكيه، وأوجيه، ونقّاد صحيفة نقاشات القديمة، والحكومة الدستورية القديمة، ومعجزات الأكاديمية القديمة. إنّ حملته الأكثر حيوية هي الحملة التي قادها في كرّاسَين يحملان عنواناً: راسين وشكسبير (1825-1823). عندما أقول حملة وعندما أتناول مصطلحات الحرب، فأنا لا أقوم إلا باتّباع خطوط فكر السيد بييل بالضبط: إذ في إقامته في ميلانو، منذ 1818، أجد بأنه مهّد لهذا المشروع الهجومي برسمه خارطة لمسرح العمليات، تمثّل فيها الوضع المُراعى للجيشَين، المدعوّين كلاسيكي ورومنطيقي. فالجيش الرومنطيقي، الذي كان على

رأسه مجلة إدمبورغ، الذي يتألّف من جميع المؤلّفين الإنكليز، ومن كلّ المؤلّفين الإسبان، ومن كلّ المؤلّفين الألمان، وبعض الرومنطيقيين الإيطاليين (أربعة فيالق)، دون أن نحسب مدام دو ستايل كاحتياطية، فقد أقام معسكره على الضفّة اليسرى من نهر كان ممرّاً (نهر الإعجاب العام)، الذي يحتلّ الجيش الكلاسيكي ضفّته اليمنى، لكنّني لا أريد الدخول في تفصيل بارع جداً، لن يُفسّر جيداً إلا بالسيطرة، ومن بعيد يذكّر كثيراً بخارطة تاندر. وأما بييل فمنذ عودته إلى فرنسا، كان على الضفّة اليمنى من النهر، وفي هذا التاريخ، في بلد عدوّ تقريباً: فتخلّص من ورطته بمشادّات كلامية قاسية. في كرّاسَيه، يقاتل الوحدتَين في المكان والزمان، اللتين كانتا ما تزالان مطلوبتين بشدة، فعكف على أن يظهر أنه بالنسبة للمشاهدين الذين يأتون بعد الثورة، وبعد حروب الإمبراطورية؛ والذين لم يقرؤوا كانتيليان، والذين قاموا بحملة موسكو، يلزم أطر مختلفة، وأوسع من تلك الأطر التي كانت تلائم المجتمع النبيل في عام 1670. حسب التعريف الذي يقدّمه عن هذا، فأيّ مؤلّف رومنطيقي ما هو سوى مؤلّف حالي ونشط بشكل أساسي، يمتثل لما يقتضي المجتمع في وقته؛ والمؤلّف نفسه لا يصبح كلاسيكياً إلا في الجيل الثاني أو الثالث، حينما يكون قد صار عنده أجزاء ميّتة داخله. وهكذا، بحسب هذه النظرة، سوفوكليس، وأوريبيد، وكورنيّ، وراسين، وكلّ الكتّاب العظام، سيكونون رومنطيقيين في زمانهم كما كان شكسبير في الزمان الذي ظهر فيه: لم يكن هذا إلا منذ أن زعمنا ضبط الإنتاجات الدرامية الجديدة على صاحبها، فأصبحت كلاسيكية، أو بالأحرى «الناس هم من نسخوها بدلاً من أن يفتحوا أعينهم ويقلّدوا الطبيعة، ومن هم كلاسيكيون في الواقع». تمّ قول كل ذلك بحيوية

ومرح. إنّ المقطع الطويل، وبيت الشعر من البحر الإسكندري، والجزء الوصفي والملحمي، أو من الكناية الجذلة، التي كانت تدخل في المسرحيات التراجيدية في عصرها كل هذا شكّل مادة لسخريته. وكان يحمل على شعر البحر الإسكندري، الذي يدّعي أنه ما هو في أحيان كثيرة سوى كلام فارغ؛ فهو يريد «جنساً أدبياً واضحاً، وقوياً وبسيطاً، يذهب مباشرة إلى الهدف».

لم يكن يجد سوى النثر الذي استطاع أن يقبل به. فكانت الأعمال التراجيدية أو الدرامية النثرية هي ما يتمنّاه. وتجدر الإشارة إلى أنه من حيث الأسلوب، من فرط ما كان يريده واضحاً وطبيعياً، فقد كان بييل يستبعد منه الشعر واللون، وتلك الصور والعبارات العبقرية التي تكسو العاطفة والتي تسمو بلغة الشخصيات الدرامية، حتى في شكسبير والأفضل أن أقول، لا سيّما في شكسبير. وبعدم قبوله إلا بكلمات قصيرة، كان يستنزف توسّع وتطوّر الموضوع، والمفاجئ، وكل الصفات التي هي طبيعية جداً وأيضاً للعاطفة في اللحظات التي تنطلق فيها، وتنتشر إلى الخارج. لقد توفّرت لدينا هذه الأعمال الدرامية أو التراجيدية النثرية، منذ أن كان ما يُدعى حينها بالمثل الأعلى بحسب بييل، «التي دامت عدة أشهر، والتي تدور أحداثها في أماكن مختلفة»؛ ومع ذلك لم يكن كورنيّ ولا راسين قد تفوق عليهما أحد بعدُ. لأنه في مثل هذه اللعبة لا تكفي طريقة النقد، وليس سوى العبقري من يجد فنّه. «فلترسل السماء لنا قريباً إنساناً موهوباً كي يبدع هكذا تراجيديا!» كان بييل يصرخ. ونحن نواصل الأمنية ذاتها، مع هذا الاختلاف حيث كان يبدو أنه يتهم بالتخلّف تارة حكومة ذاك العصر مع رقابتها وتارة الشعب الفرنسي مع حساسياته: «مع ذلك، كان يقول عن فرنسيي عام 1825،

أنهم هم من يجب أن ينال إعجابهم، هؤلاء الأناس ثاقبي الفكر لدرجة عالية، والسلسين للغاية، والحساسين جداً، المترصدين دائماً، والفريسة لعاطفة عابرة دائماً، العاجزين عن إحساس عميق. لا يؤمنون بشيء سوى الموضة.. وفيما يخص ذلك يقول السيد بييل: «للأسف! لقد عدنا حقاً من هذه الخصومات إلى جزء من الجمهور من قبل المؤلّفين. هذا الجمهور، كالذي نعرفه اليوم، قد لا يكون عصيّاً للغاية فيما يخصّ متعته: على أن نقدّم له فقط شيئاً حقيقياً بعض الشيء، ومؤثّراً قليلاً، ولائقاً، وطبيعياً وعميقاً، سواء شعراً، أو نثراً، وسترى كم سيصفّق.

هناك جزءان مميّزان جداً في كل هذه الحرب الكلامية البذيئة جداً شنّها بييل بوقاحة. حينما لا يفعل شيئاً سوى اتهام خصومه الآنيين واحداً واحداً، خصومه الذين يتحدثون عن شكسبير دون أن يعرفوه، وسوفوكليس وأوريبيدس ولم يدرسوهما، وهوميروس لأنهم قرؤوه بالفرنسية، والذين كل سخطهم الكلاسيكي يصل على وجه الخصوص إلى الدفاع عن أعمالهم الخاصة والمسرحيات التي مثّلوها، يكون محقّاً، ومحقّاً عشرات المرات. إنه يسخر سخرية ممتعة من السيد أوجيه الذي تلفظ في إحدى الجلسات العامّة للأكاديمية بكلمات عن الانشقاق أو الطائفة. «جميع الفرنسيين الذين يخطر ببالهم التفكير كالرومنطيقيين هم إذاً طائفيون (هذه الكلمة ممقوتة، يقول معجم الأكاديمية). أنا طائفي،» صاح بييل؛ ووسّع هذا الموضوع بشكل جذل جداً، وانتهى بأن قابل قائمة الأكاديمية آنذاك بقائمة مضادة من الأسماء جاءت في معظمها من المؤسسة المجمعية، التي لم تكن منها بعد والتي تحفزها حظوة الجمهور. هذه هي النقطة المظفرة التي استمال فيها الساخرين إلى جانبه. ولكن ما إن يعرض بييل خططه للأعمال التراجيدية أو

الكوميدية المنثورة، وما إن يورّط نفسه في فكرة ردّ فعل جديد، يبيّن الصعوبة ويفضحه الارتباك. وحول الكوميديا خاصّةً، لقد أخطأ؛ فهو يذكر قليلاً جداً موليير، الحيوي للغاية دائماً والحاضر جداً؛ موليير، هذا الكلاسيكي الذي قلما شاخ، والذي أمتَع كثيراً في عام 1850 كما في عام 1670. ولا يبرر هذا التكذيب الذي يقدّمه مؤلّف مسرحية نساء عليمات ومسرحية كاره البشر لهذه النظرية عن موت جزئي عند جميع الكلاسيكيين. لقد شعر من حينها بهذا النقص، وفي ملحق بكراسَيه الذي لم يُطبع بعدُ، يسعى إلى الردّ على الاعتراض. والاعتراض قائم، وعامةً أكثر، فهو يستحقّ أن نبقيَه ضده.

إن بييل في كتابه الرسائل لا يؤمن كثيراً بما لا يشيخ، وبأبدية شباب العبقري، وبخلود العمل الذي ليس عبارة عن اسم، والذي يشبه، عند هوميروس، الخلود الذي نشرته منيرفا دفعة واحدة على بطلها، بعد العودة إلى إيثاكا.

مهما يكن من أمر، فشرف تدمير بعضٍ من حالات التحامل والروتين التي كانت تتعارض في عام 1820 مع كلّ تجديد، حتى المعتدل، يعود جزئياً إلى بييل والنقّاد الذين عملوا مثله على تربيتنا الأدبية. كان يعمل هذا على طريقته، وليس بقوله لنا الكلمات المعسولة والممالقة مثل معظم معلمينا حينذاك، إنما بإرهاقه لنا وسخريته منا بقصائد تهكمية. كان يخشى، بمحاربته أنصار لا آرب، من أن يشبّههم، فكان يتظاهر بالخفّة، والحيوية، والتهكّم، وبأنه هاوٍ صرف في درج الكلام، ونبيل متنكّر يكتب ويملأ الورق من أجل متعته. وكناقد، لم يؤلّف كتاباً بكل معنى الكلمة؛ فكلّ كتاباته في هذا النوع قلّما كانت إلا عملاً وحيداً وذات العمل الذي بوسعنا قراءته بلامبالاة تقريباً وفي أيّ جزء، وحيث

يبعثر كل ما يخطر له من أفكار جديدة ولمحات. فاستساغة الصحيح والطبيعي التي يعطيها الأولوية غالباً ما تبدو من جانبها رابحة؛ وهي - أيضاً- استساغة بسيطة تماماً أقلّ من أيّ ثأر، قفاز يوضع على العيوب المحيطة التي تصدمها. ففي الحمّام الروسي، عند الخروج من بخار حارّ، نرتمي على الثلج، ومن الثلج نغطس ثانية في الحمّام البخاريّ. فالانتقال المفاجئ من النمط الأكاديمي إلى النمط الطبيعي، كالذي يمارسه بييل، يبدو لي من ذاك النوع. يأخذ تلميذه (لأنه كان لديه تلاميذ) ويخضعه لهذه التجربة العنيفة؛ فلم يعد من مزاج تعوّد على الصعاب في هذا.

لم أتحدّث عن كتابه «عن الحب»، الذي نُشر أولاً في عام 1822، ما من كتابات أخرى له يرجع تاريخها إلى تلك السنوات. وفي كرّاس صغير، نُشر عام 1825 (عن مؤامرة جديدة ضدّ الصناعيّين)، حيث كان أول من احتجّ على النزعة الصناعية وانتصارها المتمادي، وعلى نوع من السعفة التي كانت المدرسة المنفعية تمنحها لنفسها بالذات. لن أدخل في النقطة الخاصة للنقاش، ولن أدقّق فيما لو كان يقصد تماماً فكرة مدرسة سان سيمون للإنتاج التي وضعها نصب عينيه حينها؛ سأدوّن فقط أنه كان يطالب بالجزء الدائم من العواطف المخلصة، وببعض الأشياء المشهورة غير المفيدة، ممّا يدعوه الإيطاليون بالفضيلة.

يكفيني اليوم أن أقدّم فكرة عن طبيعة الخدمات الأدبية التي قدّمها بييل لنا. للمقيمين أمثالي (وكان يوجد الكثير منهم وقتها)، فقد عُرف بأسماء كثيرة، وبخصوصيات أجنبية كثيرة؛ وخلق التوق إلى الرؤية والمعرفة، وأثار الفضول بتلميحاته. وقدّم بعض الشواهد المألوفة عن شعراء إيطاليا الرائعين التي نشعر بالخجل كوننا لا نحفظها عن ظهر

قلب؛ إنّ لديه هذا التبحّر الجميل الذي كان يبتغيه أمير لينيو، الذي يعرف المواضع المفيدة. لزمن طويل كنتُ أنا مديناً له فقط (وعندما أقول أنا، فهذا من باب التواضع، فأنا أتحدّث باسم الكثير من الناس) بالشعور الإيطالي الحيّ وليس الرسميّ، دون أن أخرج من غرفتي. لقد أيقظ وحفّز المخزون الفرنسي القديم قدر ما استطاع؛ فضايق وأغاظ الكسل الوطني لتلاميذ فونتان، إن كان لدى فونتان تلاميذ. لو كان صادقاً، لكان من اللائق لمثل هذا أن يدين له ببعض الحوافز؛ فقد كنا نستفيد من قصائده التهكمية أكثر من امتنانا له على هذا. وقد ناشدَنا جميعاً، من ثم، أن نخرج من الدائرة الأكاديمية والفرنسية بشكل ضيق للغاية، وأن نباشر العمل من الخارج؛ فقد كان ناقداً، ليس من أجل الجمهور، بل من أجل الفنّانين، بل أيضاً من أجل النقّاد بحدّ ذاتهم: فارس قوزاقي مرة أخرى أيضاً، فارس قوزاقي يطعن برمحه وهو يركض، لكنه فارس قوزاقي صديق ومساعد، في دوره كناقد، هذا هو بييل.

بعد شخصية الناقد، في بييل، لا بدّ من الحديث عن بييل الروائي؛ ولكن ثمّة ما يُقال عن الدور الذي لعلّه دوره قبل كل شيء، وعن الموهبة التي أبدع فيها أكثر: إن بييل مرشد ثاقب الفكر، لطيف وواثق، في إيطاليا. فمختلف الأعمال التي نشَرها جديرة بالحمل أثناء السفر، ويمكننا أن ننصح على وجه الخصوص بنزهاته في روما؛ إنه تماماً يشبه الحديث عن دليل سياحي، رجل فكر وذوق سليم، يدلّك في كل مناسبة على الجميل، بما يكفي لكي تشعر به من تلقاء ذاتك إن كنتَ جديراً بهذا؛ ويضيف ذكرياته إلى ما يراه، وطُرفه، ويستطرد عند الحاجة، إنما بإيجاز، إنه مثقّف ولا يُضجر أبداً. أمام هذه الطبيعة «حيث الجو فيها هو أعظم الفنانين»، كان لنزهاته الفضل بتقديم الملاحظة الحية؛

والسريعة، والراقية؛ اقرأها في السيارة أو على سطح باخرة، أو مساءً بعد أن رأيتَ ما أشار إليه المؤلّف، فستجد فيها الانطباع الحقيقي، والمثالي، والإيطالي أو اليوناني: عنده ومضات من رهافة الإحساس الطبيعي والتأثّر الصادق، التي يستنهضها بسرعة، إنما يوصلها. إن عيوب بييل لم تعد في هذا حينما نتناوله بهذا الشكل في حالة المسافر وحينما نستعمله كرفيق سفر. في عام 1829، سبق له وزار روما ستّ مرات. وعند تعيينه قنصلاً بعد تموز 1830، في تريبست أولاً، ثم، وبرفض براءة الاعتماد من قبل النمسا، تم تعيينه قنصلاً في سيفيتافيتشيا، وأصبح في السنوات الأخيرة من أهالي روما. ولدى عودته إلى إيطاليا، بعد ثورة تموز تلك، لم يعد يجد كلياً إيطاليا التي عرفها: فكتب من سيفيتافيتشيا في ديسمبر 1834: «إن إيطاليا لم تعد كما عشقتها في عام 1815؛ فهي واقعة بغرام شيء لا تملكه. فالفنون الجميلة، التي خُلقت إيطاليا لها، لم تعد سوى أسوأ ما يكون: فهي مستَذلَّة بعمق، في كرامتها المفرطة، لعدم امتلاكها ثوباً ليلكياً كشقيقاتها الأكبر سناً فرنسا، وإسبانيا، والبرتغال. ولكن، إن كانت تملكه، فهي لن تستطيع ارتداءه. قبل كل شيء، قد يلزم عشرون سنة من القضبان الحديدية من فريدريك الثاني لتعليق مشانق القتلة وسَجن اللصوص». وواصل حبّه لإيطاليا التي كانت بحسب قلبه، إيطاليا الفنون ومن دون السياسة. لقد اعتاد على قول إنّ السياسة المتدخِّلة فجأة في حديث شائق وغير مغرض، أو في عمل أدبي، «كانت تؤثّر فيه كتأثير طلقة مسدس في حفلة موسيقية». كل من ذهبوا إلى روما في الأعوام التي كان فيها قنصلاً في سيفيتافيتشيا استطاعوا أن يعرفوا بييل، والغالبية كان عليهم أن يستفيدوا من إرشاداته وإضاءاته؛ فقد كان هذا التهكّم والاستهزاء

المسلّح بالسخرية الموجِب الأكبر للناس. عبثاً قال عن ضير الفرنسيين؛ فهو عندما لم يرَ ضيراً مرة واحدة منذ زمن طويل، وعندما كان الوافد الجديد إلى سيفيتابريتشيا يقصده (إن كان يجده رجل فكر)، كم كان سعيداً باستعاضته عن امتناعه المتكلّف ببعض الأحاديث بلا نهاية! وكان يرافقه إلى روما ويصبح عن طيب خاطر دليلاً سياحياً شخصياً. في رحلة قام بها إلى إيطاليا العالم السيد فيكتور لوكلير كالذي كان أمبير سلطته الروحية، كان بييل، وهو جزء من الحملة الرومانية، يُبهج الآخرَين في كل خطوة من إشراقاته، ويبرع براعة خاصة في وضع رفيقيه العالمَين على صلة بروح أهل البلد حيث كان يقول: «إن السماء وهبتني الموهبة في استقدام الكثير من الفلاحين». فبشاشته الحاضرة والمرحة، وقامته القصيرة والسمينة على شاكلة سيلين، لا أعرف أي هيئة هجائية كانت تدوّن كلامه، كل هذا ينجح بإبداع لدى قاطفي العنب، والحصادين، والشابات اللاتي يذهبن لجلب الماء من نبع تيفولي كما في زمن أوراس. وهذا الرجل نفسه الذي كان سيمثّل على طبيعته في تمثيلية إيمائية قديمة، كان هو من يشعر بالعظيم والسامي بشكل مريح جداً تحت قبّة سان بيير. أقول أمام صفات الرجل المميّز الذي أتحدّث عنه؛ لن ينكر أحد - في الحقيقة- بأنه لم يحمل تلك الصفات[1].

لم يكن بييل دليلا في إيطاليا فقط، فقد قدّم في عام 1838 مجلّدين عن رحلة في فرنسا عنوانهما ذكريات سائح: مندوب مبيعات، ولمّا كان يوجد القليل منهم كان المفروض فيه أخذ هذه المدوّنات التي تشكّل تتمتها يوميات متنوّعة كثيراً وممتعة. غير أنّ بييل لم يعد في مكانه هناك، فنشعر بأنه مبتدئ قليلاً في هذا على الأرض الغاليّة؛ فعندما

1 - قال أحدهم عن بييل: «إنه أفضل السائحين، والأقلّ من قدّم دليل سفر إلى القدس»

يتحدّث عن الآثار القديمة أو الفنّ القوطي، نلاحظ أنه قام في السنة الماضية، بجولة في فرنسا مع السيد ميريميه، الذي استفاد منه هذه المرة وعنه، في هذه النقطة، يحفظ درسه. إلا أنه بالنسبة لمن يعرف القراءة فهناك أشياء جميلة في كلّ مكان معه، حيث أن لمحات رجل فكّر تدعو إلى التفكير. على سبيل المثال، على الطريق من لانغر إلى ديجون، يصادف هضبة صغيرة تغطيها الغابة التي لها وقع كبير، بمشاهدة المنظر المحيط فتمتّع النظر ويُحدث بييل نفسه: «أي وقع لا يكون لجبل فنتو أو أقلّ الجبال المستخف بها في ضواحي نبع فوكليز!» ثم يواصل حديثه الحالم: «لسوء الحظّ، لا يوجد جبال عالية بالقرب من باريس. لو وهبت السماء لهذا البلد بحيرة وجبل مقبولَين، لكان الأدب الفرنسي رائعاً بشكل آخر تماماً. في العصور الجميلة لهذا الأدب، بالكاد لو تجرّأ لابروبير، الذي تحدّث عن كلّ الأشياء، على قول كلمة واحدة وهو ينتقل من الانطباع العميق الذي يتركه في بعض النفوس أي منظر مثل منظر بو أو كراس في دوفينيه». وما إن يكتب بييل حول الفصل الجمالي هذا مفكّراً بشكل خاص في الحدائق الإنكليزية، يستحضره من إنكلترا كعربات المسافرين المتقنة والبواخر: الروعة الأدبية، ينساها، فتأتينا على وجه الخصوص من سويسرا ومن روسّو؛ ولكن ما هو جميل ورقيق أدبياً، هو الملاحظة التي تلي: «الأثر الأول للانتباه إلى العناصر الطبيعية التي وجدتها في الكتب التي نطالعها، هو هذا الصفّ من أشجار الصفصاف التي يحتمي تحتها دوق نيمور، وقد قاده إلى اليأس دفاعه المستميت عن أميرة دو كليف». حتى ونحن نصحّح وندحض هذه الطرق في التمادي في ذكر حالات الحرمان، نصل إلى أفكار ما كنا سنحصل عليها بشكل آخر ونحن نتبع الطريق الكبير المطروق من

قبل بعض الكتاب العاديين. وحول ديدرو، بمناسبة لانغر وطنه؛ وحول ريوف، بانتقاله إلى ديجون حيث كان محافظاً؛ وحول ضفاف السون الخلابة وهو يقترب من ليون؛ وحول المكان الذي قضى فيه روسّو الليل في العراء وهو يسمع الهزار؛ وحول هذا المكان الآخر حيث على الأرجح، بحسبه، كان لـ مدام رولان أملاكها الصغيرة قبل الثورة، مدام رولان التي لا يسميها بييل ويدل عليها ببساطة «المرأة الأكثر احتراماً في العالم عندي». وحول مونتيسكيو «الذي يرى أن أسلوبه بهجة للروح»؛ وحول حشد من الأشخاص المألوفين أو الفضوليين. هناك هذه الأشياء التافهة التي لها قيمة عند من يفضّلون كلمة قوية وصادقة التعبير تشي سلفاً في جملة أو حتى في صفحة بما هو متوقّع. في نهاية المجلد الثاني، تتم معاملة لو دوفينيه من قبل المؤلّف بمجاملة خاصة: بييل ليس جاحداً تجاه إقليمه الجميل؛ فيتذكّر كل الأمجاد فيه ولا سيّما ليديغيير الشهير، الممثّل والنموذج لسمة الدوفيني، باسل، ونبيه، وغير مغفل أبداً. يحرص بييل بشدة على السمة الأخيرة التي يعود إليه ادّعاؤها: «ليديغيير، هذا الثعلب الماكر، يقول، كما كان يدعوه دوق سافوا، يسكن عادة في فيزيل، وبنى فيها قصراً... وفوق الباب الرئيس، نرى تمثاله البرونزي كفارس؛ إنه نقش قليل البروز. ومن بعيد، تشبه صور ليديغيير صور لويس الثالث عشر؛ ولكن، عند الاقتراب، تفسح الصورة الجميلة الخالية من ابن هنري الرابع الضعيف المكان لسيماء ماكرة ومبتسمة للجنرال الدوفيني العظيم، الذي كان فضلاً عن ذلك من أكثر رجال عصره وسامة».

إن ذكريات 1815 والعودة من جزيرة إلب تمّت روايتها هناك بالتفصيل وبحماسة رجل معاصر شبه شاهد على العصر: فالماضي

الفروسي نشعر به بنبل فيها. وعلى ضفاف إيزير، يلاحظ أطلال قصر بايار: «هنا ولد بيير دو تيرّاي، هذا الرجل البسيط جداً، يقول بييل، الذي، مثل ماركيز بوزا لشيلر، يبدو أنه ينتمي بسمو وسماحة نفسه إلى قرن متقدم أكثر على قرنه الذي عاش فيه». ولكن في الصفحة التالية عند زيارته لقصر تانسان، وهو يأتي على تسمية الكاردينال دوبوا لماذا يستثير بييل بكلمتين رد الاعتبار الذي يصرخ قائلاً: «كانت فرنسا ستثير إعجابه، لهذا الكاردينال لو وُلد نبيلاً كبيراً؟» دوبوا إزاء بايار! حيث إن هذه الأفكار المتنافرة والمتناقضة سيكون لها وقع أكثر بكثير -أيضاً- عندما سيرغب بييل أن يخلق من جهته بعض الشخصيات.

حقّق بييل كروائي بعض النجاح. فقد أعدتُ لتوّي قراءة معظم رواياته. كانت الأقدم عهداً رواية أرمانس أو بعض المشاهد من صالون باريس، التي نُشرت عام 1827. لم تنجح رواية أرمانس ولم تُفهم جيداً. فقد ألفت دوقة دورا حديثاً روايات رائعة أو جديدة استساغها كثيراً عالم الكبار؛ وكانت قد عملت فضلاً عن ذلك في صالونها على قراءة إحدى القصص الصغيرة التي لم تُنشر عنوانها أوليفييه. إن هذه القراءة المرويّة بأمانة إلى حدّ ما أثارت الخيالات في الخارج، وكان هناك نوع من المسابقة الخبيثة حول الشخص الذي يُفترض أن يكون أوليفييه. وبييل بعد لاتوش، أخطأ في العمل على هذه المواضيع المستحيلة في رواياته وغير ممتعة لعسر فهمها. فبطله أوكتافيوس، الشاب الثري، وغير المبالي والضجِر بعقل راجح، يُقال لنا إنما صاحب نزوات، غير كفء ولا يعرف سوى إيلام من تصنّع حبهم، لا ينجح إلا في أن يكون بغيضاً ويضيّق صدر القارئ. لم تكن الصالونات التي في متناول نظر المؤلّف مرسومة بالحقيقة، لسبب بسيط جداً وهو أن بييل لا يعرفها. لقد كان

ما يزال يوجد في عهد إعادة الملَكية خطّ فاصل في عالم الكبار؛ فلم يذهب إلى ضاحية سان جرمان التي كان يعنيها؛ فمن كانت ولادتهم لا تُسكنهم بتاتاً فيها من البداية لا يدخلوها، ومذ ذاك الأمر ذاته، حول لصيقة عقلهم الوحيدة. فالسيد بلزاك وآخرون في زمانهم لا يلوون على شيء إلا الرغبة في أن يُقبلوا هناك: وقبل 1830 كان هذا الأمر مادة للتفاوض، وعلى الأقل أن يكون زاوية سياسية ولم يصلوا إلى حلّه. وبيبل، الذي كان يعيش في صالونات ساحرة، وأدبية وأشياء أخرى[1]، تحدث إذاً عن أهل ضاحية سان جرمان كما نتحدّث عن بلد مجهول حيث نتصوّر فيه وحوشاً؛ فالأشخاص الاستثنائيون الذين في متناول نظره (في صورة مدام بونيفيه، على سبيل المثال) لا يشبهون الأصل. وهذه الرواية، الغامضة في صلبها وغير حقيقية في التفصيل لا تعلن عن أيّ إبداع ولا عن أيّ عبقري.

أما رواية الأحمر والأسود التي لا نعلم كثيراً لماذا هي بهذا العنوان، ويرمز علينا أن نخمّنه كان يجب أن تصدر عام 1830 فلم تُنشر إلا في العام اللاحق؛ وهي على الأقل رواية تحمل بعض الأحداث. المجلد الأول له بعض الأهمية رغم النهج والأمور المستَبعَدة. لقد أراد المؤلّف أن يرسم طبقات وأحزاب ما قبل عام 1830. فيقدم لنا أولاً منظر مدينة جميلة وصغيرة اسمها فرانش كونتيه مع عمدتها الملكي رجل مهم وثري وأحمق بعض الشيء، له زوجة جميلة وبسيطة وولدان وسيمان؛ الأمر بالنسبة له أن يكون لديه مربٍ في المنزل بغية إغاظة منافس له على المكان أولاده ليس لديهم مربٍ. والمربّي الصغير الذي تم اختياره، اسمه جوليان وهو ابن نجّار. فتى في التاسعة عشر من عمره يعرف

1 - في صالون مدام باستا، وعند مدام سشبازيتي، وبعض الإيطاليين، وتلك التي كانت الغرام الكبير لفيكتور جاكونت، وعند مدام أنسيلوت، وعند السيد كوفييه، و.. إلخ.

اللغة اللاتينية ويدرس ليصبح كاهناً. يحضر ذا صباح إلى باب سور حديقة السيّد رينال (وهذا اسم العمدة) بقميص ناصع البياض، حاملاً تحت ذراعه سترة نظيفة تماماً من نسيج مجعّد الوبر بلون بنفسجي. تستقبله مدام دو رينال مندهشة قليلاً بداية من أن يكون هذا هو المربّي الذي اختاره زوجها لأولاده. ويصادف أنّ هذا الصغير جوليان مرهف الإحساس وشغوف، عصبي وطموح وعنده كل العيوب النفسية التي للفتى جان جاك المغذيّة لحقد الفقير على الغني ومن هو تحت الحماية على من هو ذو سلطة فيتغلغل ويوقع الأمّ في حبّه ولا يهتمّ بالأولاد في شيء، ولا يسعى في القريب إلا لأمر واحد وهو أن يثبت قوته بالانتقام بدافع الزهو وبدافع الكبرياء بتنغيصه عيش هذه المرأة المسكينة التي يغويها ولا يحبها، وبتلطيخ شرف هذا الزوج الذي يكن له الحقد كما للأعلى منه. ثمة فكرة هنا. في حقيقة الأمر بييل ذو فكر أرستقراطي: ذات يوم عند رؤيته الانتخابات، تساءل ما إذا كانت هذه العادة الانتخابية لا تجبرنا على التملّق للطبقات الماضية كما في أمريكا. فصاح: «في هذه الحالة سأصبح أرستقراطياً بسرعة كبيرة. لا أريد أن أتودّد لأحد وللشعب أيضاً إنما أقلّ من الوزير». ومن ثمّ بييل يقلقه هذا الاستعداد لشق طريقه الذي يبدو له بعد اليوم الشغف الهزيل والوحيد للشباب المثقف والفقير. شغف يهيمن ويغير لصالحه مجرى اندفاعات العمر حتى: فيجسّده بكثير من الحقيقة بداية في شخصية جوليان. فكان له لهذه المقدّمة للرواية مثل محدّد كما أكّدوا لي، في شخص من معارفه وما دام ظل قريباً جداً من هذا، استطاع أن يبدو صادقاً. فالمقدمة السريعة عن هذا الشاب الوجِل والخجول في هذا العالم الذي لم يستعد له تربوياً، إنما كان يشتهيه من بعيد؛ هذا الدور للزهو الذي يشوّه كلّ

العواطف داخله، الذي يجعله يرى، حتى في عاطفة امرأة ضعيفة تهزّ المشاعر، هذه العاطفة ذاتها أقلّ بكثير من فرصة قُدمّت له ليستحوذ على بعض التصرّفات اللبقة والملذات من الطبقة العليا؛ فهذا العتوّ المحتقِر الذي وصل إليه بسرعة تجاه العتوّ الذي كان سيتوجب عليه أن يخدمه ويبجّله؛ والوهم المستدام لهذه الضحية الهشّة والجذّابة، مدام دو رينال: كلّ هذا تم الوصول إليه بشكل جيد أو كان سيكون كذلك، لو اهتم المؤلّف في طريقة القصّ بشكل أقلّ بعض الشيء وقلّل من قصيدته التهكمية. إن عيب بييل كروائي هو كونه أنه لم يأتِ إلى هذا النوع من التأليف إلا انطلاقا من النقد، وبعد بعض الأفكار السابقة والجاهزة؛ فهو لم يتلقَ البتة من الطبيعة هذه الموهبة الواسعة والخصبة في سرد يدخل فيه براحة ويتحرّك من ثم، حسب مجرى الأحداث والشخصيات كالتي خلقها؛ فهو يشكّل شخصيّاته بفكرتين أو ثلاث يعتقد بأنها صحيحة ولاذعة بوجه خاصّ، التي يهتمّ باستحضارها في كل حين. إن هذه الشخصيات ليست حيّة، إنما مسيَّرة مبنية بمهارة؛ نرى فيها، في كلّ حركة تقريباً، النوابض التي أدخلها الميكانيكي وحرّكها من الخارج. في الحالة الراهنة، في الأحمر والأسود، لم يعد جوليان، مع الفكرتين والثلاث الثابتة التي أعطاها له المؤلّف، لا يبدو بعد قليل سوى وحش ممقوت، غير واقعي، وأثيم يشبه واحداً من أمثال روبيسبيير ألقى به في الحياة المدنية وفي الحبكة المنزلية: فينتهي به الأمر إلى المقصلة. إن لوحة الأحزاب والمتآمرين لذاك العصر، التي أراد المؤلّف أن يرسمها، تفتقر - أيضاً- لهذه التتمة والاعتدال في توسيع الموضوع، التي من شأنها وحدها أن تعطي فكرة عن لوحة حقيقية للأخلاق. هل سأخبر بهذا؟ إن زياراته الكثيرة إلى إيطاليا سابقاً، وفهمه الكبير للقرن الخامس

عشر الروماني أو الفلورنتيني، وقراءاته الكثيرة عن مكيافيلي، وأميره وحياته كطاغية داهٍ اسمه كاسترو تشيو، كل هذا أضرّ بـ «بييل» في فهم فرنسا وفي أن يستطيع أن يقدّم لها من هذه اللوحات في الظروف الصحيحة التي تحبّها وتصفق لها. إنه إنسان نزيه بالكامل وإنسان شريف في مبدئه وأفعاله، لم يكن يحمل، أثناء الكتابة، المعيار الأخلاقي نفسه الذي نحمله نحن؛ فكان يرى النفاق هنا حيث لا يوجد سوى إحساس بالتوافق الشرعي وملاحظة عن الطبيعة المنطقية والنزيهة، كالتي نريد أن نجدها حتى عبر العواطف.

في القصص القصيرة أو الروايات التي تحمل عناوين إيطالية، نجح بشكل أفضل. فأثناء إقامته في الدولة الرومانية، وهو ينقّب تماماً وينبش أوانيَ سوداء «عمرها 2,700 سنة، على حسب ما يقولون (أنا أشك هنا كما في مكان آخر، كان يضيف)»، وضع مدّخراته لشراء حقّ صنع نسخ في أرشيفات عائلية تُحفظ بغيرة مفرطة، وكبيرة بقدر ما يكون المالكون لا يعرفون القراءة: لذا قال: «لدي ثمانية مجلدات على الورق (ولكن على صفحة مكتوبة من جانب واحد) صحيحة بالكامل؛ كتبها معاصرون بلغة نصف محرّفة. وحينما سأكون من جديد رجلاً بائساً، يعيش في الطابق الرابع، سأترجم هذا بأمانة. أمانة بحسب رأيي تجعلها جديرة تماماً». كان يتساءل ما إذا بوسعه أن يعنون هذه المجموعة: «أقاصيص رومانية، مترجمة بأمانة عن قصص كتبها معاصرون، من 1400-1650». كان تحرّجه (إذ كان كمحاصّ فيها[1]. في معرفة ما إذا بمقدورنا أن نقول أقصوصة عن قصة تراجيدية. فقصة رئيسة دير كاسترو، التي نُشرت بداية في مجلة ريفو دي دو موند [مجلة العالمَين]

1- صفائي، متنطّس، محاصّ في اللغة لا يريدها إلا أن تكون صافية بانتقاء الألفاظ. (المترجم).

(في فبراير ومارس1839)، كانت تنتمي على الأرجح لهذه السلسلة من الأقاصيص السوداوية والدامية. يطيب للمؤلّف أو المترجم أن يجد في حبّ هيلين لـ «جول برانسيفورت» إحدى علاقاته الغرامية التي لم تعد موجودة بحسب قوله. في عام 1839 والتي كنا سنجدها مضحكة للغاية إذا ما صادفناها؛ فعلاقات غرامية «تتغذّى على تضحيات كبيرة، لا يمكنها أن تستمرَّ إلا وهي محاطة بالغموض؛ وتجد نفسها دائماً قريبة من أكثر المصائب فظاعة». وهكذا يبحث بييل في الرواية عن قطعة لدعم نظريته القديمة والمستمرة التي جعلته يقول: «الحبُّ زهرة زكية الرائحة، ولكن يجب التحلّي بالشجاعة في الذهاب لقطفها من على حوافّ هاوية مرعبة». هذا النوع من الكذب والقصّ مفهوم جيداً في أقصوصة رئيسة دير كاسترو؛ إلا أننا نشعر حرفياً أنّ هذا يصبح نوعاً كغيره، ويجب ألا نستقي منه في أقصوصة أخرى له، التي طُبعت منذ موته (مجلة العالمَين، في الأول من تموز 1847)، أجد أيضاً أقصوصة غرامية رومانية، التي مشهدها، هذه المرة، في بداية القرن الثامن عشر، فغيرة أميرة بلاد شابة تنتقم فيها من طيش شاب فرنسي خائن ومتودّد إلى النساء: القصة قوية، وغير مطبوخة ومستعجلة. فيها إسهاب، وفي النهاية، رصاص وإطلاق نار من طبنجة تقتل الخائن وكذلك فرّاشه: «كان كل منهما قد اخترقت جسده أكثر من عشرين رصاصة»، كنا نخاف إلى حد كبير أن نخسر المعلم. في النوع الأكثر كلاسيكية لـ ديدون وآريان، في الروايات التي من صبغة ولون أميرة كليف، فيها الإسراف بالرصاص والطلقات القاتلة أقلّ، ونتأفّف من المنولوج والأفكار العويصة وخلجات العاطفة؛ فحينما يُدفع بأحد النوعَين إلى النهاية ننتقل طوعاً إلى الآخَر كي نعود إلى استساغتها؛ ولكن، إسراف

وراء إسراف وإفراط شعري معيّن بالعاطفة والإسهاب في اللغة ما يزال الإفراط الذي نملّ منه بالقدر الأقلّ.

إن رواية شارتروز دو بارم (1839) هي الرواية التي من بين كل روايات بييل أعطت لبعض الأشخاص أكبر فكرة عن موهبته في هذا النوع. البداية مليئة باللطف والسحر الحقيقي. نرى فيها ميلانو منذ 1796، حقبة أول حملة لإيطاليا، حتى عام 1813، نهاية أيام عز بلاط الأمير أوجين. إنها فكرة موفقة كفكرة الشاب فابريس، المتحمّس للمجد الذي عند عملية الإنزال التي قام بها نابليون عام 1815 هرب من بيت أبيه بموافقة أمّه وعمّته كي يذهب للقتال في فرنسا تحت الرايات العائدة للظهور. مغامرته الملحمية الغريبة فيها مع ذلك الكثير ممّا هو طبيعي؛ ويوجد باللغة الإنكليزية كتاب أوحى بالفكرة إلى بييل: وهي ذكريات جندي من الفوج الـ 71 الذي شارك في معركة فيتوريا دون أن يفهم شيئاً فيها. تقريباً مثلما يشارك فابريس في معركة واترلو وهو يتساءل بعدها ما إذا كان صائباً أن يوجد في معركة وما إذا كان بوسعه أن يقول إنه هُزم بالفعل. لقد نسّق بييل مع ذكريات قراءته لذكريات شخصية أخرى من شبابه، حينما كان يسافر على صهوة الحصان من جنيف ليشارك في معركة مارينغو. أحب كثيراً هذه البداية؛ لن أقول عنها بمثل ما يأتي. فالرواية هي أقلّ من رواية منها من ذكريات حول حياة فابريس وعمّته، مدام دو بييترانيرا، التي أصبحت دوقة سانسيفيرينا. إن الأخلاق الإيطالية التي يستقي منها بييل بعض الشيء بعيدة كلّ البعد عن أخلاقنا. وفابريس انطلاقا من بداياته وومضة حماسه في عام 1815، كان بوسعه أن يصبح واحداً من هؤلاء الإيطاليين المميّزين ومن الليبراليين الأرستقراطيين الأصدقاء النبلاء لتجديد مستحيل ربما، ولكنه سعى من خلال أمانيهم ودراساتهم ونبل

رغباتهم، إلى ما يسمو بنا بالمخيّلة وما نفهمه (سانتا روزا، القيصر بالبو، كابوني). لكن بييل، بوضعه بطله هكذا لعله كان يخاف من العودة ثانية إلى المكان في هذه الجهة من الألب. فجعل من فابريس إيطالياً قحاً كما صمّمه معدّاً من دون استعداد ليصبح مطراناً، وفي القريب معاون أسقف، وروحانياً إلى حدّ ما وبفتور وفاسقاً وضعيفاً (يمكننا أن نقول رخواً) يهرع كل صباح إلى اقتناص السعادة أو المتعة وقد أُغرم بـ «ماريتا»، ممثّلة من الريف، يظهر معها علناً بلا حياء، ودون مراعاة لنفسه ولوضعه وبلا حرج من عائلته وعمّته التي تحبّه كثيراً. أعلم جيداً أن بييل طرح مبدئياً أن أيّ إيطالي صرف لا يشبه أي فرنسي في شيء وليس عنده زهو، وأنه لا يتصنّع الحبّ حينما لا يشعر به، وأنه لا يسعى إلى إثارة الإعجاب ولا الدهشة ولا الظهور وأنه يكتفي بأن يكون هو ذاته بحرية؛ ولكن ما كان عليه فابريس وظهر تقريباً في كل الرواية، رغم وجهه ومظهره الجميل، بدا قبيحاً للغاية، وتافهاً للغاية، ومبتذلاً للغاية؛ لا يقود إلى أيّ مكان كإنسان، إنما كحيوان مستسلم لشهواته، أو فتى فاسق يتبع نزواته. ما من أخلاق ولا أي مبدأ شريف: فهو مصمّم فقط على عدم التظاهر بالحبّ حينما لا يشعر به؛ وكذلك في النهاية عندما جاءه هذا الحبّ تجاه كليليا ابنة الجنرال الكئيب فابيو كونتي، فإنه سيضحي بكل شيء من أجل هذا الحبّ، حتى بالحرج من عمّته وبامتنانه لها. لقد قدّم بييل في كتاباته السابقة تعريفاً للحبّ العاطفي الذي ينسبه إلى إيطاليا بشكل شبه حصري وإلى طبائع منطقة ميدي: إن فابريس شخصية يعزّز نظريته؛ فيجعله يخرج كل صباح بحثاً عن هذا الحبّ، ولا يجعله يشعر به إلا في النهاية تماماً؛ فيضحي حينها بكل شيء وعلى كل حال مثلما كان يفعل سابقاً في سبيل المتعة. إن المناظر الطبيعية جميلة الوصف والإطلالات الرائعة التي تقدّمها بحيرة كوم ومحيطها لا تستطيع بإطارها وانعكاسها أن تشرّف شخصية تستحق

الاهتمام قليلاً ومؤمّلة للشرف بعض الشيء ومستعدة كثيراً للقيام بأي شيء، حتى القتل مقابل منفعتها الآنية وشغفها. هناك لحظة يقتل فيها فابريس شخصاً، في الواقع؛ صحيح أنه هذه المرة يدافع عن نفسه. فيتقاتل بطريقة دنيئة للغاية على الطريق السريع مع المدعو جيليتي، ممثل ومعيل وعشيق ماريتا التي يكون فابريس صديقها المفضّل. إذا كان علينا أن نناقش محاكاة الواقع للحدث في الرواية فقد نتساءل كيف يحدث أن يكون لهذا الحادث على الطريق السريع تأثير فريد على مصير فابريس في المستقبل؛ وقد نسأل لماذا هذا الأخير صديق (أو من يصدق نفسه أنه هكذا) أمير دو بارم ورئيس وزرائه، ومعاون أسقف وذو الحظوة الكبيرة في هذه الدولة الصغيرة، يلوذ بالفرار مثل مجرم؛ لأنه حصل له أن أقدم أمام شهود وهو يدافع عن نفسه على قتل ممثل من سفلة الناس كان هو أول من هدّده وهاجمه. إن تصرف فابريس وهربه الغريب والعواقب التي استخلصها المؤلّف من هذا قد تكون غير قابلة للتبرير إذا بحثنا، وأكرّر هذا عن محاكاة الواقع وتتمة الرواية التي نادراً ما تكون معقولة برمّتها (أستثني منها البداية كمسخرة روحانية إيطالية. مشاهد العاطفة، التي بعضها جميل للغاية، بين الدوقة عمّة فابريس والشابة كليليا لا تكفّر إلا جزئياً عن هذه الأحداث المستحيلة التي تظهر للعيان وتصدم الحسّ السليم. إن نصيب الحقيقة في التفصيل الذي يمكن أن يمتزج فيها لن يجعلني أبداً أعتبر ذلك العالم سوى عالم خيالي. عالم صنعه تماماً مثلما لاحظه رجل كثير الفكر يصنع على طريقته الماريفودية[1] الإيطالية. يظهر التكلّف والتصنّع لهذا النوع من القصّ أكثر فأكثر وهو يتقدّم.

1- الماريفودية: تكلّف في التأليف القصصي أو المسرحي على نحو ما فعل الكاتب الفرنسي ماريفو. (المترجم)

عند الانتهاء من هذه المطالعة، سأحتاج إلى إعادة قراءة بعض الروايات البسيطة تماماً والمترابطة كلياً، عن طبيعة إنسانية رحبة وطيبة، لا تكون فيها العمّات مولعات بأبناء إخوتهم، ولا يكون فيها معاونو الأساقفة فاسقين ومنافقين بهذا الشكل مثلما يمكن أن تكون عليه ريتز في شبابها، وأقلّ روحانية بكثير؛ وحيث التسميم، والخيانة، والرسائل المجهولة، وكل حالات الخبث، ليست وسائل عادية ومقبولة ولا اكتراثية؛ وحيث، بذريعة البساطة والهروب من التأثير، لن ألقي بنفسي في بعض التعقيدات التي لا تُصدّق وفي آلاف المتاهات الأكثر فظاعة والأكثر تعرّجاً من متاهات كريت القديمة.

منذ أن أغاظ بييل فرنسا والمشاعر التي نحملها في أدبنا وفي مجتمعنا، تملكتني الرغبة أكثر من مرة في الدفاع عنها. فإحدى أكبر نظرياته، التي كتب من خلالها رواياته من ثم، كان الحب في فرنسا غير معروف تقريباً؛ فالحبّ يستحقّ هذا الاسم، كما يقصد به، والحب العاطفي، والمرض، الذي، من طبيعته، هو شيء على حدة بالكامل، مثلما يكون عليه التبلور في عالم الجماد (التشبيه مأخوذ عنه): ولكن عندما أرى ما أصبح عليه هذا الحب العاطفي بقلم بييل في قصصه عند الأشخاص الذين يبدو أنه يعرضهم علينا كمثال، عند فابريس عندما يصيبه العشق أخيراً، وعند رئيسة دير كاسترو، وعند الأميرة كامبوباسو، وعند مينا دو فانجل (أقصوصة أخرى له)، أعود للحب والشرف الفرنسي، مزيج من الجاذبية الجسدية بلا شكّ، ولكن أيضاً من الذوق والميل الأخلاقي، والشهامة الرقيقة، والاحترام، والحماسة، والسبب نفسه، الروح، حب حيث ما يزال هناك القليل من الحسّ السليم، حيث لا يُنسى المجتمع تماماً، وحيث لا يتمّ التضحية بالواجب بشكل أعمى ويتم تجاهله. وبولين، في مسرحية لكورنيّ، يمثّل لي حقّاً المثل الأعلى للحبّ، حيث

يُدخل مشاعره المختلفة، وحيث يُسمع -السمو والشرف- صوتهما. قد نجد من هذا، ونحن ندقّق، أمثلة أخرى تتماشى مع المتعة ولياقة معينة في الحياة، حب أم علاقة، أم تعلّق محترم ورقيق، لا يهمّ الاسم[1]. فالحب العاطفي، كالذي رسموه لي في ميديا، وفي فيدر أو في ديدون، لشعراء خالدين، يسرّ النظر بفضلهم، وأتأمّل لوحته بإعجاب: لكنّ هذا الحبّ العاطفي، الذي أصبح منهجياً عند بييل، يفقدني الصبر؛ فهذا النوع من المرض الحيواني، الذي كان فابريس مثلاً أعلى عنه في نهاية حياته المهنية، قبيح للغاية وليس له شيء من الجاذبية في خاتمته الغبية. بعد أن قرأنا ذلك، نعود بشكل طبيعي تماماً إلى النوع الفرنسي، فيبدو لي في الواقع من أنواع التأليف الرومنطيقية، أو على الأقلّ إلى النوع الواسع والمفعم بالقريحة؛ فنحن نطلب نصيباً من العقل، والعاطفة السليمة، والبساطة الحقيقية التي تعرضها قصة خطّاب مانزوني، وكل رواية جيدة من قبل والتر سكوت، أو أقصوصة رائعة وبسيطة حقّاً من كزافييه ميستر. والباقي ما هو سوى عمل لرجل فكّر وتعبَ من التنسيق بين مفارقات التحليل اللاذعة وغير المتوقعة وربطها ببعض المفارقات التي يعطيها أسماء بشر؛ لكن الشخصيات لم تولد بالفعل في خياله أو في قلبه، وهم لا يعيشون ضمن الواقع.

إننا نرى كم أنا بعيد، فيما يتعلّق بـ «شارتروز دو بارم» لـ «بييل»، عن مشاطرة بلزاك حماسه. لقد تكلم ببساطة تامة عن بييل الروائي كما لو أنه كان يحب أن نتحدّث عنه هو بالذات: إنما هو، على الأقل كان يتمتّع بالقدرة على تصوّر فكرة أولية ويبث الحياة في بعض الكائنات التي يلقي بها من ثم في عالمه الواقعي أو الخيالي التي لا نعود ننساها.

1- أحبُّ أن أقدّم لنفسي هذا الحبّ الفرنسي أو هذه الصداقة الرقيقة، في خلجاتهما المختلفة، انطلاقا من أسماء مدام دو لافاييت، ومدام دو كايلوس، ومدام هوديتوت، ومدام إبيناي، ومدام بومون، ومدام كوستين؛ فلا تغيب فيها الكياسة أبداً.

لقد أشاد كثيراً في رواية شارتروز بشخصية مونت موسكا، الوزير ورجل الفكر لدولة مستبدة صغيرة، الذي اعتقد أنه يرى فيه صورة تشبه أمير ميترينيتش: لم يفكّر بييل في هذا أبداً. فضلاً عن ذلك، لا يمكن للمرء أن يكون أقلّ تشابهاً من بييل وبلزاك. فهذا الأخير كان كثير الثقة بنفسه بقدر قلة الثقة لدى الآخر. كان بييل دائماً متحفّزاً ضد الأحمق، ويخشى من كلّ ما يسمح باختراق الغرور. كان يفكّر باستمرار بالمثير للسخرية وبما لا يبعث على ذلك، والسيد بلزاك ليس من هذا الرأي حتّى. فعندما كتب السيد بلزاك حول بييل، بخصوص رواية شارتروز، المقالة المدرجة في رسائل باريسية، قال له بييل، في نهاية رده المؤرّخ من سيفيتافيتشيا (أكتوبر 1840)، وبعد عبارات الشكر الغامضة على هذه القنبلة شديدة الإهانة في كلمات الإطراء التي كان يتوقّع منها القليل جداً، قال له: «هذه المقالة المدهشة، كالتي لم يتلقها قط كاتب من آخر، قرأتها، وأجرؤ الآن على الاعتراف لك بذلك، وأنا أنفجر بالضحك. كلما كنت أتوصّل إلى ثناء قليل القوة، وأصادفه في كلّ خطوة، أرى الهيئة التي سيتخذها أصدقائي وأنا أقرأ هذا[1].

1- القصة الحقيقية المأخوذة من مصدرها: «نعلم أن بلزاك كان معجباً ببييل بجنون على روايته شارتروز دو بارم والذي امتدحه حتى الموت في مجلته الباريسية. كان بييل، في هذا الوقت تقريباً، عائداً من روما، من سيفيتافيتشيا، إلى باريس، وفي أول مدة كان يخشى المثير للسخرية، فكان مشوّشاً تماماً من هكذا مديح مفرط للغاية، ولم يعرف أين يختبئ. غير أنه رأى بلزاك ولم يكن ممنوناً منه على تعرضه للقصف بهذا الشكل كرجل عظيم. كان بييل، في هذه الأثناء، يبيع إلى مجلة العالمين سلسلة من الأقاصيص الإيطالية التي ينوي أن يؤلفها التي ليس لديه منها سوى أقصوصة أو اثنتين منجزتين. وتلقى لقاء هذا مبلغاً قدره 3,000 فرنك. ومع ذلك، عند موته، عُثر في أوراقه على دليل يثبت أن هذه الـ 3,000 فرنك تم تقديمها أو إقراضها من قبله إلى بلزاك الذي دُفعت له لقاء مديحه: خدمة مالية مقابل خدمة الغرور. أكد هذه الحادثة السيد كولومب، صديق بييل الحميم بالذات».. وأنا لن أضيف سوى كلمة واحدة هي كلمة شاعر ميترومانيا: هذا الجمع بين المجد والكسب يضايقني!

كلاهما لا يقلّان اختلافاً بالطريقة التي يتصوّران شكلها وأسلوبها، أو طريقة التعبير عن النفس. حول هذه النقطة، كان السيد بلزاك يعتقد أنه لم يفعل فيها ما يكفي أبداً. في مذكراته عن سائح، وبمروره لا أعرف في أيّ مدينة من بورغونيّ، قال بييل: «وجدت في غرفتي مجلداً للسيد بلزاك، هو رئيس الدير بيروتو دو تور. كم أكِنّ الإعجاب لهذا المؤلّف! الذي عرف جيداً كيف يسرد مصائب المنطقة وصغائرها! كنت أحبّذ أسلوباً أكثر بساطة؛ ولكن، في هذه الحالة، هل سيشتريه أهل المنطقة؟ أظنّ أنه يكتب رواياته على مرحلتين؛ بدايةً بطريقة معقولة ثم يُلبسها أسلوباً نيولوجياً جميلاً يتّسم باستعمال الألفاظ الجديدة مع براءات النفس وتثلج في قلبي وأشياء جميلة أخرى». من جانبه، كان السيد بلزاك يجد أن أسلوب بييل ينقصه شيء ما ونحن نجد هذا أيضاً. كان هذا الأخير يلقن أو يخربش مثلما يتحدّث وحينما يريد أن يصحّح أو ينقّح، يُعيد الكتابة بشكل آخر فيبدأ ثانية بمحض المصادفة تماماً للمرة الثانية أو الثالثة دون أن يكتب أفضل من المرة الأولى بالضرورة. ما لا يدركه من أول كلمة لا يبلغه ولا يصلحه. فأسلوبه، وهو يتمعّن لا يوضّح فكرته؛ فيدّعي لنفسه أفكاراً فريدة لكتاب بحصر المعنى يقول: «عندما آخذ أكتب لا أعود أفكّر في مثلي الأعلى الأدبي فأنا محاصر بأفكار أحتاج إلى تدوينها. وأظنّ أنّ السيد فيلمان محاصر بأشكال الجمل؛ وهذا الذي ندعوه شاعر السيد دليلي أو راسين، بأشكال أبيات الشعر. كان كورنيّ مضطرباً من أشكال الرد». ومن ثمّ كان بييل يكلّف نفسه عناء التعبير عن أمر بسيط جداً؛ لم يكن ممّن تصلهم الصورة في فكرهم أو ممّن عندهم العاطفة الشاعرية والبليغة التي تنفجر وتنبثق بمكانها في تطوّر طبيعي ومنسجم. لم تفعل الدراسة شيئاً عنده للتعويض عن هذا

العيب؛ فلم يكن لديه معلم ولا هذا الأستاذ في فنّ الخطابة الذي من الجيد له أن يكون معه على الدوام ولا بدَّ أن يتمرّد عليه فيما بعد. كان يشعر جيداً رغم النظرية التي اتخذها لنفسه أنه ينقصه شيء ما. وبظهوره على أنه يحتقر الأسلوب يكون منشغلاً جداً فيه.

بانتقادي روايات بييل ببعض الصراحة هكذا، حاشى لي أن ألومه على كتابتها. إذا كان ما يزال من الممكن إنتاج روائع الأعمال، فذلك يكون من طريق جرأة تجريب العمل مرة أخرى، تحت خطر التعرّض للتخلّف في المواكبة بسبب كثير من الأعمال غير المكتملة. لقد تحلّى بييل بهذا النوع من الشجاعة. ففي عام 1825، كانت هناك مدرسة متطرّفة في الانتقاد ومحاجّة بالكامل تطرح هذا من حيث المبدأ: «سيضمّ قرننا روائع الأعمال، لكنّه لن ينتجها. هناك بعض الحقب للفنانين، وهناك غيرها لا تنتج سوى أهل فكر، فكر ثاقب إن شئتم». ردّ بييل على هذه النظرية اليائسة في رسالة تمّ إدراجها في مجلة لاغلوب في 31 مارس 1825: «لكي تكون فناناً بعد أنصار لا آرب، تلزمك شجاعة حديدية. وعليك - أيضاً- أن تقلّل من التفكير في الانتقادات التي يحلم بها ضابط شابّ من الخيّالة، يغير مع سريته، لا يفكّر بالمستشفى والإصابات. إنّ الافتقار المطلق إلى هذه الشجاعة هو ما يجمّد جميع شعرائنا المساكين في حالة متواضعة. يجب أن تكتب لإرضاء نفسك، تكتب مثلما أنا أكتب لك هذه الرسالة؛ لقد خطرت الفكرة على بالي، فتناولت قصاصة ورق. بسبب الافتقار إلى الشجاعة لم يعد لدينا فنانون. هل تنكر أن كانوفا وروسيني ليسا من الفنانين العظماء؟ لقد احتقر قليل من الناس النقّاد أكثر. فحوالي عام 1785، ربما لم يكن هناك هاو في روما لا يجد أعمال كانوفا سخيفة، وما إلى ذلك».

كلما خطرت فكرة على بال بييل، تناول إذاً قصاصة ورقية، وكتب، دون أن يهتمَّ لما سيُقال عنه، ودون أن يستجدي كلمات الإطراء أبداً: فهو رجل سامي الأخلاق في هذا الأمر. ورواياته هي ما تقدر عليه، لكنها ليست سوقية؛ هي مثل انتقاده، لا سيّما المعدّة لخدمة من يزاولونه؛ فهي تقدّم أفكاراً وتفتح الكثير من السبل. بين كل هذه المسارات المتقاطعة، ربما سيجد الإنسان الموهوب ضالته في هذا.

كثير من الكتاب في الآونة الأخيرة، وبعد السيد بلزاك، اهتموا بـ «بييل» وحياته وشخصيته وأعماله: مثل السيد آرنو فريمي، والسيد بولان ليمايراك، والسيد شارل مونسوليه، وتحدّثوا عنه، كلٌّ بدوره؛ هناك ما هو للتعلّم على حسابه في مناقشاتهم وفي تحليلاتهم الروحية؛ ولكن إذا سمحوا لي أن أقول ذلك، للحكم بصراحة على هذه العقلية المعقّدة إلى حدّ ما وعدم المبالغة بأيّ شيء بأي صورة من الصور، سأعود دائماً بالأحرى، وبغض النظر عن انطباعاتي الخاصة والذكريات، إلى ما سيقوله لي أولئك الذين عرفوه في سنوات عزّه وإلى أصوله، وإلى ما سيقوله السيد ميريميه، والسيد أمبير، وإلى ما كان سيخبرني به لو بقي على قيد الحياة، باختصار أولئك الذين رأوه واستساغوه كثيراً في شكله الأصلي.

- في البنية الجسدية، وبغض النظر عن أنه قصير، كان بوقت مبكّر يتمتّع بقامة قوية وممتلئة، وعنق قصير أحمر كالدم؛ وجهه الممتلئ يؤطره لحية وشعر بني اللون أجعد، مسرّح بتكلّف حتى آخر عمره تقريباً، وكان جبينه جميلاً، وأنفه قصيراً ومرتفع الطرف على نمط الكالموك بعض الشيء؛ وشفته السفلى متقدّمة قليلاً وتشي بالسخرية. عيناه صغيرتان جداً، لكنهما متيقظتان جداً، تحت قوس حاجبين بارزين، كان جميلاً جداً بابتسامته. وهو شابٌّ، ذاع صيتُه في الحفلات الراقصة في البلاط

بجمال ساقه، وهذا ما كان يُلاحظ وقتذاك. كانت يده صغيرة ورقيقة، ويفخر بها. أصبح متثاقلاً ومصاباً بالسكتة في سنواته الأخيرة، لكنه كان حريصاً بشدة على إخفاء علامات الانحطاط، حتى عن أصدقائه. مات فجأة في باريس، حيث كان في إجازة، في 23 مارس 1842، عن عمر يناهز التسعة وخمسين عاماً. وانطلاقا من مواصلته أدبياً وبأصالة ونوع من الابتكار سلالة آل شانفور الفرنسية، وآل روليير، وهؤلاء الرجال المفكّرين الذين يذكرهم بأكثر من سمة أو خبث، كان بييل في الأساس يتحلّى بالصدق والثقة في العلاقات الحميمة التي يجب ألا ننساها أبداً في الاعتراف بها عندما أخبرناه بحقائقه من جهة أخرى.

الفصل الأول: عن الحب

أنا أسعى إلى التحقّق من هذا الشغف الذي كل تطوّراته الصادقة لها طابع من الجمال.

هناك أربعة أنواع مختلفة من الحُبّ:

1. الحُبّ الشغوف: حُبّ الراهبة البرتغالية، حبّ هيلوْيس تجاه أبيلار، وحبّ الكابتن فيزيل، من شرطة سانتو.
2. حُبّ التذوّق: الحبّ الذي كان يسود في باريس حوالي 1760، الذي نجده في مذكّرات وروايات تلك الحقبة، في كريبيّون، ولوزان، وديكلوس، ومارمونتيل، وشانفور، ومدام إبينيا..

إنه لوحة؛ إذ لابدّ لكل شيء فيها أن يكون بلون وردي، حتّى الظلال، وحيث ينبغي ألا يدخل شيء فيها غير ممتع تحت أيّ ذريعة وتحت طائلة عدم استخدام الدرجة اللونية المناسبة والدقة.. وأيّ إنسان ولد في وسط ميسورٍ يعرف سلفاً كلّ السبل التي عليه أن يمتلكَها ويصادفَها في مختلف مراحل هذا الحبّ؛ فلا شيء فيه عاطفي وغير متوقّع، وغالباً ما يحمل من رهافة الذوق أكثر من الحُبّ الحقيقي، إذ فيه دائماً الكثير من الروح؛ إنها منمنمة باردة وجميلة تضاهي لوحة كارّاش؛ وبينما يستولي علينا الحبّ الشغوف انطلاقاً من كلّ اهتماماتنا، يعرف حبّ التذوّق دائماً كيف يمتثل لها. صحيح أننا إذا نزعنا البهرجة عن هذا الحبّ البائس، يبقى القليل منه جداً؛ فعند خلوّه من الزّهوّ يكون سقيمًا يتماثل للشفاء بصعوبة يقوى على جرّ قدميه.

3. الحبّ الجسدي:

عند الصيد، نجد حسناء قروية نضرة تهرب في الغابة. الجميع يعرف الحبّ القائم على هذا النوع من المتعة؛ مهما كان طابعه خشناً وتعِساً، نبدأ من هناك في السادسة عشر من العمر.

4. حبّ الزهوّ:

الغالبية العظمى من الرجال، ولا سيّما في فرنسا، لديهم امرأة على الموضة، مثلما يكون لدينا حصان جميل، كشيء ضروري لرفاهية شابّ. فالزهوّ المُقابَل بالإطراء إلى حدّ ما، وبالافتخار به إلى حدّ ما، يولّد بعض العَلاقات. في بعض الأحيان يكون هناك الحبّ الجسدي، وأيضاً ليس دائماً؛ وغالباً لا يوجد حتى المتعة الجسدية. كانت إحدى الدوقات التي لم تتجاوز قطّ الثلاثين من عمرها ابنة لرجل برجوازي، تقول دوقة شولنيس؛ وروّاد بلاط هذا الرجل العادل - لويس ملك هولندا- ما يزالون يتذكّرون بمرح امرأة جميلة من لاهاي لم يكن بوسعها أن تعقد العزم على إيجاد رجل ساحر الجمال يكون دوقاً أو أميراً. إنما، مخلصة للمبدأ الملكي، فما إن يصل أمير إلى البلاط، حتى يتم صرف الدوق: لقد كانت مثل زينة للسلك الدبلوماسي.

إنّ الحالة الأكثر فائدة في هذه العلاقة السطحية هي الحالة التي تزداد فيها المتعة الجسدية انطلاقا من العادة. فالذكريات تجعلها حينئذٍ تشبه الحبّ بعض الشيء؛ وهناك الافتخار بالغرور والحزن حينما يتم هجراننا؛ وأفكار الرواية تخنقكم، فنعتقد أننا عاشقون وحزينون؛ لأنّ الزهوّ يتوق إلى الاعتقاد بأنه شغف كبير. ما هو مؤكّد أنه إلى أيّ نوع من الحبّ نحن مدينون بالمتع، وبمجرد أن يكون هناك إشادة بالنفس، تكون هذه المتع حية وذكراها جذّابة؛ في الشغف، وفي مقابل معظم

الأشياء الأخرى، تبدو دائماً ذكرى ما فقدناه فوق ما يمكننا أن ننتظره من المستقبل.

أحياناً، في حبّ الزهُوّ، تولّد العادة أو اليأس من إيجاد الأفضل نوعاً من الصداقة، الأقلّ حباً إلى القلب من كل الأنواع؛ فهي تتباهى بالأمان، و...إلخ.[1]

إن المتعة الجسدية، الكائنة في الطبيعة، يعرفها الجميع، إنما ليس لها سوى منزلة متعلّقة بعيون النفوس الرقيقة والمغرَمة. وإذا ما كان لها بعض السخافات في الصالون، وإذا ما جعلتها الطبقات الراقية تعِسةً غالباً، بسبب دسائسها، بالمقابل فهي تعرف متعاً ليست أبداً في متناول القلوب التي لا تخفق إلا للزهُوّ والمال.

بعض النساء الفاضلات والرقيقات ليس لديهنّ فكرة عن المتع الجسدية؛ فنادراً ما تعرّضن لها، وإذا أمكن لنا أن نتحدّث هكذا، فحتى عَلاقات حبّ الشغف أنستهنّ تقريباً متعَ الجسد.

وثمّة رجال ضحايا وأدوات لعنجهية جهنمية، عنجهية ألفييري. هؤلاء الناس، فظيعون ربما، لأنهم، مثل نيرون، يضطربون دائماً، ويحكمون على جميع الرجال انطلاقا من قلبهم هم، هؤلاء الناس، أقول، لا يستطيعون بلوغ المتعة الجسدية إلا بقدر ما تكون مصحوبة بأكبر استمتاع ممكن بالعنجهية، أي بقدر ما يمارسون من فظاعات على صاحبة متعهم. من هنا مخاوف جيستين. فهؤلاء الرجال يفتقدون على الأقلّ الإحساس بالأمان.

1- حوار معروف لـ «بون دوفييل» مع مدام «دو ديفان»، عند الموقد.

على كلّ حال، بدل أن نميّز أربعة أنواع مختلفة من الحبّ، يمكننا بقوة كبيرة القبول بثمانية تباينات أو عشرة. وربما هناك أشكال من الإحساس بين الرجال بقدر الأشكال الظاهرة، لكن هذه الاختلافات في قائمة المصطلحات لا تغيّر شيئاً في الاستقراءات التي تتبع. فكلّ حالات الحبّ التي يمكننا رؤيتها في الحياة الدنيا تولد، وتعيش وتموت، أو ترقى إلى الخلود، تبعاً للقوانين نفسها.[1]

1 - لقد نمّت ترجمة هذا الكتاب عن مخطوطة إيطالية للسيّد ليزيوفيسكونتي، شابّ ذو اعتبار كبير، مات في فولتيرّ، وطنه. وفي يوم مماته غير المتوقّع، سمح للمترجم بنشر مقاله حول الحبّ، إن وجد طريقة في تحويله إلى شكل لائق. كاستيلفيورينتينو، 10 يونيو1819.

الفصل الثاني: عن ولادة الحب

أن نحبّ، يعني أن نستمتعَ بالنظر، واللمس والشعور بكلّ الحواسّ، وبقرب ما أمكن، ممّن نحبّه ويحبّنا

ها هو ما يَعتَلجُ في النفس:

1. الإعجاب.
2. نقول لأنفسنا: «يا لَلمتعة في أن نقبّلها، وتقبّلنا! و.. إلخ».
3. الأمل.

ندرس الشمائل؛ وفي هذه اللحظة لا بدّ لأيّ امرأة أن تستسلم، لأكبر متعة جسدية ممكنة. حتى لدى النساء الأكثر تحفّظاً، تحمرّ العينان لحظة الأمل؛ فالشغف قويّ للغاية، والمتعة متّقدة للغاية، لدرجة أنها تفضح نفسها انطلاقاً من بعض العلامات الساطعة.

4. ولادة الحبّ:

أن نحبّ، يعني أن نستمتعَ بالنظر، واللمس، والشعور بكلّ الحواسّ، وبقرب ما أمكن، ممّن نحبّه ويحبّنا.

5. بَدء التبلور الأول:[1]

يطيب لنا أن نزيّن بألف فضيلة أيّ امرأة نحن واثقون من حبّها؛ ونذكر لبعضنا بالتفصيل كل سعادة لنا بمجاملة لا محدودة. إن ذلك يتحوّل إلى المبالغة في أيّ ميزة رائعة، هبطت علينا من السماء لتوّها، ولا نعرفها، ونحن مطمئنون من امتلاكها.

1- كي تفهموا جيداً كلّ معنى هذه الكلمة، كما يقصدُ به بييل، انظروا إلى غصن سالزبورغ.

دع ذهنَ أيّ حبيب يشتغل أربعاً وعشرين ساعة، وإليك ما ستجد.

في مناجم الملح في سالزبورغ، يتم إلقاء غصن شجرة عرّاها الشتاء في أعماق المنجم المهجورة؛ وبعد شهرين أو ثلاثة، يُسحب وقد تغطّى ببلورات لامعة: فالأغصان الأكثر صغراً، التي حجمها لا يزيد عن رجل طائر القرقب، ترصّعت بطبقة رقيقة من الألماس المتحرّك والمبهر؛ ولم يعد يمكننا معرفة الغصن الأصلي.

ما أسمّيه التبلور هو عملية الروح، التي تستمدُّ من كلّ شيء يُقدَّم الاكتشاف أنّ الجسم المحبوب له امتيازات جديدة.

يتحدّث مسافر عن نضارة غابات البرتقال في جنوة على البحر أثناء أيام الصيف الحارة؛ يا لَها من متعة لتذوق هذه النضارة معه!

أحد أصدقائك يكسر ذراعه أثناء الصيد: فيا لَلرقة من تلقي الرعاية من امرأة نحبّها! وأن تكون دائماً معها وتراها بلا انقطاع وتحبّك قد يجعل الألم مباركاً تقريباً، فتتحدّث أنت عن ذراع صديقك المكسورة، كي لا ترتاب ثانية في طيبة صاحبتك الملائكية. باختصار، يكفي أن تفكر في ميزة لنراها فيما نحبّ.

هذه الظاهرة، التي أسمح لنفسي أن أسمّيها التبلور، تصدر عن الطبيعة التي تطالبنا بالاستمتاع والتي تدفع الدم إلى دماغنا، والإحساس الذي تزيده المتع مع شمائل المحبوبة، وفكرة: أنها لي أنا. فوحشي الطباع ليس لديه الوقت للذهاب أبعد من الخطوة الأولى. إنه يشعر بالمتعة، لكنّ نشاط دماغه يُستخدم في تتبّع الأيل الذي يهرب في الغابة، والذي بلحمه العاري يجب أن يعيد إليه قواه بأسرع ما يكون، تحت طائلة الوقوع تحت بلطة عدوه.

في الطرف الآخر من الحضارة، لا أشكّ أن أيّ امرأة رقيقة تصل إلى هذه النقطة، في عدم إيجاد المتعة الجسدية إلا بالقرب من الرجل الذي تحبّ[1]. وهذا على عكس وحشي الطباع. لكن، بين الأمم المتحضّرة، المرأةَ لديها وقتُ فراغ، ووحشي الطباع قريب من شؤونها، لدرجة أنه مرغم على معاملة أنثاه مثل دابة. فإذا شعرت إناث الكثير من الحيوانات بالسعادة الزائدة، فهذا يعني أن معيشة الفحول أكثر اطمئناناً.

ولكن لنترك الغابات كي نعود إلى باريس. أيّ رجل مغرم يرى الشمائل كافة في ما يحبّ؛ مع ذلك يمكن للانتباه أن يظلّ شارداً؛ لأن النفس تشبع من كل ما هو متماثل، حتى من السعادة الكاملة.[2] إليكم ما يحدث لتركيز الانتباه:

6. إثارة الشكّ:

بعد أن قدّمتُ بدايةً عشر نظرات أو اثنتي عشرة نظرة، أو سلسلة كاملة أخرى من الأفعال التي يمكن أن تدوم للحظة كما لعدة أيام، الآمال ومن ثم أكّدتها، يجب على الحبيب، العائد من اندهاشه الأول والمعتاد على سعادته، والمقاد من النظرية، المرتكزة دائماً على الحالات المألوفة أكثر، ألاّ يهتمَّ إلا بالنساء سهلات المنال، الحبيب، أقول، يطلب ضمانات أكثر إيجابية ويريد أن يوسّع سعادته.

يُقابل باللامبالاة، أو البرود أو حتى بالغضب، إذا ما أظهر ضمانة فوق الحدّ؛ ففي فرنسا، تباين السخرية التي تبدو أنها تقول: «أنت تعتقد أنك متقدّم أكثر ممّا أنت عليه». فأيّ امرأة تتصرّف هكذا، سواء

1- إذا لم تظهر هذه الصفة المميّزة لدى الرجل، فهذا لأنه لا يشعر بالحياء في التضحية بها لقاء متعة آنية.

2- هذا يعني أن التباين ذاته في الوجود لا يمنح سوى لحظة من السعادة الكاملة؛ لكن حالة أن يكون رجلاً شغوفاً تتغيّر عشر مرات في اليوم.

استفاقت من لحظة نشوة فترضخ للحشمة، أو ترتعش من كونها مخلّة، أو ببساطة بسبب حصافة أو غنج.

يصل الحبيب إلى الشكّ بالسعادة التي كان يعلّل نفسه بها؛ فيصبح فظّاً على أسباب الأمل التي اعتقد أنه رآها. ويريد أن ينكفئ إلى المتع الأخرى للحياة، فيجدها متلاشية. ويتملّكه الخوف من مصيبة مرعبة، ومعها الاهتمام العميق.

7. التبلور الثاني:

عندها يبدأ التبلور الثاني المولِّد بالنسبة للألماس بعض إثباتات هذه الفكرة:

إنها تحبّني. وفي كلّ ربع ساعة من الليل الذي يعقب ولادة شكوكه، وبعد لحظة من المصيبة المرعبة، يقول الحبيب لنفسه: أجل، إنها تحبّني؛ وينصرف التبلور إلى اكتشاف إغراءات جديدة؛ ثم يساوره الشكّ بنظرة شاردة، ويوقفه منتفضاً. ينسى صدره التنفّس؛ فيقول لنفسه: ولكن هل هي تحبّني؟ ووسط هذه الحالات المتناوبة بين التمزّق واللذة، يشعر الحبيب المسكين بحيوية: قد تمنحني بعض المتع التي هي وحدها في العالم يمكنها أن تمنحني إيّاها.

إنه جلاء هذه الحقيقة، وهذا الطريق على الحافّة القصوى من هاوية رهيبة، ونلمس باليد الأخرى السعادة الكاملة، تمنح من سمو التبلور الثاني أكثر من الأول.

يهيم الحبيب بلا توقّف بين هذه الأفكار:

1. إنها تتحلّى بالشمائل كافّة؛
2. هي تحبّني؛
3. كيف السبيل كي أحصل منها على أكبر دليل على حب ممكن؟

إن اللحظة الأكثر تمزيقاً للحبّ الذي ما يزال فتياً هي اللحظة التي يلاحظ فيه أنه استقرأ خطأً وأنه يجب هدم جانب كامل من التبلور. فندخل في حالة من الشكّ في التبلور بحدّ ذاته.

الفصل الثالث: عن الأمل

تكفي درجة صغيرة جداً من الأمل لتحدث ولادة الحبّ

ويمكن للأمل من ثم أن يفشل بعد يومين أو ثلاثة، ولم يكد الحب قد ولد منه. مع طبع حازم، وجريء، وطموح وخيال طورته مصائب الحياة. يمكن لدرجة الأمل أن تكون أصغر. يمكن أن ينتهي عاجلاً دون أن يقتل الحبّ.

إذا أصابت الحبيب بعضُ المصائب، وإذا كان يتحلّى بطبع رقيق ومشغول البال، وإذا أصابه اليأسُ من بعض النساء، وإذا شعر بإعجاب شديد تجاه من يحبّ، فما من متعة عادية يمكنها أن تلهيَه عن التبلور الثاني. وسيفضل أن يحلم بالفرصة غير المؤكّدة أكثر في إرضائه يوماً ما بأن يتلقّى من امرأة مبتذلة كل ما بوسعها أن تمنحه له.

قد يكون في هذه المرحلة، وليس فيما بعد، لاحظوا جيداً، بحاجة إلى أن تكون المرأة التي يحبّها قد قتلت الأمل شرّ قتلة، وجلبت عليه هذه الحالات من الازدراء العام التي لم تعد تتيح له مقابلة الناس. إن ولادة الحب تحتمل أطول المهل بكثير بين كل هذه المراحل. وهي تتطلّب الأمل أكثر بكثير، أمل أكثر استدامة بكثير، عند الناس باردي الطباع، واللامباليين، والحصيفين. ومنهم أيضاً بعض المسنين.

إن ما يضمن مدة الحب، هو التبلور الثاني، الذي نرى أثناءه في كلّ لحظة أن الأمر منوط بأن نكون محبوبين أو بأن نموت. فكيف، بعد هذا الاقتناع بكل الدقائق، الذي تحوّل إلى عادة بعدة أشهر من الحبّ، نستطيع فقط إدامة التفكير في إنهاء هذا الحبّ؟ فكلما زادت قوة الشخصية، قلّ عدم الثبات.

ويفشل التبلور الثاني هذا بالكامل تقريباً في حالات الحبّ المستوحاة من النساء اللواتي يستسلمن بسرعة كبيرة. وحالما يفعل التبلوران فعلهما، ولا سيّما الثاني، الذي هو أقوى بكثير، لا تعود الأعين اللامبالية تتعرف على غصن الشجرة. إذ:

1. إنه مزيّن بمزايا أو بالألماس التي لا تراها هذه الأعين.
2. إنه مزيّن بمزايا لا تصلح لهذه الأعين.

فميزة بعض الإغراءات التي حدثه عنها صديق قديم عن حسنائه، ولوحظت مسحة معينة من الحيوية في عينيه، هي ألماس التبلور لـ «ديل روسّو». وهذه الأفكار المُلاحَظة في سهرة جعلته يحلم طوال الليل.

أي حضور بديهة غير متوقّع يجعلني أرى بوضوح أكثر نفساً رقيقةً، وكريمة، ومتّقدة، أو كما يقول السوقي، ملتهبة العاطفة، وتبزُّ سعادة الملوك بالمتعة البسيطة في التنزه وحدها مع حبيبها منتصف الليل، في غابة نائية، تحثّني على الحلم طوال الليل. سيقول إن عشيقتي سيدة تتظاهر بالاحتشام؛ فسأقول إن عشيقته فتاة.

الفصل الرابع: مراحل الحب

في نفس لا مبالية بالكامل شابة تسكن في قصر منعزل في قلب الريف أصغر اندهاش من شأنه أن يؤدّيَ إلى إعجاب صغير، وإذا ما حدث أقلّ أمل، يولّد الحبّ والتبلور. في هذه الحالة، يثير الحب الإعجاب كشيء مسلّ.

إن الاندهاش والأمل تساعدهما بقوة الحاجة إلى الحبّ والكآبة اللتين تتملكانا في السادسة عشرة من العمر. ونعلم كثيراً أن القلق في هذه السنّ هو تعطّش إلى الحب، والتعطّش الأقوى هو في ألا نكون عصبيين بشكل مفرط على طبيعة المشروب الذي تقدّمه المضادفة. لنجمل المراحل السبع من الحبّ؛ وهي:

1. الإعجاب
2. المتعة
3. الأمل
4. ولادة الحبّ
5. التبلور الأول
6. ظهور الشكّ
7. التبلور الثاني

يمكن أن يمرّ عام بين المرحلة الأولى والثانية. وشهر بين الثانية والثالثة؛ وإذا لم يستعجل الأمل في القدوم، نرتد باللاشعور إلى المرحلة الثانية كابتلاء بالمصيبة. طرفة عين بين المرحلة الثالثة والرابعة. لا يوجد فاصل زمني بين المرحلة الرابعة والخامسة. ولا يمكن لهما أن تنفصلا إلا بالحميمية. ويمكن أن تمرّ عدة أيام، تبعاً لدرجة الهياج وعادات جرأة الطبع، بين الحالتين الخامسة والسادسة، ولا يوجد فاصل زمني بين الحالة السادسة والسابعة.

الفصل الخامس: عن الخجل

إن الإنسان ليس حراً في عدم فعل ما يسرُّه أكثر من كلّ الأفعال الممكنة

فالحبُّ مثل الحمى، يولد ويزول من دون أن يكون للإرادة أقلّ نصيب فيه. وهذه إحدى الاختلافات الرئيسة لحبّ التذوّق والحبّ الشغوف، ولا يمكننا التصفيق للمزايا الجميلة لما نحبّ إلا كمصادفة سعيدة.

وأخيراً، يكون الحبّ من كلّ الأعمار: لاحظوا شغف مدام دو ديفان بـ «أوراس فالبول» الجميل بعض الشيء. ولعلنا نتذكر أيضاً في باريس مثالاً حديث العهد أكثر ولا سيّما محبّب أكثر.

أنا لا أقبل كدليل على العواطف العظيمة إلا انطلاقاً من عواقبها التافهة: على سبيل المثال، الخجل، دليل على الحبّ؛ لا أتحدّث عن الخجل السيّئ عند الخروج من المدرسة.

الفصل السادس: غصن سالزبورغ

لا يتوقّف التبلور أبداً في الحبّ

وهذه هي قصته: طالما أننا غير مرتاحين مع من نحبّ، يوجد التبلور كحلّ خيالي؛ وليس إلا بالخيال تكون متأكداً من أن هكذا ميزة موجودة لدى المرأة التي تحبّها. فبعد الحميمية، تُهدّئ الحلول الأكثر واقعية المخاوف المتولدة بلا انقطاع. وهكذا، ليست السعادة متماثلة أبداً إلا في مصدرها. فلكل يوم زهرة مختلفة.

وإذا ما استسلمت المرأة المعشوقة للعاطفة التي تشعر بها ووقعت في خطأ جسيم بقتل الخوف انطلاقًا من حدة سوراتها العاطفية، يتوقّف التبلور لحظة؛ ولكن، حينما يفقد الحب حدّته، أي مخاوفه، يفتنه سحر الهجران برمّته، ويكتسب ثقة لا حدود لها، وتبدأ عادة لطيفة بتخفيف كل أعباء الحياة وبإعطاء المتع نوعاً آخر من الفائدة.

وإذا ما تمّ هجرك، يبدأ التبلور؛ فكلّ حالة إعجاب، ورؤية كل سعادة يمكنه تقديمها لك ولم تعد تفكر فيها، ينتهي بهذا التفكير الممزِّق: «هذه السعادة الساحرة، لن أراها ثانية أبداً! وبسبب خطئي أضعتها!» وأنك إذا ما بحثت عن السعادة في الأحاسيس من نوع آخر، فسيرفض قلبك الإحساس بها. فخيالك يرسم لك جيداً الوضع الجسدي، ويضعك بقوة على صهوة حصان مطاردة سريع، في غابات ديفونشير؛ لكنك ترى أنك تحسّ بوضوح أنك لن تنال أية متعة في هذا. هذا هو الخطأ البصري الذي يولّد صدمة الشخص غريب الأطوار.

اللعب له -أيضاً- تبلوره الناجم عن استعمال جمع المال الذي ستكسبه. وألعاب البلاط، المأسوف عليها للغاية من قبل النبلاء، تحت اسم الشرعية، لم تكن جذابةً كثيراً إلا من طريق التبلور الذي تحدثه. لم يكن ثمّة رجل من البلاط لا يحلم بثروة سريعة كواحد من لينز أو لوزان، أو من امرأة معشوقة تعيش بالأمل عيشة دوقة سيدة بولينياك.

ما من حكومة عاقلة تقدم هذا التبلور. لا شيء ضد الخيال كحكومة الولايات المتحدة الأمريكية. فقد رأينا أن جيرانها المتوحّشين لا يعرفون تقريباً التبلور. وقلّما كان لدى الرومان فكرة عنه ولم يجدوه إلا بالحبّ الجسدي. والحقد له تبلوره؛ فما إن نتوخَ الأمل بالانتقام، حتى نبدأ بالحقد.

وإذا ما نحّى دائماً كل اعتقاد فيه ما هو عبثي أو غير مثبت إلى وضع رأس حزب الناس الأكثر عبثية، فهذا أيضاً أحد آثار التبلور. فهناك تبلور حتى في الرياضيات (انظروا إلى نظريات نيوتن في عام 1740) في الرؤوس التي لا تستطيع في كل حين أن تحضرها كل أجزاء برهان ما تعتقده.

انظروا كدليل إلى مصير الفلاسفة الألمان العظام، الذين لم يستطع قط خلودهم -المطالب به مرات كثيرة- أن يذهب إلى أبعد من ثلاثين عاماً أو أربعين.

وهذا لأننا لا نستطيع الإدراك إلا بوساطة المشاعر لماذا الإنسان الأكثر حكمةً يكون متعصباً في الموسيقا. فنحن لا نستطيع عند الطلب أن نثبت أننا محقون في أمر مناقض كهذا.

الفصل السابع: بعض الاختلافات في ولادة الحُبّ بين الجنسَين

إنّك لا تتمتّع بموهبة أن تكون محبوباً.

تتعلّق النساء بالحظوات. ولمّا كانت التسعة عشر من عشرين من أحلام يقظتهن المعتادة تتعلّق بالحب، بعد العلاقة الحميمة، تتجمع أحلام اليقظة هذه حول هدف وحيد: فيأخذن بتبرير سلوك شاذّ للغاية، وحاسم لدرجة، ومناقض جداً لكل عادات الحياء. هذا الأمر غير موجود لدى الرجال؛ فمن ثم يفصّل خيال النساء في أوقات الفراغ لحظات ممتعة جداً.

ولمّا كان الحبّ يثير الشكّ في الأمور الأكثر برهاناً، كانت المرأة التي - قبل العلاقة الحميمة- واثقة كل الثقة أنّ حبيبها رجل يسمو على العامة، وحالما تعتقد أن عليها ألا ترفض له طلباً ثانية، ترتجف خوفاً من أن يكون لا يسعى إلا إلى وضع امرأة أخرى على القائمة. حينئذ يظهر التبلور الثاني فقط، الذي يكون الأقوى بكثير، لأنه يرافقه الخوف[1]

إنّ أيّ امرأة تظنّ نفسَها ملكة وقد صارت عبدة. فهذه الحالة النفسية للذهن تسهم فيها النشوة العصبية التي تولدها بعض الملذّات بقدر ما هي أكثر حساسية هي أكثر ندرة. ومن ثمَّ أي امرأة، أمام مهنتها كنت سأعتقد إذاً أن التبلور الثاني أقوى لدى النساء لأن الخوف أشد، والزهو، والشرف معرّضان للخطر، على الأقلّ تكون حالات التسلية أكثر صعوبة.

---

1 - هذا التبلور الثاني مفقودٌ لدى النساء سهلات المنال، اللواتي بعيدات كلّ البعد عن جميع هذه الأفكار الخيالية.

بالتطريز، أو عمل تافه ولا يُشغل سوى اليدين، تفكّر في حبيبها، بينما هو، وهو يعدو في السهل مع سرية خيالته، يتوقّف إذا قام بحركة خاطئة.

لا يمكن لأيّ امرأة أن توجّهها عادة أن تكون عقلانية، إلا أنا، الرجل، ألتزم في مكتبي، وأنا أعمل ست ساعات كلّ يوم، بأمور هادئة وعقلانية. حتى خارج الحبّ، لديهنّ ميلٌ للاستسلام إلى خيالهن وحماسة معتادة؛ فزوال عيوب الشخص المحبوب لا بدَّ أن يكون أسرع إذاً.

تفضّل النساء العواطف على العقل، وهذا بسيط تماماً: فمقتضى عاداتنا التافهة، هنّ غيرُ مكلّفات بأي قضية في العائلة، فلا ينفعهنّ العقل في شيء أبداً، ولا يشعرن بأنه جيد في أمر ما أبداً. وهو، على العكس، مؤذٍ لهنّ دائماً، إذ لا يظهر لهنّ إلّا ليأنّبهنّ على متعة حصلن عليها في الأمس، أو ليطالبهنّ بعدم الحصول عليها ثانية في الغد.

اطلب من زوجتك أن تنظّم لك شؤونك مع المزارعين في قطعتي أرض من أراضيك، أراهنك أنّ السجلّات ستكون ممسوكة بشكل أفضل منك، وحينها، أيّها الطاغية الكئيب، سيكون من حقّك على الأقل أن تتشكّى، إذ إنّك لا تتمتّع بموهبة أن تكون محبوباً. وحالما تشرع النساء في المنطقيات العامة، يمارسن الحب دون أن ينتبهن لذلك. في الأمور التفصيلية، يتباهيْن أنهن أكثر تشدّداً ودقة من الرجال. نصف الأعمال الصغيرة يعهد بها إلى النساء اللواتي يقمن بذلك أفضل من أزواجهن. من المعروف أنه إذا تحدثنا عن العمل معهنّ، فلا يمكننا أن نكون جادّين للغاية. وهذا لأنهنّ دائماً وفي كلّ مكان متلهّفات للعاطفة: انظر إلى متع الدفن في إسكتلندا.

الفصل الثامن: الحب أكثر شغفًا

كان هذا هو عالم الجنيات المفضّل لديها، وهنا أقامت قصورَها الخيالية.

شابة في الثامنة عشر من عمرها لا تملك ما يكفي من التبلور في إمكاناتها، تبدي بعض الرغبات التي وضعت لها حداً كبيراً قلة التجربة التي تمتلكها في أمور الحياة، لكي تكون محبوبة بمثل شغف امرأة في الثامنة والعشرين من عمرها. [عروس لامرمور، المجلد I، صفحة 70]

ذاك المساء كنتُ أعرض هذه العقيدة على امرأة فكر تدّعي العكس. «خيال أيّ شابّة لا تجمّده أيّ تجربة غير ممتعة، وتوقّد مرحلة الشباب الأولى موجودة بكل قوتها، ومن الممكن فيما يخصّ أيّ رجل كان أن تتصوّر صورة ساحرة. وكلما التقت بعشيقها، استمتعت بما هو عليه في الواقع، بل بهذه الصورة الرائعة التي ستتصورها.

«وفي وقت لاحق، وقد تخلّصت من خطئها بهذا العشيق وبكل الرجال، تقلّل تجربة الواقع المرير إمكانية التبلور عندها، ويقصّ الحذر أجنحة الخيال. وبخصوص أيّ رجل مهما كان - وكان فلتة- لن يكون بوسعها ثانية أن تكوّن لنفسها مثل هذه الصورة الجذّابة، ولن تستطيع ثانية إذاً أن تحبّ بذات التوقّد الذي كان في أول شبابها. وكما في حالة الحبّ لا نتمتّع إلا بالوهم الذي نتوهّمه، لن يكون أبداً للصورة التي سيكون بإمكانها أن تتصوّرها في الثامنة والعشرين من عمرها ذات البريق والسموّ للصورة التي أقامت عليها حبّها الأول في السادسة عشر من عمرها، فالحبّ الثاني سيبدو دائماً بنوع متدنٍّ. لا، يا سيدتي، وجود الحذر، الذي ليس موجوداً في سنّ السادسة عشر، هو طبعاً الذي لا بدّ له أن يعطيَ لوناً مختلفاً للحب الثاني هذا. ففي مرحلة الشباب الأولى،

يكون الحبّ كنهر عريض يجرف كلّ شيء في طريقه، ونشعر في خضمّه أننا لا نقوى على المقاومة. وعلى هذا، أيّ نفس رقيقة تعرف نفسها في سنّ الثامنة عشر؛ وتعلم أنه إذا كان بالنسبة لها ما يزال هناك سعادة في الحياة، فلابدّ أن نطلبها من الحبّ؛ ففي هذا القلب البائس المضطرب يقيم صراع رهيب بين الحبّ والحذر. فالتبلور يتقدّم ببطء؛ لكنّ التبلور الذي يخرج منتصراً بهذه التجربة الرهيبة، حيث النفس تنفذ كل لواعجها على مرأى متواصل من الخطر الأكثر رعباً، يكون أكثر بريقاً وأكثر صلابة بآلاف المرات من التبلور في السادسة عشر من العمر، حيث، بسبب ميزة السن، كان كل شيء مرحاً وسعيداً.

«إذاً لا بدّ للحبّ أن يكون أقلّ مرحاً وأكثر شغفاً»[1].

إن هذا الحديث (بولونيا، 9 مارس 1820) الذي كان يناقض نقطة كانت تبدو لي جد واضحة، يجعلني أفكر أكثر فأكثر أنّ أيّ رجل لا يستطيع أن يقول شيئاً مصيباً تقريباً حول ما يدور في قرارة قلب أيّ امرأة عاطفية؛ أمّا المغناج، فالأمر مختلف: فنحن لدينا - أيضاً- حواسّ وزهو. فالاختلاف بين ولادة الحبّ عند الجنسَين لابدّ وأنه ينجم عن طبيعة الأمل، الذي ليس هو نفسه. واحد يهاجم والآخر يدافع؛ واحد يطلب والآخر يرفض؛ واحد وقح والآخر شديد الحياء.

يقول الرجل في نفسه: «هل سأعجبُها؟ وهل ستحبُّني؟

والمرأة: «أليس على سبيل التسلية حين يقول لي إنه يحبّني؟ هل شخصيته قوية؟ هل يستطيع أن ينسجم مع نفسه بدوام عواطفه؟ هكذا تنظر الكثير من النساء وتعامله على أنه طفل شابّ في الثالث والعشرين من عمره؛ وإذا قام بستّ حملات، يتغيّر كل شيء بالنسبة له، فهو شابّ بطل.

1- كان أبيقور يقول إنّ البصيرة ضرورية عند التمتّع باللّذة.

فعند الرجل، يُناط الأمل ببساطة بالأفعال التي يحبّها؛ لا شيء أسهل عند التفسير. وعند النساء، لا بدّ للأمل أن يكون قائماً على الاعتبارات الخلقية العصيّة جداً على التقدير. فمعظم الرجال يلتمسون تجربة حبّ ينظرون إليها على أنها تبدّد كلّ الشكوك؛ والنساء لا يشعرن بما يكفي من السعادة ليستطعن إيجاد هكذا تجربة؛ فهناك هذه التعاسة في الحياة، وهي أنّ ما يجلب الأمان والسعادة لأحد الحبيبَين يشكّل الخطر وشبه الإذلال للآخر.

ففي حالة الحبّ، يعرّض الرجال أنفسهم لاضطراب النفس المكتوم، وتتعرّض النساء إلى ألسنة الناس؛ فيكنّ أكثر حياء، ومن جانب آخر يكون الرأي العام أهمّ بكثير عندهنّ، إذ كوني معتَبَرة، هذا ما يجب أن يكون[1].

ليس لديهنّ وسيلة أكيدة في قهر الرأي العام وهنّ يعرّضن حياتهنّ للحظة.

فلا بدّ للنساء إذاً أن يكنّ أكثر حذراً. بمقتضى عاداتهنّ، فكلّ الاضطرابات الفكرية التي تشكّل مراحل ولادة الحبّ هي عندهنّ أكثر رقّة، وأكثر حياء، وأكثر بطئًا، وأقلّ عزماً؛ فهناك - إذاً- استعداد للثبات أكثر؛ فلابدّ لهنّ أن يتنازلن بسهولة أقلّ عن أيّ تبلور تشكّل.

وأيّ امرأة، عند رؤيتها حبيبها، تفكّر بسرعة أو تستسلم لسعادة الحبّ، السعادة التي تُسحب منها بشكل غير سارّ إذا قام بأقلّ هجوم؛ إذ يجب التخلّي عن كلّ الملذّات للّجوء إلى الأسلحة.

---

1 - يستحضرنا هنا قول بومارشيه المأثور: «تقول الطبيعة للمرأة: كوني جميلة إنّ استطعتِ، وعاقلة إن شئتِ، ولكن كوني معتَبَرة، فهذا ما يجب أن يكون». ومن دون اعتبار في فرنسا ما من إعجاب ومن ثَمّ ما من حبّ.

فدور الحبيب بسيط أكثر، ينظر إلى عينَي مَن يحبّ: فيمكن لابتسامة واحدة أن تضعَه في غمرة السعادة، فيسعى بلا توقّف إلى الحصول عليها. يذلّ طول الحصار أيّ رجل؛ وفي المقابل فهو يصنع مجد أيّ امرأة.

إنّ أيّ امرأة قادرة على أن تحبّ، وبعد عام كامل، على ألاّ تقول إلا عشر كلمات أو اثنتي عشرة كلمة للرجل الذي تفضّله. وتحتفظ بملاحظة في صميم قلبها عن عدد المرات التي رأته فيها؛ فقد ذهبت مرتين معه إلى عرض فنّي، ومرتين وُجِدت على العشاء معه، وحيّاها ثلاث مرات في النزهة.

وذات مساء، وفي لعبة صغيرة، قبّل يدها؛ فنلاحظ من حينها لم تعد تسمح، تحت أيّ ذريعة وحتّى تحت خطر الظهور غريبة، أن يتمّ تقبيل يدها.

في الرجل يمكن للمرء أن يسمّي هذا السلوك بالحبّ الأنثوي، كما تقول لنا ليونور.

الفصل التاسع: الصراحة

أعتقد أنني دوّنتُ حقيقة.

أبذل كلّ الجهود الممكنة كي أكون صريحاً. أريد أن أفرض الصمت على قلبي، الذي يعتقد أنّ لديه الكثير ليقوله. أرتجف دائماً من أنني لم أكتب سوى آهة، حينما أعتقد أنني دوّنتُ حقيقة.

الفصل العاشر: تجربة التبلور

زمونا يحتقر أيّ نصر سهل للغاية.

أمّا تجربة التبلور، فسأكتفي باستحضار الحكاية الآتية.

شابّة تسمعهم يقولون إنّ إدوار، قريبها، الذي سيرجع من الجيش، شابّ من أكبر المتميّزين؛ ويؤكّدون لها أنها ستكون محبوبة على سمعتها؛ لكنّه سيريد على الأرجح أن يراها قبل أن يبديَ رأيَه ويطلبَها من أهلها. تلاحظ شابّاً غريباً في الكنيسة، وتسمعهم ينادونه إدوار، فلا تعود تفكّر إلا فيه، وتحبّه. وبعد ثمانية أيام، يصل إدوار الحقيقي؛ ليس هو إدوار الكنيسة، فيشحب لونها، وستكون تعِسة للأبد إذا ما أُجبرت على الزواج به. هذا ما يسمّيه فقيرو العقل إحدى حالات عدم صواب الحبّ.

رجل كريم يغمر شابّة تَعِسة بنعمه الأكثر لطافة؛ لا يمكن للمرء أن يحصل على أكثر من هذه الفضائل، فالحبُّ سوف يولد، لكنّه يضع قبّعة غير أنيقة، وتراه يمتطي صهوة جواد بطريقة غير لبقة؛ تعترف الشابّة وهي تتنهّد أنها لا تستطيع الاستجابة لمبادراته المتسرّعة التي يظهرها لها.

رجل يغازل سيدة مجتمع من الأكثر شرفاً، وتعلم أن هذا السيد حصل له بلاوى جسدية وسخيفة: فيصبح عندها لا يُحتمل. غير أنها لم تكن تقصد قطّ أن تسلم نفسها له، وهذه البلاوى السرية لا تؤذي عقله في شيء ولا لطافته. هذا بكل بساطة أن التبلور أصبح مستحيلاً.

حتى يستطيع أيّ إنسان أن يكرّس نفسه بمتعة لتأليه ما يحبّ، فليُؤخذ موقفه في غابة أردين أو في حفلة كولون، لا بدّ أولاً أن يبدوَ لها لا عيب فيه، ليس من كلّ النواحي الممكنة، إنما من كلّ النواحي التي تراها حالياً؛ فلن يبدو لها كاملاً من كلّ النواحي إلا بعد عدة أيام من التبلور الثاني. وهذا بسيط للغاية، يكفي حينها أن يكون هناك فكرة عن الكمال لكي نراه فيمن نحبّ.

نحن نرى في ماذا يكون الجمال ضرورياً لولادة الحب. يجب ألا تشكّل البشاعة عائقاً. العاشق يصل سريعاً إلى رؤية عشيقته جميلة كما هي، دون أن يفكّر في الجمال الحقيقي.

إنّ السمات التي تكوّن الجمال الحقيقي يمكن أن تعدّه إذا رآها، وإذا تجرّأ على إبداء رأيه هكذا، بكمية من السعادة سأعبّر عنه بالمقدار واحد، وسمات عشيقته، كما هي، تعده بآلاف المقادير من السعادة.

قبل ولادة الحبّ، يكون الجمال ضرورياً مثل لافتة، فهو يهيّئ لهذا الغرام انطلاقًا من بعض كلمات الإطراء التي ننوي تقديمها لمن سنحبه. إعجاب قوي جدّاً يجعل أصغر أمل باتّاً.

في حبّ الاستساغة، وربّما في الدقائق الخمس الأولى من الحبّ الشغوف، أيّ امرأة، وهي تتّخذ عشيقاً تأخذ بعين الاعتبار الطريقة التي تنظر بها النساء الأخريات إلى هذا الرجل، أكثر من الطريقة التي تنظر بها هي بالذات إليه.

من هنا تأتي نجاحات الأمراء والضباط. كانت النساء الجميلات في بلاط العجوز لويس الرابع عشر مغرمات بهذا الأمير.

يجب حقّاً تحاشي تقديم بعض التسهيلات للأمل قبل الوثوق من أنّ هناك إعجاباً. فقد نولّد التفاهة، التي تجعل الحبّ مستحيلاً للأبد، أو على الأقلّ تجعلنا لا نشفى منه إلا بالغرور.

إننا لا نتعاطف مع الساذج، ولا مع التبسّم لأيّ كان؛ من هنا، في العالم، ضرورة تلميع الدهاء؛ فهذا سمو الطرق. ونحن لا نقطف حتى الضحك حتى من على نبتة ذلولة جداً. ففي حالة الحبّ، زهونا يحتقر أيّ نصر سهل للغاية؛ وفي كلّ الأنواع، الإنسان لا يميل إلى تجاوز سعر ما يُقدّم له.

الفصل الحادي عشر: ما هو الجمال؟

لاكتشاف طبيعة الجمال، ينبغي البحث عن ماهية طبيعة متع كلّ فرد.

وما إن بدأ التبلور، حتى استمتعنا بلذة كلّ جمال جديد اكتشفناه عند مَن نحب. ولكن ما هو الجمال؟ إنه أهلية جديدة تمنحك المتعة. ومتع كلّ فرد مختلفة وغالباً متعارضة: وهذا يفسّر بوضوح كبير كيف لما هو جمال لفرد يكون بشاعة للآخر.

(مثال مقنع عن ديل روسّو وعن ليزيو، الأول من يناير1820).

لاكتشاف طبيعة الجمال، ينبغي البحث عن ماهية طبيعة متع كلّ فرد؛ على سبيل المثال، يلزم ديل روسّو امرأة تتحمّل بعض الحركات المحفوفة بالمخاطر، التي، بابتساماتها، تسمح بأشياء مفرحة جدّاً؛ امرأة، في كل لحظة، تضع الملذّات الجسدية نصبَ خيالها، وتثير في الوقت نفسه نوع لطافة ديل روسّو وتسمح له بنشرها.

يقصد ديل روسو بالحبّ على ما يظهر الحبّ الجسدي، وليزيو الحبّ الشغوف. لا شيء أكثر وضوحاً من أنه لا بدَّ وأنهما غير متّفقَين على كلمة جمال[1]. فالجمال الذي ستكتشفه يكون إذاً كفاءة جديدة يمنحك اللذة، والملذّات تختلف كالأفراد.

ولا بدَّ للتبلور المكوَّن في رأس كلّ إنسان أن يحمل لون ملذّات هذا الإنسان. فتبلور عشيقة أي رجل، أو جمالها، ما هو إلا مجموعة من كلّ حالات الرضى، ومن كلّ الرغبات التي استطاع أن يكوّنها تجاهها على التوالي.

---

1 - إن جمالي، الوعد بميزة مفيدة لنفسي، لا ترقى إليه جاذبية الحواسّ؛ هذه الجاذبية ما هي إلا نوع خاص. 1815.

الفصل الثاني عشر: نتمة التبلور

القلوب الرومانسية، كلما كانت روحها سامية، كانت المتع التي ستجدها في أحضانها رائعة ومتخلّصة من حمأة كل الاعتبارات المبتذلة.

لماذا نستمتع بلذّة كلّ جمال جديد نكتشفه عند من نحبّ؟

هذا لأنّ كل جمال جديد يمنحنا إشباعاً تامًا وكاملاً لأيّ رغبة. تريده عاطفياً، يكون عاطفياً؛ من ثم، تريد أن تفخر به على غرار إميلي عند كورنيّ، وعلى الرغم من أنّ هذه الصفات متعارضة على الأرجح، يبدو لحظتها بروح رومانية. هذا هو الباعث الأخلاقي الذي يكون الحبّ بسببه أقوى العواطف. ففي العواطف الأخرى، لابدّ للرغبات أن تتوافق مع الوقائع الباردة؛ وهنا الوقائع هي من تسارع إلى قولبة نفسها على الرغبات؛ وهذا -إذاً- واقعُ العواطف حيث الرغبات العنيفة تحصل على أكبر الملذّات.

هناك ظروف عامة للسعادة توسع إمبراطوريتها على كل حالات إشباع الرغبات الخاصة:

1. يبدو من خاصيّتك، إذ أنت وحدك من يستطيع جعله هنيئاً.
2. هو الحكَم على أهليّتك. هذا الظرف كان شديد الأهمية في بلاطات الغرام والفروسية لدى فرانسوا الأول وهنري الثاني، وبلاط الغرام لدى لويس الخامس عشر. وفي ظلّ حكومة دستورية ومحاجّة، تفقد النساء كلّ هذا الفرع من التأثير.
3. أمّا القلوب الرومانسية، فكلما كانت روحها سامية، كانت المتع التي ستجدها في أحضانها رائعة ومتخلّصة من حمأة كل الاعتبارات المبتذلة.

إنّ معظم الشباب الفرنسيين الذين أعمارهم ثمانية عشر عاماً هم تلاميذ جان جاك روسّو؛ فهذا الظرف من السعادة مهمّ عندهم.

وسط عمليات مخيّبة للغاية للرغبة في السعادة، يفقد الرأس صوابه.

ولمّا كان يحبّ، فالإنسان الأكثر حكمة لا يرى أي شيء كما هو. ويبالغ على الأقلّ في مزاياه الخاصة، وبالإضافة إلى ذلك في أقلّ فضائل الكائن المحبوب. وتستبعد المخاوف والآمال من فورها شيئاً من الرومانسية (عن وي وورد). ولم يعد يعزو شيئاً للمصادفة؛ فيفقد الشعور بالاحتمال؛ فأيّ شيء متخَيَّل هو شيء موجود بسبب تأثيره على سعادته[1].

علامة مرعبة على أنّ الرأس يفقد صوابه، وهي أنه بتفكيرك بأيّ حدث بسيط، عصيّ على الملاحظة، تراه أبيضَ، وتفسّره لصالح حبّك؛ وبعد لحظة تلاحظ أنه كان أسودَ في الواقع، وتجده - أيضاً- مقنعاً لصالح حبّك.

وهذا -إذاً- لأنّ أيّ نفسٍ فريسة لحالات عدم اليقين المميتة تشعر بشدة بالحاجة إلى صديق؛ ولكن بالنسبة لحبيب لم يعد صديقاً. كنا نعلم ذلك في البلاط. هذا هو مصدر النوع الوحيد لعدم الرزانة الذي يمكن لأيّ امرأة متعفّفة أن تغفره.

---

1 - ثمّة قضية جسدية، وبداية جنونٍ، وتدفّق الدم إلى الدماغ، وفوضى في الأعصاب وفي مركز الدماغ. انظر شجاعة الوعول العابرة ولون أزهار البنفسج الثالوث الندي. في عام 1922، فستقدم لنا الفسيولوجي وصف الجزء المادي لهذه الظاهرة. وأوصي السيد إدواردز أن يوليها اهتمامه.

الفصل الثالث عشر: عن أول خطوة، وعن عالم الكبار، والمصائب

وتعود عذوبة الحبّ وجنونه عندما تتلاشى هذه المصائب.

ما يُدهش أكثر في شغف الحب، هو الخطوة الأولى، فهي هوسُ التغيير الذي يعتمل في رأس أيّ رجل. وعالم الكبار، باحتفالاته البرّاقة، يخدم الحبّ كمشجّع على الخطوة الأولى هذه.

تبدأ بتغيير الإعجاب العادي (البند 1) إلى إعجاب عاطفي (البند 2): ويا لَلذة في منحه بعض القبلات، و.. إلخ!

أي رقصة فالس سريعة، في صالون مُضاء بآلاف الشموع، تُلقي في القلوب الشابّة نشوة تحجب الحياء، وتزيد وعي القدرات فتمنحها من ثَم جسارة الحبّ. إذ رؤية شيء محبّب جداً لا تكفي؛ في المقابل، فاللطافة المفرطة تثبّط الأنفس العاطفية، يجب ملاحظة ذلك، وإلا، فأنت تحبّ[1]، أن يكون على الأقلّ مجرّداً من عظمته.

من يصبو أن يصبح عاشقاً لملكة، إلا إذا لم تراوده عن نفسه؟

لا شيء - إذاً- مفضّل في ولادة الحبّ أكثر من اجتماع العزلة المضجرة وبعض الحفلات النادرة والمشتهاة من زمن طويل؛ هذا سلوك الأمهات الصالحات في الأسرة اللواتي لديهنّ فتيات.

عالم الكبار كالذي كنّا نجده في بلاط فرنسا، الذي - على ما أعتقد- لم يعد موجوداً منذ 1780، كان غير ملائم للحبّ، إذ إنه يجعل العزلة ووقت الفراغ الضروريّين في عمل التبلورات شبه مستحيلَين. فحياة

1- من هنا احتمال العواطف ذات الأصل المصطنع، تلك العواطف هذه، وعواطف بنيديكت، وبيانريكس (شكسبير).

البلاط تعوِّد على رؤية وإجراء عدد كبير من التباينات، وأصغر تباين من شأنه أن يكون بداية إعجاب وشغف.

وحينما تختلط التعاسات الخاصّة بتعاسات أخرى (من تعاسات الزهُوّ، إذا أهانت عشيقتك مجرد اعتزازك، ومشاعر الشرف لديك والكرامة الشخصية؛ ومن المصائب الصحية، والمالية، والاضطهاد السياسي، و.. إلخ)، لا يكون ازدياد الحبّ إلا في المظهر بوساطة هذه الأوقات غير المناسبة؛ إذ إنها تشغل الخيال بشيء آخر، فتمنع التبلورات، في الحبّ الواعد، وفي الحبّ السعيد، وولادة الشكوك الصغيرة. وتعود عذوبة الحبّ وجنونه عندما تتلاشى هذه المصائب.

لاحظ أنّ المصائبَ تشجّع على ولادة الحبّ عند الشخصيات الطائشة أو غير الحسّاسة، وأنه بعد ولادته، إذا كانت المصائب سالفة، تشجّع على الحبّ فيما يندفع الخيال، المثبَّط من ظروف الحياة الأخرى، التي لا تقدّم سوى صور حزينة، برمّته إلى إحداث التبلور.

الفصل الرابع عشر: حلم اليقظة في الحب

أستطيع إعادة قراءة رواية جيدة كلّ ثلاث سنوات بالمتعة ذاتها فتعطيني مشاعر منسجمة مع نوع الذوق الرفيع الذي يطغى عليّ لحظتها، أو تمنحني التنوّع في أفكاري، إن كنتُ لا أشعر بشيء.

هذا هو التأثير الذي سأُجادل فيه، ولا أقدّمه إلا للرجال، والتعساء جداً منهم، لأنهم أحبّوا بشغف لسنين طوال وبحبّ كدّرته العقبات.

إن رؤية كلّ ما هو جميل للغاية، في الطبيعة وفي الفنون، يذكّر بمن نحبّ، بسرعة البرق. وذلك لأنّ، وبسبب آلية غصن الشجرة المزين بالألماس في منجم سالزبورغ، كلّ ما هو جميل وسام في العالم يشكّل جزءاً من جمال من نحبّ، ورؤية السعادة هذه غير المتوقّعة تملأ من فورها العيون بالدموع. وذلك أن حبّ الجمال والحبّ يمنحان بعضهما الحياة بالتبادل.

إحدى تعاسات الحياة، هو أنّ هذه السعادة برؤية من نحبّ والتحدّث إليه لا يترك ذكريات مميّزة. فالنفس تكون بوضوح مضطربة بسبب عواطفها أكثر من أن تكون منتبهة لمن يؤجّج هذه العواطف أو لمن يرافقها. وتكوّن الإحساس بحدّ ذاته. ولعلّ هذا لأنّ هذه الملذّات لا يمكنها أن تزعج نفسها بذكريات عند الطلب، ولأنها تتجدّد بقوة كبيرة، حالما يحدث أمر ما وينتزعنا من حلم اليقظة المكرّس للمرأة التي نحبّها، ويذكرنا بها بقوة أكبر انطلاقًا من صلة جديدة ما.[1]

1- العطور

كان معماريّ عجوز يلتقيها كلّ مساء بين الناس. وقد ساقتني الفطرة، ودون أن أنتبه لما كنتُ أقوله لها، أثنيتُ عليه يوماً على هذا ثناءً رقيقاً وطنّاناً، فسخرتْ مني. لم أقوَ على القول لها: لأنه يراك كلّ مساء.

هذا الإحساس قويٌّ جداً بحيث يمتدّ إلى شخصية عدوّي الذي يجابهه باستمرار. وحينما أرى هذا الإحساس، يذكّر كثيراً بـ ليونور، لدرجة أنني لا أستطيع أن أكرهه في هذه اللحظة، مهما حاولت ذلك.

يبدو لنا أنه بسبب غرابة القلب العجيبة، تنقل المرأة الحبيبة من السحر أكثر ممّا تملكه هي بالذات. فصورة المدينة البعيدة حيث عشناها للحظة، تلقي بحلم يقظة أكثر عمقاً وأكثر حلاوة من وجودها بحدّ ذاته. وهذا تأثير حالات التشدّد.

إنّ حلم اليقظة في الحبّ لا يمكن أن يُلاحظ. وألاحظ أنني أستطيع إعادة قراءة رواية جيدة كلّ ثلاث سنوات بالمتعة ذاتها. فتعطيني مشاعر منسجمة مع نوع الذوق الرفيع الذي يطغى عليّ لحظتها، أو تمنحني التنوّع في أفكاري، إن كنتُ لا أشعر بشيء. أستطيع -أيضاً- الاستماع إلى الموسيقا ذاتها بمتعة ولكن لا ينبغي أن تسعى الذاكرة إلى المشاركة في الأمر. فالخيال فقط هو من عليه أن يكون متأثراً؛ وإذا كانت أيّ أوبرا تولد المتعة في العرض العشرين، فهذا لأننا نفهم الموسيقا فهماً أفضل، أو لأنها تذكّر بإحساس اليوم الأول.

أمّا الرؤى الجديدة التي توحي بها أي رواية إلى معرفة قلب الإنسان، فإني أتذكّر كثيراً جداً الرؤى القديمة؛ وأحبّ حتّى إيجادها مدوّنة على الهامش. لكنّ هذا النوع من المتعة ينطبق على الروايات، مثلما عرضت لي في معرفة الإنسان، وليس على حُلم اليقظة قطعاً، الذي هو المتعة الحقيقية للرواية. فحُلم اليقظة هذا لا يمكن ملاحظته. وملاحظته،

تعني قتله في الوقت الحالي، إذ نقع في التحليل الفلسفي للمتعة؛ وهذا قتله -أيضاً- أكثر في المستقبل بالتأكيد؛ لأنّ لا شيء يشلّ الخيال مثل استدعائه إلى الذاكرة. فإذا ما وجدت على الهامش ملاحظة تصوّر إحساسي وأنا أقرأ موت جماعي قديم في فلورنسا، منذ ثلاث سنوات، سرعان ما أستغرق في قصة حياتي، في تقدير درجة السعادة في المرحلتين، في أعلى درجات الفلسفة، باختصار، وفي وداع إهمال المشاعر العاطفية إلى أجل طويل.

إنّ كلَّ شاعر يتمتّع بخيال قويّ يكون متهيّباً، أي أنّه يخشى الرجال بسبب المقاطعات والاضطرابات التي يمكن أن يحدثوها لأحلام يقظته الحلوة. وبسبب انتباهه يرتجف. فالرجال، يأتون مع اهتماماتهم الوضيعة ويسحبونه من جِنان أرميد ليدفعوا به إلى حمأة كريهة، وقلّما يستطيعون أن يجعلوه منتبهاً لهم إلا بإغضابه. وانطلاقا من عادته في تغذية روحه بأحلام اليقظة المؤثِّرة، وبسبب رعبه من السوقي، يكون أيّ فنان عظيم قريباً جداً من الحبّ. فكلما كان أيّ إنسان فناناً عظيماً، تحتمّ عليه اشتهاء الألقاب والأوسمة على سبيل الدرع الواقي له.

الفصل الخامس عشر: لم نعد نحب

الخيال يجد في طريقه الذاكرة وآرائها الكئيبة.

نصادف، في قلب الشغف الأكثر عنفاً والأكثر معاكسة، لحظاتٍ نعتقد فيها فجأة أننا لم نعد نحبّ؛ وهذا مثل نبع ماءٍ عذب وسط البحر. ولم يعد لدينا تقريباً المتعة في التفكير بعشيقتنا، وبالرغم من إنهاكنا بالتشدّدات، نجد أنفسنا - أيضاً- أكثر تعاسة لكوننا لم نعد نهتمّ بشيء في الحياة. فالعدم الأكثر كآبة والأكثر تثبيطاً يتعاقب تعاقباً أن يكون، مضطرباً بلا شكّ، وإنما كان يعرض كلّ الطبيعة بمظهر جديد، ومشبوب العاطفة، وشائق.

وهذا لأنّ الزيارة الأخيرة التي قمتَ بها إلى من تحبّ وضعتك في وضع جنى حوله خيالك مرة أخرى كلّ ما يمكنه تقديمه من أحاسيس: على سبيل المثال، بعد مدة من البرود، يعاملك بسوء أقلّ، ويتركك تتصوّر بالضبط درجة الأمل ذاتها، وانطلاقاً من العلامات الخارجية ذاتها التي كانت في مرحلة أخرى؛ وكل ذلك ربما لا يشكّ فيه. فالخيال يجد في طريقه الذاكرة وآراءها الكئيبة، ويتوقّف التبلور فوراً[1].

1- نصحوني، في بادئ الأمر، أن أحذف هذه الكلمة، وإذا لم أستطع ذلك، بسبب نقص موهبتي الأدبية، أو أن أذكر غالباً أنّ ما أقصده بالتبلور هو أحد وجوه الخيال، الذي يجعل ما هو غير مفهوم في أغلب الأحيان عادياً جدّاً، وفي الحقيقة شخص على حدة. وفي الأنفس التي لا تعرف طريقاً آخرَ غير الزهوّ لتصل إلى السعادة، من الضروري للرجل الذي يسعى إلى إثارة هذه الحمّى أن يضع ربطة عنقه وضعاً أنيقاً جدّاً ويكونَ منتبهاً باستمرار إلى آلاف التفاصيل التي تقضّي كلّ إهمال. وتعترف نساء المجتمع بالتأثير حين ينكرن كلّ شيء أو حين لا يرينَّ السبب.

الفصل السادس عشر: الموسيقا

الموسيقا التامّة، مثل التمثيل الإيمائي التام، تجعلني أفكّر في الذي يشكّل حالياً مادة أحلام اليقظة لديّ وتجعل بعض الأفكار الجميلة تخطر على بالي.

في ميناء صغير، لا أعرف اسمه، بالقرب من بيربينيان، 25 فبراير 1822.

سرعان ما شعرتُ ذاك المساء أن الموسيقا، حينما تكون تامّة، تضع القلب في الموقف ذاته تماماً الذي يجد نفسه فيه حينما يستمتع بوجود من يحبّ، أي أنها على ما يظهر تمنحه السعادة الأقوى الموجودة على هذه الأرض.

ولو كان الأمر هكذا بالنسبة لكل البشر، لما كان شيء في العالم مستعداً للحبّ. ولكنّني سبق ولاحظت، في نابولي، العام الماضي، أن الموسيقا التامّة، مثل التمثيل الإيمائي التام، تجعلني أفكّر في الذي يشكّل حالياً مادة أحلام اليقظة لديّ وتجعل بعض الأفكار الجميلة تخطر على بالي، في نابولي، كان هذا وسيلة تسليح اليونانيين.

ومع ذلك، ذاك المساء، لم أستطع أن أخفي حقيقة أنني شعرتُ بتعاستي كوني معجباً كبيراً بالسيدة الفاضلة ل.

ولعلّ الموسيقا التامّة التي حصلتُ منها على السعادة باللقاء، بعد شهرين أو ثلاثة من الحرمان، على الرغم من الذهاب كلّ مساء إلى الأوبرا، هي لم تولّد ببساطة سوى تأثيرها المتعارف عليه قديماً، أقصد تأثيرها الذي يحثّ على التفكير بقوة بما يشغله.

4 مارس، بعد ثمانية أيام.

لا أجرؤ أن أمحوَ أو أثبت الملاحظة السابقة. فمن المؤكّد أنه، عندما كنتُ أكتبها، أقرأها في قلبي. وإذا وضعتها مثار شكّ اليوم، فهذا لأنني ربّما فقدت ذكرى ما كنتُ أراه حينذاك.

إن تعوّد الموسيقا وحلم اليقظة يخلق ميلاً إلى الحبّ. فأيّ لحن حنون وحزين، شريطة ألا يكون مأساوياً كثيراً، وألا يكون الخيال مجبراً على التفكير في الحدث، يثير حلم اليقظة بالحب، ويكون لطيفاً على الأنفس الرقيقة والتعسة: على سبيل المثال، المقطع البارع الممتد لآلة الكلارينيت، عند بدء مقطوعة موسيقية رباعية لبيانكا وفالييرو، والحكاية عن الكامبوريزي وسط القطعة الرباعية تقريباً.

فالحبيب المرتاح مع من يحبّ يستمتع بعلاقة الثنائي الشهير أرميدا ورينالدو لروسيني، الذي يصوّر بدقّة عالية شكوك الحبّ السعيد الصغيرة ولحظات اللذّة التي تتبع المصالحات. ومقطوعة الآلة التي تكون وسط الثنائي في اللحظة التي يريد رينالدو الهرب فيها، والتي تمثّل بطريقة مدهشة للغاية صراع الأهواء، فتبدو له أن لها تأثيراً مادياً على قلبه وتلامسه بالفعل. لا أجرؤ على قول ما أشعر به في هذا الشأن؛ فقد أُعدّ مجنوناً عند أهل الشمال.

الفصل السابع عشر: الجمال المخلوع عن العرش على يد الحب

بعد ثمانية أيام نحب البشاعة!

ألبيريك يلتقي في مقصورة امرأة أجمل من عشيقته (ألتمس السماح لي بتقييم رياضي)، أي التي سماتها تَعِد بثلاثة مقادير من السعادة، بدلاً من اثنين (أظنّ أنّ الجمال التامّ يمنح مقداراً من السعادة يُعبّر عنه بالعدد أربعة).

هل من المستغرب أن يفضِّل على هذه السمات سمات عشيقته، التي تعدّه بمئة مقدار من السعادة؟ حتّى العيوب الصغيرة في وجهها، علامة جدري، مثلاً، تُشعر الرجل الذي يحبّ بالشفقة، وتلقي به في حلم يقظة عميق حينما يلاحظها لدى امرأة أخرى؛ فماذا سيكون لدى عشيقته؟ هذا لأنه أحسّ بآلاف المشاعر في وجود علامة الجدري هذه، وأنّ هذه المشاعر في معظمها حلوة، وجميعها ذات اهتمام عالٍ، وأنها -مهما كانت- تتجدّد بحيوية عجيبة عند رؤية هذه العلامة، حتى التي لاحظها على وجه امرأة أخرى.

وإذا استطعنا هكذا أن نفضّل ونحبّ البشاعة، فهذا لأنه في هذه الحالة تكون البشاعة جمالاً[1].

1- ما الجمال سوى الوعد بالسعادة. فكانت سعادة أيّ يوناني تختلف عن سعادة أي فرنسي في عام 1822. انظروا إلى عيني فينوس ميديسي وقارنوهما بعيني مادلين بوردينون (عند السيد سوماريفا).

كان الرجل يحبّ بالشغف امرأة نحيفة جداً وعلى وجهها علامات جدري: فخطفها الموت منه. وبعد ثلاثة أعوام، في روما، وقد قَبل بألفة امرأتين، واحدة أجمل من الصباح، والأخرى نحيفة، وعلى وجهها علامات جدري، ومن هنا، إن شئت، بشعة كثيراً: أنا أراه يحبّ البشعة بعد ثمانية أيام ويعمل على محو بشاعتها بذكرياته؛ وانطلاقا من غنج مغفور حقاً، لا تتوانى الأقل جمالاً عن مساعدته وهي تثيره قليلاً، شيء مفيد في هذه العملية[1]. رجل يلتقي امرأة ويُصدم ببشاعتها؛ وبعد قليل، إن لم يكن لديها مطامع، فسيجعله شكلها ينسى عيوب ملامحها: فيجدها محبّبة إلى النفس ويتصوّر أنه يمكن أن تُحبّ؛ وبعد ثمانية أيام، تتولّد عنده آمال؛ وبعد ثمانية أيام، تُمحى عنها هذه العيوب؛ وبعد ثمانية أيام، يصبح مجنوناً بها.

1 - إذا وثقنا من حبّ امرأة، نعاين إذًا ما كانت أكثر أو أقلّ جمالاً؛ وإذ شككنا في قلبنا، لا يكون لدينا متّسع من الوقت للتفكير في وجهها.

الفصل الثامن عشر: المسرح والحب

الوجه وحده لأيّ ممثّل كوميدي يُثير الضحك حال دخوله في المشهد.

نلاحظ في المسرح شيئاً مماثلاً تجاه الممثّلين المحبوبين من الجمهور: فالمشاهدون لم يعودوا حسّاسين لما لديهم من جمال أو بشاعة فعلية. ولوُكان، رغم بشاعته الملحوظة، يحرّك العواطف بكثرة. وغاريك أيضاً، لبواعث عدة، ولكن بداية لأننا لم نعد نرى الجمال الحقيقي لملامحهما أو هيئاتهما، إنما حقيقة الجمال الذي اعتاد عليه الخيال منذ وقت طويل أن يضفيَه عليهما، بالامتنان لهما أو بتذكّر كلّ المسرّات التي قدماها؛ على سبيل المثال، الوجه وحده لأيّ ممثّل كوميدي يُثير الضحك حال دخوله في المشهد.

شابّة تُصطحب إلى عرض الفرنسي لوُكان أول مرة قد تشعر بنفور منه أثناء المشهد الأول؛ ولكن سرعان ما يبكيها أو يهزّ مشاعرها؛ فكيف ستصمد في أدوره في تانكريد أو أوروسمان؟ لو كانت البشاعة بنظرها ما تزال مرئية قليلاً، ففورات حماسة كل الجمهور، والتأثير الانفعالي التي تولّده على قلب شابّ[1] تستطيع بالفعل حجب هذه البشاعة. لم يعد يبقى من البشاعة سوى الاسم، ولا الاسم حتّى، إذ كنا نسمع بعض النساء المتحمّسات لـ لُوكان يصرخن: «كم هو جميل!»

1- هذا التجاوب العاطفي الانفعالي هو ما قد يستهويني في أن أعزوَ إليه التأثير المدهش وغير المفهوم للموسيقا الدارجة (في دريسد، لروسيني، 1821). وما أن تصبح ثانية غير دارجة، لا تصبح أكثر رداءة لهذا السبب، غير أنها لم تعد تؤثّر بأمانة على قلوب الشابّات، ربما كانت تسرّهن بقدر ما تثير من فورات حماسة الشبّان.

لنتذكّر أنّ الجمال هو التعبير عن الشخصية، أو بمعنى آخر، عن العادات الأخلاقية، التي يستثني منها من ثَم كلّ شغف. وعلى ذلك، يكون الشغف هو ما يلزمنا؛ فالجمال لا يمكن أن يقدّم لنا سوى بعض الاحتمالات حول رأي امرأة ما، وأيضاً بعض الاحتمالات حول من تكون باردة الدم؛ ونظرات عشيقتك ذات علامات الجدري تكون واقعاً ساحراً ينفي كلّ الاحتمالات الممكنة.

الفصل التاسع عشر:
تتمة استثناءات في الجمال

كان الانتباه يغمض عينيه عما هو بشع.

إنّ النساء النبيهات والمحبّات، إنما ذات حساسية متهيّبة وحَذِرة، واللواتي في اليوم اللاحق لليوم الذي ظهرن فيه في المجتمع، يستعرضن ألف مرة ويتهيّب مضنٍ ما أمكنهن قوله أو السماح بتخمينه؛ تلك النساء، أقول، يعتدن بسهولة على فقدان الجمال لدى الرجال، وليس هذا الأمر عقبة تقريباً في منحهنّ الحب.

وبالمبدأ نفسه نحن شبه لا مبالين بدرجة جمال أي عشيقة ترهقك بالتشدّدات. لم يعد يوجد تقريباً تبلور جمال؛ فعندما يقول لك الصديق المطبّب إنها ليست جميلة، لا توافق معه على هذا تقريباً، فهو يعتقد أنه قام بخطوة كبيرة.

كان صديقي، الكابتن تراب المقدام، يصوّر لي هذا المساء ما شعر به فيما مضى وهو يرى ميرابو.

لا أحد، عند النظر إلى هذا الرجل العظيم، كان يشعر بوساطة النظر بشعور غير محبّب، أي يجده بشعاً. وقد انجذبنا بهذه الكلمات الصاعقة، لم نكن منتبهين، ولا نجد متعة في أن نكون منتبهين إلا إلى ما هو جميل في وجهه. ولمّا لم يكن يوجد فيه تقريباً قسمات جميلة (جمال منحوت، أو جمال مرسوم)، فلم ننتبه إلا إلى ما كان جميلاً بجمال آخر، بجمال التعبير.

في الوقت نفسه حيث كان الانتباه يغمض عينيه عما هو بشع، المقصود جمالياً، كان يتعلّق بحماسة بأصغر التفاصيل العابرة، على

سبيل المثال، بجمال كثافة شعره؛ ولو كان يضع قرنين لوجدناهما جميلين.

وجود راقصة جميلة كل مساء يلفت الانتباه المُكرَه إلى الأنفس اللامبالية أو المحرومة من الخيال الذي يزين شرفة الأوبرا. وانطلاقًا من حركاتها الرشيقة، والجريئة والفريدة، توقظ الحبّ الجسدي فتؤمّن لها ربما التبلور الوحيد الذي ما يزال ممكناً. وهكذا الأمر بالنسبة لفتاة بشعة لا نمنّ عليها بنظرة في الشارع، سيما من قبل الناس المبتذلين، وإذا ظهرت على المسرح غالباً، تجد نفسها يُعتنى بها كثيراً. كان جيوفرؤي يقول إن المسرح هو ركيزة النساء. كلما كانت الراقصة مشهورة ومبتذلة، كانت ذات قيمة؛ ومن هنا جاء المثل الشعبي في الكواليس: «ما يمكن بيعه، لا يمكن منحه». فتغش هؤلاء الفتيات محبيهنّ بجزء من عواطفهنّ، ويكن شديدات الحساسية جداً تجاه الحبّ بالهمز.

كيف التصرّف لعدم ربط المشاعر العامة أو المحبّبة بوجه ممثلة قسماتها لا تحمل شيئاً منفّراً، نشاهدها كل مساء طيلة ساعتين تعبر عن المشاعر الأكثر نبلاً، ولا نعرفها غير ذلك؟ وحينما ننجح أخيراً في أن نكون مقبولين عندها، فتذكرنا ملامحها بمشاعر ممتعة للغاية، بمثل كل الواقع الذي يحيط بها، ومهما كان قليل النبل أحياناً، يتغطّى من فوره بصبغة رومنسية ومؤثرة.

«في مرحلة شبابي الأولى، وقد تحمستُ لهذه التراجيديا الفرنسية المضجرة، وعندما كنتُ سعيداً بالعشاء مع مادموازيل أوليفييه، وفي كل اللحظات، كان يفاجئني القلب المفعم بالاحترام، ظننتُ أنني أتحدّث إلى ملكة: وفي الواقع لم أعلم حقّاً، بالقرب منها، إذا ما كنتُ مغرماً بملكة أم بفتاة جميلة».

الفصل العشرون: الحب والحساسية

إنّ النساء الباهرات الجمال يُدهشن دهشة أقلّ في اليوم الثاني.

لعلّ الرجال الذين ليسوا شديدي الحساسية تجاه الحبّ الشغوف هم من يشعرون شعوراً أقوى بتأثير الجمال؛ وهذا على الأقلّ الانطباع الأقوى الذي يمكنهم تلقّيه من النساء.

إن الرجل الذي خفق قلبه لمنظر قبّعة من الساتان الأبيض الذي يحبّه، يستغرب من البرود الذي يتركه فيه الاقتراب من أعظم جمال في العالم. فبمراقبته لفورات حماسة الآخرين، قد يشعره بالحزن حتى.

إنّ النساء الباهرات الجمال يُدهشن دهشة أقلّ في اليوم الثاني. وهذه مصيبة كبيرة، فذلك يثبّط التبلور. ومزيتها الظاهرة لجميع الرجال والعبارة عن زخرف، لا بدّ وأنهنّ يعتبرنهم أكثر حمقى في قائمة عشاقهنّ، من الأمراء، وأصحاب الملايين.

الفصل الحادي والعشرون: عن النظرة الأولى

ليس من السهل نسيان النظرة الأولى.

النفس في الخيال تكون مرهفة وحذرة، أعني حتى النفس الساذجة. يمكن أن تكون حَذِرة دون أن تشكّ في هذا؛ فقد تعرّضت للكثير من الخيبات في الحياة! إذاً كل ما هو متوقّع ورسمي في حضور رجل ما يُنفِّر الخيال ويستبعد إمكانية التبلور. وينجح الحبّ، في المقابل، فيما هو خيالي في النظرة الأولى.

لا شيء أكثر بساطة من هذا؛ فالخيال الذي يدفع إلى التفكير طويلاً في أمر غير عادي يكون سلفاً نصف البادرة الفكرية اللازمة للتبلور.

سأذكر بداية حالات الحبّ لسيرافين (جيل بلا، المجلد II، صفحة 142). فهذا دون فرناندو الذي يحكي عن هربه حينما كان ملاحقاً من قبل مأجورين في محكمة التفتيش..» بعد أن اجتاز بعض الممرات في الظلام الحالك، والمطر منهمر بلا انقطاع مدراراً، وصلتُ إلى قرب صالون وجدتُ بابه مفتوحاً؛ دخلتُ إليه، ولمّا لاحظتُ كلّ أبهته.. رأيتُ أن هناك في أحد الجوانب باباً مواربا، فتحته قليلاً فرأيت صفاً من الغرف التي كانت الأخيرة فيه مضاءة فقط. ماذا عليّ أن أفعل؟ قلتُ حينها في نفسي.. لم أستطع مقاومة فضولي. تقدّمتُ، وتجاوزتُ الغرف، ووصلتُ إلى الغرفة التي فيها ضوء، أي شمعة تحترق فوق طاولة من الرخام، في شمعدان من العقيق. ولكن ألقيتُ سريعاً بنظري إلى سرير كانت ستائره نصف مفتوحة بسبب الحر، فرأيتُ شيئاً شغل كلّ اهتمامي: كانت امرأة شابّة تغطّ في نوم عميق، رغم قصف الرعد المُصمّ الآذان.. اقتربتُ منها.. فأخذتني الدهشة.. وبينما كنتُ نشوانَ بمتعة تأملها، استيقظتْ».

«تخيّلوا مفاجأتها الكبيرة من رؤيتها في غرفتها وفي عز الليل رجلاً لا تعرفه البتة. ارتعدَت لدى لمحها لي وأطلقت صرخة.. اضطررت إلى طمأنتها، وجثوت بركبة واحدة على الأرض: «سيدتي، قلتُ لها، لا تخافي».. نادت بناتها.. وقد أصبحت أكثر قسوة بعض الشيء بحضور خادمتها القصيرة، سألتني باعتزاز من أنا، و.. إلخ».

هذه هي النظرة الأولى التي ليس من السهل نسيانها. ما الذي يمكن أن يكون أكثر حماقة، في المقابل، في أخلاقنا الحالية، من عرض رسمي وشبه عاطفي لمستقبل الشابة! هذا البغاء الشرعي يذهب إلى حد خدش الحياء العام.

«لقد رأيتُ للتوّ، بعد هذا الظهر، 17فبراير1790(المدعو شانفور، 4، 155)، احتفالاً عائلياً، كما يُقال، أي أنّ الرجال المعروفين بنزاهتهم، مجتمع محترم، يصفقون لهناء الآنسة ماريل، شابة حسناء، نبيهة، وفاضلة، تتمتّع بحظوة أنها ستصبح زوجة السيد ر.، عجوز فاسد، بغيض، غير شريف، ومعتوه، لكنه ثري، رأته للمرة الثالثة اليوم عند توقيع العقد».

«إذا كان شيء يميّز قرناً سيّئ السمعة، فهو موضوع ظَفَر كهذا، إنه سخافة هكذا فرح، وفي المدى المنظور، القسوة في التظاهر بالاحتشام سيصب بها المجتمع ذاته الازدراء بملء يديه على أقلّ رعونة لامرأة شابة مغرمة مسكينة».

كلّ ما هو احتفال، بطبيعته كونه شيئاً متصنّعاً ومتوقّعاً سلفاً، الأمر منوط فيه بالتصرّف بشكل لائق، يشلّ الخيال ولا يتركه يستيقظ إلا لما هو سخيف ومناقض لهدف الاحتفال؛ من هنا التأثير السحري لأصغر مزاح. شابة مسكينة، في غاية الحياء والحشمة المضنية أثناء العرض

الرسمي لزوج الغد، لا يسعها التفكير إلا في الدور الذي تقوم به؛ وهذه - أيضاً- طريقة أكيدة في خنق الخيال.

إنه مخالف للحشمة كثيراً الاستلقاء على الفراش مع رجل لم تره سوى مرتين، بعد ثلاث كلمات باللاتينية قيلت في الكنيسة، أكثر من الاستسلام رغماً عنها لرجل تعشقه منذ عامين. لكنني أتحدّث بلغة منافية للعقل.

هذه هي القضية.. التي هي مصدر للرذائل والتعاسة التي تعقب زيجاتنا الحالية. وتجعل حرية الشابات مستحيلة قبل الزواج، وتسبّب الطلاق بعد أن يكنّ قد خُدعن، أو بالأحرى خدعناهنّ في الخيار الذي جعلناهنّ يتخذنه. انظروا إلى ألمانيا، هذا البلد ذو التفاهمات؛ أميرة محبّبة إلى القلب (مدام دوقة سا..) تزوّجت لتوّها هناك بكل تكريم للمرة الرابعة، ولم تتوانَ عن دعوة أزواجها السابقين الثلاثة إلى العرس، الذين كانت مرتاحة معهم كثيراً. هذا هو الفائض؛ ولكنّ طلاقًا واحدًا، يعاقب الزوج على تصرّفاته المستبدة، ويمنع الآلاف من حالات عدم التفاهم. ما هو مضحك، أن روما هي إحدى البلدان التي نرى فيها أكثر حالات الطلاق.

إن الحب يعشق من النظرة الأولى. السيماء التي تدلّ في آن واحد في الإنسان على شيء يستحقّ الاحترام والشفقة.

الفصل الثاني والعشرون: عن الشغف

نكتشف أن المعشوق لا يبادلنا الشعور؛ فيفشل الشغف.

إن الأنفس المرهفة للغاية حسّاسة تجاه الفضول والتحيّز؛ وهذا يُلاحظ ملاحظة خاصّة في النفوس التي انطفأت فيها جذوة الحماسة الملتهبة، مصدر العواطف، وهذا أحد الأعراض الأكثر هلاكاً. هناك -أيضاً- الشغف عند طلاب المدارس الذين يدخلون في المجتمع. في طرفي الحياة، مع إفراط أو إفراط قليل في الحساسية، لا نعرّض أنفسنا ببساطة إلى الشعور بتأثير الأشياء الصحيح، واختبار الإحساس الحقيقي الذي يجب أن تمنحه. هذه النفوس الجيّاشة جداً أو الجيّاشة بإفراط، المغرمة بالتقسيط، إن جاز لنا القول هكذا، تندفع إلى الأهداف بدلاً من أن تنتظرها. وقبل أن يصل إليها الإحساس، الذي هو نتيجة طبيعة الأهداف، تحميها من بعيد، وقبل أن تراها، بهذا السحر الخيالي الذي تجد في نفسها بالذات منبعه الذي لا ينضب. ثم، وعند اقترابها منها، ترى هذه الأشياء لا كما هي عليه، بل كما صنعتها هي، وتستمتع بها بالذات على شكل هدف، تعتقد أنها تستمتع بهذا الهدف. ولكن، يوماً ما، سنتعب من دفع جميع التكاليف، ونكتشف أن المعشوق لا يبادلنا الشعور؛ فيفشل الشغف، والفشل الذي يشعر به الغرور يظلم الشخص المقدَّر أكبر تقدير.

الفصل الثالث والعشرون: عن حالات الحب الصاعقة

لمّا كان الحبّ الصاعق يأتي من سأم سري لما يسمّيه التعليم المسيحي بالفضيلة.

كان لا بدّ من تغيير هذه الكلمة السخيفة غير أنّ الأمر موجود. لقد رأيتُ المحبّبة إلى النفس والنبيلة فيلهيلمينا، المسبّبة اليأس لوسيمي برلين، تحتقر الحبّ وتسخر من حالاته الجنونية. متألّقة الشباب، والروح، والجمال، والسعادة من جميع النواحي.. ثروة لا تأكلها النيران، أتاحت لها فرصة تطوير كل خصالها، فتبدو أنها تآمرت مع الطبيعة كي تقدّم للعالم المثال النادر جداً عن سعادة تامّة منحتها إلى شخص يستحقّها بجدارة. كانت في الثالثة والعشرين من عمرها؛ وهي في البلاط منذ زمن طويل، وقد رفضت التكريم من أعلى المستويات؛ فمَزِيّتها المتواضعة، لكنها غير المتزعزعة، كانت مضرب مثل، حتى الرجال الأكثر لطفاً، وقد يأسوا من نيل إعجابها، لا يطمحون إلا إلى صداقتها. وذات مساء، ذهبت إلى حفلة راقصة عند الأمير فرديناند، رقصت عشر دقائق مع كابتن شابّ.

«من تلك اللحظة، كتبت على الأثر إلى إحدى صديقاتها، كان سيد قلبي ونفسي، وذلك إلى حد ملأني بالرعب، لو كانت السعادة برؤية هيرمان أتاحت لي الوقت للتفكير في بقية الحضور. كان تفكيري الوحيد منصباً على مراقبة ما إذا كان يعيرني أي انتباه.

واليوم، العزاء الوحيد الذي أستطيع إيجاده لعيوبي هو التعلّل بالأوهام أن قوة عليا خطفتني من نفسي ومن عقلي. لا أستطيع بأيّ كلام أن أصوّر، بطريقة تقارب الواقع، إلى أيّ حدّ، ولمجرد رؤيته،

تدبّ الفوضى والبلبلة في كل كياني. أحمر خجلاً من التفكير في السرعة والجموح اللذين انجذبت بهما نحوه. لو كان هذا بسبب كلامه الأول، حينما كلمني أخيراً: «هل تعشقينني؟» في الحقيقة لما وجدت القوة أن أجيبه: «أجل». كنت أستبعد التفكير بأن من شأن تأثيرات شعور ما أن تكون في آن واحد مفاجئة وغير متوقّعة إلى هذه الدرجة. كان الأمر غريباً إلى حدّ الاعتقاد أنني متسمّمة.

لحسن الحظّ أنتم الناس، يا صديقتي العزيزة، هل تعلمون أنني أحببت هيرمان كثيراً: حسناً، كان غالياً على قلبي بعد ربع ساعة، وأنه من حينها لم يستطع أن يكون أكثر من هذا. كنتُ أرى كل عيوبه، وأغفرها له جميعها، شريطة أن يحبّني.

وبعد أن رقصتُ معه بقليل، انصرف الملك؛ وهيرمان، الذي كان من مفرزة الخدمة، أُجبر على اللحاق به. ومعه، تلاشى كل شيء في الطبيعة بالنسبة لي. من غير المجدي لو حاولت أن أصوّر لكم الكمَّ الهائل من الضجر الذي شعرت به يرهقني من لحظة عدم رؤيته ثانية. لم يكن يضاهيه سوى الرغبة الجامحة التي تملكتني في أن أختلي بنفسي.

استطعت المغادرة أخيراً. وما كدت أوصد باب شقّتي بإحكام عليّ، حتى أردت أن أقاوم شغفي. واعتقدت أنني أنجح في هذا. آه! يا صديقتي العزيزة، كم دفعتُ غالياً ذاك المساء، والأيام التي أعقبت، ثمن متعة إمكانية تصديقي للفضيلة!»

ما قرأناه لتوّنا هو سرد دقيق لحدث كان خبر اليوم لأنه بعد شهر أو شهرين أصبحت المسكينة فيلهيلمينا تعسةً بما يكفي لنحسّ بشعورها.

هكذا كان أصل هذه السلسلة الطويلة من التعاسات التي قضت على فتاة في ريعان الشباب وبطريقة مأساوية لدرجة أنها سمّمت نفسها.

كل ما استطعنا رؤيته في هذا الكابتن الشابّ هو أنه كان يرقص بمهارة كبيرة، وأنه يتمتّع بالمرح كثيراً ومطمئن أكثر أيضاً، تبدو عليه الطيبة الكبيرة، ويعيش مع فتيات؛ مع ذلك بالكاد هو رجل نبيل وفقير جداً ولا يرتاد البلاط.

لا يتوجب علينا أن نكون حَذِرين فقط بل يجب أن نُبالغ في حذرنا أمام احتمال قلّة الشجاعة في مواجهة مصادفات الحياة. فالنفس بلا معرفة والنفس الضجرة من العيش دون حب والمقتنعة رغماً عنها بمثالية النساء الأخريات، والتي تغلّبت على جميع مخاوف الحياة. تلك الروح المستاءة من سعادة التكبّر الحزينة صنعت لنفسها نموذجاً لتحظى بمكانة المثل الأعلى دون أن تلحظ ذلك. وستصادف يوماً ما كائناً يشبه هذا النموذج وستتعرف على نمط التبلور من خلال هدفها في الاضطراب الذي تستشفه، فتكرّس نفسها للأبد لسيد مصيرها. وهذا ما كانت تحلم به منذ زمن طويل.

إن النساء العرضة لهذه التعاسة تكون نفسيتهنّ متغطرسة أكثر من أن يحببن بطريقة أخرى إلا من طريق الشغف. ولكنّ نَجَون لو استطعن التواضع أمام المغازلة.

لمّا كان الحبّ الصاعق يأتي من سأم سري لما يسمّيه التعليم المسيحي بالفضيلة، والضجر الذي تسبّبه عقدة الكمال، أعتقد كثيراً أنه لا بدّ من أن نقع في أغلب الأحيان على ما يُدعى بالعالم السيّئ. وأشكّ كثيراً أن تحدث هيئة كاتون الحبّ الصاعق يوماً.

وما يجعل هذه الحالات نادرة هو لأنه إذا ما حمل القلب الذي يحبّ بهذا الشكل سلفاً أصغر إحساس بوضعه، لم يعد هناك من حبّ صاعق.

المرأة التي صارت حذرة بسبب التعاسات لا تتحسّس من هذه الثورة للنفس.

فلا شيء يُسهّل حالات الحب الصاعق مثل كلمات الإطراء المقدَّمة سلفاً ومن قبل نساء للشخص الذي لا بد أن يكون هدفاً لها.

من أكثر المصادر المضحكة في مغامرات الحب هي حالات الحب الصاعق المزيفة. فالمرأة الضجرة إنما غير الحسّاسة تخال نفسها مغرمة مدى الحياة أثناء سهرة كاملة. وبذلك فهي تكون فخورة كونها وجدت أخيراً واحداً ممن تلهج بهم نفسها كثيراً الذين كان خيالها يلاحقهم. وفي اليوم اللاحق لا تعود تعرف أين ستختبئ، وعلى وجه الخصوص كيف ستتفادى العشيق المصيبة الذي كانت تعشقه ليلة أمس.

أهل الفكر يعرفون التبصّر، أي الاستفادة من حالات الحبّ هذه.

الحبّ الجسدي له -أيضاً- حالاته من الحبّ الصاعق. فقد رأينا البارحة المرأة الأجمل والأسهل منالاً في برلين تحمرّ فجأة في عربة خيلها حيث كنّا معها. وكان الملازم الوسيم فاندورف مارّاً لتوّه. فوقعت في حُلم يقظة عميق، وفي القلق. وفي المساء حسب ما اعترفت لي بأنها أصيبت بحالات مجنونة وفورات، ولا تفكّر إلا في فاندورف، الذي لم تتكلّم إليه قطّ. لو تجرّأتْ، كانت تقول لي، لأرسلت في طلبه: كان هذا الوجه الجميل يعرض كلّ علامات الشغف الأكثر جموحاً. واستمرّ ذلك إلى اليوم اللاحق؛ وبعد ثلاثة أيام، وقد تظاهر فاندورف بالغباء، لم تعد تفكّر في الأمر. وبعد شهر أصبح عندها ممقوتاً.

لقد تغيرتُ، وأحتاج إلى تناول كأس الماء.

أنصح معظم الناس المولودين في الشمال بتخطّي هذا الفصل. إنه مقال غامض حول بعض الظواهر المتعلّقة بشجرة البرتقال، وهي شجرة تنمو أو تصل إلى ارتفاعها الكامل فقط في إيطاليا وإسبانيا. لكي أكون واضحاً في مكان آخر كان يجب أن أقلّل من الحقائق.

هذا ما لم أكن لأفتقده لو كان لديّ خطة فورية واحدة لكتابة كتاب ممتع عامةً. ولكن بعد أن رفضت السماء موهبتي الأدبية، فكرت فقط في الوصف بكل تجهّم العلم ولكن - أيضاً- بكلّ دقّته. بعض الحقائق التي مكثت مدّة طويلة في وطن شجرة البرتقال جعلني شاهداً مرغماً. فريدريك الكبير أو رجل مميّز آخر من الشمال، لم تتح له الفرصة لرؤية شجرة البرتقال في أرض مشاع، ما كان لينفيَ لي بلا شكّ الحقائق الآتية ونفى بحُسن نيّة. أكن احتراماً كبيراً لحُسن النية، وأعرف سبب ذلك.

قد يحمل هذا التصريح الصادق بعض الغطرسة، فأضيف التبصّر الآتي:

كلٌّ منا يكتب بالمصادفة ما يبدو له صحيحاً، وكلٌّ يتنصل من رؤيته. أرى في كتبنا مثل أوراق اليانصيب؛ ليس لها قيمة أكبر في الحقيقة. والأجيال وهي تغفل بعضها عن بعض وتعيد طباعة الأخرى ستعلن الأوراق الرابحة. حتى هنا كلٌّ منا وقد كتب بأفضل ما يمكن ما بدا له صحيحاً، وهو غيرُ محقّ كثيراً في السخرية من جاره، إلا إذا كان الهجاء ممتعاً للذي في حالته، يكون دائماً محقاً ولا سيّما إذا كتب على غرار السيد كورييه إلى ديل فوريا.

بعد هذه الديباجة، سوف أدخل بشجاعة إلى معاينة الحقائق التي لم تُلاحظ في باريس، وأنا على قناعة من هذا. ولكن من ثمّ في باريس المدينة العظمى لدى الآخرين جميعاً بلا شكّ لا نرى أشجار برتقال في أرض مشاع كما في سورّينتو. وفي سورّينتو وطن تاس على خليج نابولي في موضع في وسط المنحدر من البحر، الجدير بالتصوير أكثر من بحر نابولي بالذات، ولكن الذي لا نقرأ فيه المرآة، الذي لاحظه ليزيوفيسكونتي ودوّن الحقائق الآتية:

عندما يتحتمّ علينا مساء مقابلة المرأة التي نحبّها، انتظار السعادة الكبيرة جداً يجعل كلّ اللحظات التي تفصلنا عن ذلك لا تُطاق.

إن الاضطراب المستعر يأسر المرء بعشرين انشغالاً ويغادر. فينظر إلى ساعته كل لحظة وينشرح حينما يرى أنه استطاع تمرير عشر دقائق دون النظر إليها؛ الموعد المُشتهى كثيراً يحين أخيراً وعندما يكون أمام بابها متهيّئاً لطرْقه، قد يكون مسروراً من عدم إيجادها؛ وليس إلا بالتبصّر سيأسف على هذا؛ باختصار لقد ولّد انتظار لقائها أثراً غير ممتع.

هذه هي الأشياء التي تجعل الناس السذّج يقولون إنّ الحبّ يخالف الصواب. وهذا لأنّ الخيال، المُنتَزع بعنف من أحلام اليقظة الحلوة التي كلّ خطوة فيها تولِّد السعادة، تمّت إعادته إلى الواقع القاسي.

فالنفس الرقيقة تعلم جيداً أنه، في المعركة التي ستنشب بمجرد أن تراها أنت، بأقلّ إهمال، وأقلّ عدم انتباه أو شجاعة، سيُعاقب بهزيمة مسمّمة لأحلام اليقظة في الخيال وقتاً طويلاً، وخارج مصلحة الشغف إذا كنّا نسعى إلى اللجوء إليه، المذلّ للغرور. نقول في أنفسنا: «لقد فقدتُ رشدي، وفقدتُ شجاعتي»؛ لكننا لا نمتلك الشجاعة تجاه من نحبّ إلا بحبّنا له بصورة أقلّ.

هذه البقية من الاهتمام التي ننتزعها بصعوبة شديدة من أحلام يقظة التبلور تعني أنه، في الخطابات الأولى للمرأة التي نحبّها، يتمّ تجاهل الكثير من الأشياء التي لا معنى لها، أو التي لها معنى مناقض لما نشعر به، أو ما هو أكثر تأثيراً، ونبالغ في مشاعرنا وتصبح سخيفة في نظرنا. لمّا كنّا نشعر شعوراً غامضاً بأننا لا نولي اهتماماً كافياً لما نقول، فإنّ الحركة الآلية تعمل على الاعتناء بالتشدّق وشحنه. ومع ذلك، لا يمكننا أن نبقى صامتين بسبب الضيق من الصمت، الذي أثناءه بإمكاننا -أيضاً- التفكير فيها. فنقول -إذاً- عن هيئة تنمّ عن الكثير من الأشياء إننا لا نشعر بها، وإننا سنشعر بالحرج من تكرارها؛ فنكابر في امتناعنا في حضورها عن أن نكون من أجلها أكثر أيضاً. في اللحظات الأولى التي عرفت فيها الحبّ كانت هذه الغرابة التي شعرت بها بداخلي تجعلني أعتقد أنّني لا أحبّ.

أنا أفهم الجبن وكيف يخرج المجنّدون من الخوف نتيجة لإلقاء أنفسهم في قلب النار. عدد الهراء الذي قلته في العامين الماضيين حتى لا أصمت يصيبني باليأس عندما أفكّر في الأمر.

يجب أن يشير هذا بوضوح في نظر النساء إلى الفرق بين الحبّ الشغوف والمغازلة، وبين النفس الرقيقة والنفس العادية. في هذه اللحظات الحاسمة، تكسب الواحدة بقدر ما تخسر الأخرى؛ فالنفس العادية تتلقّى على وجه التحديد درجة الدفء التي تفتقر إليها عادةً، في حين أنّ النفس المسكينة الرقيقة تصبح مجنونة من الإفراط في الشعور، وأكثر من ذلك تتظاهر بإخفاء جنونها. وقد انشغلت في إدارة فورات حماسها الخاصة بها، تكون بعيدة عن رباطة الجأش اللازمة لها للاستفادة منها، وتخرج مشوّشة من زيارة حيث كانت النفس العادية

قد خطت فيها خطوة كبيرة. وبمجرد أن تعلق الأمر بالمصالح شديدة الشغف لشغفها لا يمكن للنفس الرقيقة والفخورة أن تكون فصيحة بقرب من تحبّ؛ فعدم النجاح يؤلمها كثيراً. النفس المبتذلة في المقابل تحسب فقط فرص النجاح ولا تتوقّف عن الشعور بآلام الهزيمة، وهي فخورة بما جعلها مبتذلة تسخر من النفس الرقيقة التي بكلّ روح ممكنة لا تتمتع أبداً بالطلاقة اللازمة لقول أبسط الأشياء والنجاح الأكثر تأكيداً. الروح الرقيقة، البعيدة كل البعد عن أن تكون قادرة على انتزاع أي شيء بالقوة، لا بد لها أن تذعن لعدم الحصول على شيء سوى على إحسان ما تحب. إذا كانت المرأة التي نحبّها حسّاسة كثيراً فثمّة سببٌ لأن نندمَ على رغبتنا في ممارسة العنف للتحدّث معها عن الحبّ. نحن نشعر بالخجل ونبدو مجمّدين وسنبدو كاذبين إذا لم تفضح العاطفة نفسها بعلامات معيّنة أخرى. إن التعبير عمّا يشعر به المرء بشكل واضح ومفصّل في كلّ لحظة من الحياة هو عملٌ روتيني يفرضه المرء؛ فهو يقرأ الروايات لأنه لو كان طبيعياً لما قام بمثل هذا الشيء المؤلم. بدلاً من الرغبة في الحديث عمّا شعرنا به قبل ربع ساعة، ومحاولة تكوين صورة عامة ومثيرة للاهتمام، فإننا نعبر ببساطة عن تفاصيل ما نشعر به في هذه اللحظة؛ ولكن لا، نحن نتظاهر بعنف شديد لتحقيق النجاح الأقل بكثير، ولمّا كان وضوح الإحساس الحالي يفتقر إلى ما نقوله، وأن الذاكرة ليست حرّة، فسنجدها مناسبة في الوقت الحالي فنقول أشياء أكثر سخرية وأكثر إهانة.

وأخيراً، بعد ساعة من الاضطراب، ينتهي هذا الجهد المؤلم للغاية إلى الانسحاب من جنان الخيال الساحرة، للاستمتاع ببساطة بوجود ما نحبّ، يحدث غالباً أن نضطر إلى التخلّي عنه.

كل هذا يبدو نوعاً من المغالاة. لقد رأيتُ أفضل من هذا أيضاً، الأمر يتعلّق بأحد أصدقائي الذي أحب امرأة لدرجة أنه يعبدها عبادة الأصنام، وتزعم أنها أُهينت ولا أعرف أي ذنب قد اقترفه لتعاقبه فجأة بعدم رؤيته سوى مرتين في الشهر. كانت هذه الزيارات النادرة جداً والمرغوبة، نوبة من الجنون، وكانت تتطلّب كل قوة شخصية سالفياتي حتى لا تظهر في الخارج.

منذ البداية، كانت فكرة نهاية الزيارة حاضرة بالنسبة لنا أكثر من أن نجد المتعة. نتحدث كثيرا دون الاستماع لبعضنا البعض. غالباً ما نقول مقابل ما نفكّر فيه. نبدأ في التفكير في أننا مضطرون إلى التوقّف، بسبب سخفهم، إذا وصلنا إلى الاستيقاظ والاستماع إلى أنفسنا. والجهد الذي نبذله عنيف جداً، لدرجة أننا نبدو باردين. فالحبّ يتوارى بالمغالاة به.

بعيدًا عنها، كان يهدهد للخيال الحوارات الأكثر سحراً؛ فيجد فورات الحماسة الأكثر عطاءً والأكثر ملامسةً. ونظن بهذا مدة عشرة أيام أو اثني عشر يوماً أننا نتجرّأ بما يكفي للتحدّث معها؛ ولكن، قبل ليلة أمس من كان يجب أن يكون سعيداً، تبدأ به الحمى وتتضاعف كلما اقتربنا من اللحظة المروعة.

لحظة الدخول إلى صالونها، وكي لا نقول أو نفعل بعض الحماقات الغريبة، نكون مرغمين على التمسك بالعزم على التزام الصمت، والنظر إليها حتى نستطيع على الأقل تذكر وجهها. ويحدث بصعوبة ما يشبه النشوة في العينين أثناء حضورها. فنشعر بأننا مهووسون بالقيام بأعمال غريبة، وينتابنا شعور بأن لدينا نفسَين: واحدة للقيام بالفعل، والأخرى لإلقاء اللوم على ما نقوم به. ونشعر شعوراً مشوّشاً أن الانتباه القسري للحماقة من شأنه أن ينعش الدم للحظة، ويفقد البصر عن نهاية الزيارة ومصيبة هجرانها مدة خمسة عشر يوماً.

إذا كان هناك شخص مُمل يروي قصة سطحية، في جنونه الذي لا يمكن تفسيره، يصبح العشيق المسكين، كما لو كان متشوِّقاً لأن يضيّع لحظات نادرةً جداً، هو كل الاهتمام فيها. هذه الساعة، التي منّى نفسه بأن تكون ممتعة للغاية، تمرّ كسهم حارق، ومع ذلك فهو يشعر، وبمرارة لا يمكن التعبير عنها، بجميع الظرُوف الصغيرة التي تُظهر له كم أصبح غريباً عمن يحبّ. فيجد نفسه وسط زائرين غير مبالين، ويرى نفسه هو الوحيد الذي يجهل كلّ التفاصيل الصغيرة عن حياته في هذه الأيام الماضية. وأخيراً يخرج؛ وهو يودّعها ببرود، ينتابه شعور مخيف بأنه لن يراها مرة أخرى إلا بعد خمسة عشر يوماً؛ ما من شكّ أنّه سيعاني أقلّ في عدم رؤية من يحبّ أبداً. إنه في هذا الوضع، ولكنه أكثر سوداوية بكثير، من دوق بوليكاستر، الذي كان يقطع كل ستّة أشهر مئة مكان كي يرى لربع ساعة، في ليتشي، عشيقة يعبدها ويحرسها بسبب الغَيرة.

نرى بوضوح هنا الإرادة دون تأثير على الحبّ: فقد سخط ضد عشيقته وضد نفسه، كما يندفع المرء إلى اللامبالاة بحنق! الخير الوحيد لهذه الزيارة هو تجديد كنز التبلور.

كانت الحياة عند سالفياتي منقسمة إلى فترات من خمسة عشر يوماً، اتخذت لون المساء الذي سُمح له برؤية مدام X فيه؛ على سبيل المثال، كان سعيداً في 21مايو، وفي 2 يونيو لم يعد إلى المنزل خوفاً من الاستسلام لإغراء حرق دماغه.

رأيت ذلك المساء أن الروائيين صوّروا لحظة الانتحار بشكل سيّئ للغاية. قال لي سالفياتي، بهيئة ساذجة: «لقد تغيرتُ، وأحتاج إلى تناول كأس الماء هذا». لم أقاوم قراره، ودّعته؛ وبدأ بالبكاء.

وفقًا للارتباك المصاحب لخطابات العشاق، لن يكون من الحكمة استخلاص عواقب عاجلة للغاية من تفاصيل معزولة للمحادثة. إنهم يتّهمون مشاعرهم فقط بكلمات غير متوقّعة؛ عندها صرخة القلب. إلى جانب ذلك، من سيماء مجمل الأشياء المذكورة يمكننا أن نستخلص بعض الاستقراءات. يجب أن نتذكّر أنه في كثير من الأحيان ليس لدى الشخص المتأثر للغاية الوقت ليلحظ انفعال الشخص الذي يسبّب له انفعاله.

الفصل الخامس والعشرون: التعريف بالشخص

أراهُنّ يرفعن الأبله إلى السماء، ويستسلمن للتأثر حتى البكاء لأمر تافه.

أنا معجب جداً بالبراعة، وبسلامة الحكم التي أرى بهما النساء يدركن تفاصيل معيّنة؛ وبعد لحظة، أراهُنّ يرفعن الأبله إلى السماء، ويستسلمن للتأثر حتى البكاء لأمر تافه، يزنّ بشكل دقيق كسمة في طبعهنّ التصنّع التافه. لا أستطيع أن أتصوّر الكثير من البلاهة. لا بدّ وأن يكون هناك قانون عام أجهله.

يقظات لجدارة أي رجلٍ، وبدافع من التفاصيل، يشعرن به بشدة ولم يعدن ينظرن للبقية. يتم استخدام جميع السوائل العصبية للاستمتاع بهذه المزية، ولا يعود يتبقّى شيء ليرين الآخرين.

لقد رأيت أبرز الرجال الذين تمّ تقديمهم إلى النساء بكثير من السجايا؛ لطالما كانت ذرة من سبق الميل هي التي تقرر تأثير النظرة الأولى.

لو سُمح لي بتفاصيل مألوفة، سأقصّ أن العقيد اللطيف إل بي ... سيتقدّم إلى مدام ستروف دي كونيغسبرغ؛ وهي امرأة من الدرجة الأولى. نسأل أنفسنا: فارا كولبو؟ (هل سيكون له تأثير؟). لقد تورّط في رهان. أقتربُ من مدام دي ستروف، وأخبرها أنّ العقيد يضع ربطات عنقه يومين على التوالي؛ في اليوم الثاني يقوم بغسل ربطة العنق جاسكون. سيكون بإمكانها أن تلاحظ طيات عمودية على ربطة عنقه. لا شيء أكثر تزييفاً بشكل واضح.

عندما انتهيت، أعلنا عن هذا الرجل الساحر. أصغر مغرور في باريس ولّد المزيد من التأثير. لاحظوا أنتم أن مدام دي ستروف كانت تحبّ. إنها امرأة شريفة، ولا يمكن أن يكون هناك أي مغازلة بينهما.

لم يتم قطّ خلق شخصين مناسبين بعضهما لبعض أكثر منهما. تم إلقاء اللوم على مدام ستروف لكونها رومانسية، ولم يكن هناك سوى الفضيلة، التي دفعتها إلى الرومانسية، والتي يمكن أن تلمس L.B.. لقد رمته صغيراً جداً.

لقد وُهبت النساء الإحساس بشكل مثير للإعجاب، والفروق الدقيقة في المودة، وأكثر الاختلافات غير المحسوسة في جسم الإنسان، وأخفّ فورات الغرور.

لديهنّ في هذا الصدد جهاز نفتقده. شاهدهنّ وهنّ يعالجن جريحاً. ولكن ربما لا يرين - أيضاً- ما يعنيه الفكر، وتركيبة الأخلاق. لقد رأيت أكثر النساء تميّزاً يُسحرن برجل فكر لم يكن أنا، وفي جميع الأوقات، وبالكلمة ذاتها تقريبًا، معجبات بأكبر الحمقى. وجدت نفسي عالقاً مثل خبير يراهن يعتبرن أجمل الماس أحجاراً كريمة زائفة، ويفضلن الأحجار الكريمة الزائفة إذا كانت أكبر حجماً.

خلصتُ إلى أنه يجب أن تجرؤَ على كل شيء مع النساء. حيث فشل الجنرال لاسال، نجح قبطان ذو شارب كمجدافين. هناك بالتأكيد في جدارة الرجال جانب كامل يفوتهن.

أمّا أنا، فأعود دائماً إلى القوانين الفيزيائية. فالسيالة العصبية، عند الرجال، تتآكل بسبب المخ، وفي النساء بسبب القلب؛ لهذا هنّ أكثر حساسية. فأيّ عمل اضطراري عظيم وفي المهنة التي قمنا بها طوال الحياة، يخفّف عنا، وبالنسبة لهنّ لا شيء يمكن أن يخفّف عنهنّ إلا التسلية.

أبياني، الذي لم يؤمن بالفضيلة إلا عند الرمق الأخير، والذي كنت أذهب معه ذاك المساء لاصطياد بعض الأفكار، انطلاقًا من عرض أفكار هذا الفصل عليه، فيجيبني: «قوة النفس التي استخدمتها إيبونين بتفان بطولي لجعل زوجها يعيش في الكهف تحت الأرض، ولمنعه من الوقوع في اليأس، إذا كانا قد عاشا بهدوء في روما، فقد استعملت ذلك لتخفي عنه عشيقها؛ فالغذاء ضروري للأنفس القوية».

الفصل السادس والعشرون: عن الحياء

الحياء يعين الحبّ على الخيال، فهو يمنحه الحياة.

أي امرأة من مدغشقر تُظهر بلا اكتراث ما نخفيه أكثر هنا، لكنها تفضّل الموت حياء على أن تُظهر ذراعها. من الواضح أنّ ثلاثة أرباع الحياء هي أمر تم تعلمه. ربما يكون القانون وحده، ابنة الحضارة، هو الذي لا يجلب سوى السعادة.

وقد لوحظ أن الطيور الجارحة تختبئ لتشرب، وهذا لأنها اضطرت إلى غطس رأسها في الماء، فهي عزلاء في هذه اللحظة. بعد النظر فيما يحدث في أوتايتي، لا أرى أي أساس طبيعي آخر للحياء.

الحبّ هو معجزة الحضارة. فنحن لا نجد سوى حبّ جسدي ومن أكثر الحالات فظاظة عند الشعوب المتوحّشة أو البربرية للغاية. والحياء يُعين الحبّ على الخيال، فهو يمنحه الحياة.

يتمّ تعليم الحياء في وقتٍ مبكّر للفتيات الصغيرات من قبل أمهاتهنّ، وبغيرة متطرّفة، يخيّل لنا وكأنه من روح الجسد؛ وهذا لأنّ النساء يهتممنَ مقدّماً بسعادة الحبيب الذي سيحصلن عليه.

أمّا المرأة الخجولة والرقيقة، فلا شيء يمكن أن يضاهي العذاب كونها سمحت لنفسها بحضور رجل بأمر تعتقد أنها يجب أن تحمرّ خجلاً منه؛ أنا مقتنع بأن أيّ امرأة معتزة بنفسها قليلاً كانت ستفضّل ألف ميتة. إن أيّ حرية طفيفة، تأخذها من الجانب الرقيق من قبل الرجل الذي تحبّه، تمنح لحظة من المتعة القوية؛ وإذا كان يبدو أنه يلومها أو لا يستمتع بها بحماسة، لا بدّ أن تترك شكاً مخيفاً في نفسها. أمّا المرأة المتعالية على ما هو مبتذل، فهناك - إذاً- كل شيء لتكسبه من امتلاكها

للحالات المحتشمة للغاية. اللعبة ليست متعادلة؛ فنحن نخاطر بمتعة صغيرة، أو ضد ميزة الظهور بمظهر محبوب أكثر، وخطر الندم المرير والشعور بالخجل الذي لا بدّ أن يجعل حتى العشيق أقل معزّة. أمسية يتم قضاؤها بمرح، وفي الطيش ودون التفكير في أيّ شيء يتم دفع ثمنها غالياً مقابل هذا. ولا بدّ أن يصبح مشهد الحبيب الذي يخشى المرء أن يكون لديه هذا النوع من الأخطاء بغيضاً عدة أيام. هل يمكن أن نفاجأ بقوة عادة تعاقب عليها أبسط المخالفات بالعار الأكثر فظاعة؟

أمّا فائدة الحياء فهو أم الحبّ؛ لم يعد بإمكاننا معارضته في شيء. لا شيء بهذه البساطة بالنسبة لآلية الشعور؛ فالنفس مشغولة بالخجل بدلا من الانشغال بالرغبة. فنحن نمنع أنفسنا عن الرغبات، لأنّها تؤدّي إلى الأفعال.

من الواضح أن أيّ امرأة رقيقة ومعتزّة بنفسها -وهذان الشيئان اللذان يسبّبان ويؤثّران يصعبان دون بعضهما بعضا- يجب أن يندمجا مع عادات اللامبالاة التي يسميها الناس -من يخالفونها- تصنّع الوقار والاحتشام.

الاتهام أكثر خبثاً؛ لأنه من الصعب جداً الحفاظ على وسط صحيح؛ على المرأة أن تصدق قريباً أنه من حيث الحياء لا يمكننا فعل الكثير ما دام لديها القليل من الفكر والكثير من الاعتزاز. وهكذا تحسب أي امرأة إنكليزية نفسها مهانة إذا نطق أحدهم أمامها اسم ملابس معيّنة. كانت المرأة الإنكليزية تتوخّى الحذر الشديد، في المساء في البلد حتى لا تُرى وهي تغادر المنتدى مع زوجها؛ وأخطر من ذلك، تعتقد أنها ستخدش الحياء إذا أظهرت بعض المرح أمام أي شخص آخر غير هذا الزوج. ربما بسبب هذا الاهتمام الدقيق الذي يجعل الإنكليز،

أصحاب الفكر يرون الكثير من الملل من سعادتهم المنزلية. وذنبهم، لماذا يفتخرون بأنفسهم بهذا القدر؟[1]

بالمقابل، انتقلتُ فجأة من بليموث إلى كاديز وإشبيلية فاكتشفت أنّ حرارة المناخ والعواطف في إسبانيا كانت تُنسي كثيراً بعض الشيء من الحشمة اللازمة. لقد لاحظت المداعبات الرقيقة جداً المسموح بها في الأماكن العامّة التي بغض النظر عن أنها تبدو لي مؤثّرة أوحت لي بإحساس مناقض تماماً لم يعد أيّ شيء شاقاً.

يجب أن نتوقّع أن نجد قوة لا تحصى لعادات موحى بها للنساء بذريعة الحياء. وأيّ امرأة مبتذلة بتعديها على الحياء تعتقد نفسها أنها مساوية للمرأة المتميّزة.

إنّ إمبراطورية الحياء هي مثل المرأة الرقيقة تصل إلى خيانة نفسها تجاه عشيقها بالأفعال لا بالأقوال.

أخبرتني أجمل وأغنى وأسهل امرأة في بولونيا للتوّ أنه في الليلة الماضية، قرّر رجل فرنسي أبله موجود هنا ويعطي فكرة مضحكة عن أمته أن يختبئ تحت سريرها. كان يريد - على ما يظهر - ألا يضيّع عدداً لا حصر له من التصريحات السخيفة التي كان يلاحقها بها منذ شهر. لكن هذا الرجل العظيم افتقر إلى حضور البديهة. انتظر أن تصرف مدام م ... خادمتها وتذهب إلى الفراش لكنه لم يكن لديه الصبر لإعطاء الناس الوقت للنوم. اندفعت إلى الجرس وعملت على طرده بشكل مخجل وسط صيحات الاستهزاء والضربات من قبل خمسة خدم أو ستة. «ماذا لو انتظر ساعتين؟» قلت لها. - «كنت سأكون غير سعيدة حقاً: من كان يمكن أن يشك، قالت لي، إنني هنا بأوامرك».

---

1 - الكتاب المقدّس والطبقة الأرستقراطية ينتقمون انتقاماً فظيعاً من الناس الذين يعتقدون أن واجبهم هو كلّ شيء.

عند خروجي من عند هذه المرأة الجميلة، ذهبت إلى المرأة الأكثر جدارة بالحبّ التي أعرفها. حساسيتها الشديدة إذا أمكن التعبير تفوق جمالها المؤثّر. وجدتها بمفردها فأخبرتها بقصة مدام م.. نحن نتعقّل بناء على ذلك، قالت لي اسمعني: «إذا كان الرجل الذي سمح لنفسه بهذا العمل محبوباً من قبل في نظر هذه المرأة فستغفر له ومن ثم ستحبّه». ـ أعترفُ أنني كنت مرتبكاً من هذا الضوء غير المتوقّع المسلّط على أعماق قلب الإنسان. وأجبتها بعد مدة من الصمت: ـ »ولكن عندما نحبّ، هل لدينا الشجاعة لنتصرّف هذه التصرّفات العنيفة الأخيرة؟»

ربما لكان هناك غموض أقلّ بكثير في هذا الفصل لو كتبته امرأة. كلّ ما يتعلّق بالكبرياء، الكبرياء الأنثوي، وعادة الحياء وتعدياتها، وبعض الحساسيات، التي يعتمد معظمها فقط على جمعيات الأحاسيس، التي لا يمكن أن توجد لدى الرجال، وغالبا ما تكون الحساسيات التي لا أساس لها في الطبيعة؛ كل هذه الأشياء، أقول، لا يمكن أن تكون هنا إلا بقدر ما سمحنا لأنفسنا بالكتابة عما يُسمع ويُقال.

قالت لي امرأة، في لحظة من الصراحة الفلسفية، شيئاً يرجع إلى هذا: «إذا لم أضح بحريتي أبداً، فإنّ الرجل الذي سأصل إلى تفضيله سيقدر مشاعري أكثر وهو يرى كم كنتُ بخيلةً دائماً في تفضيلات أخفّ وزنًا».

من مصلحة هذا العشيق الذي قد لا تصادفه أبداً أن تظهر هذه المرأة اللطيفة برودا للرجل الذي يتحدث إليها في هذه اللحظة. هذه أول مبالغة في الحياء: فأول مبالغة يمكن أن أحترمها؛ والثانية تصدر عن كبرياء النساء؛ والمصدر الثالث للمبالغة هو كبرياء الأزواج.

يبدو لي أن هذه الإمكانية للحبّ غالباً ما تُقدّم نفسها إلى تبجيل المرأة الأكثر فضيلة حتّى وهنّ على حق. فعدم الحب عندما تتلقى من السماء نفساً خُلقت من أجل الحب هذا هو حرمان نفسك والآخرين من السعادة العظيمة. وهذا مثل شجرة برتقال لا تزهر خوفا من ارتكاب خطيئة ما. ولاحظ أن النفس المخلوقة من أجل الحب لا يمكن أن تتذوّق بحماسة أيّ سعادة أخرى. فتجد من المرة الثانية في ملذّات العالم المزعومة فراغاً لا يطاق؛ غالباً ما تعتقد أنها تحبّ الفنون الجميلة والجوانب السامية للطبيعة لكن هذه الجوانب تمنّيها فقط وتبالغ في الحبّ إذا كان ذلك ممكناً، وسرعان ما تدرك أنها تحدّثها عن السعادة التي قرّرت أن تحرم نفسها منها.

الشيء الوحيد الذي أراه يُلام في الحياء وهو يقود إلى عادة الكذب؛ وهذه هي الميزة الوحيدة التي تتميّز بها النساء سهلات المنال عن النساء الرقيقات. المرأة سهلة المنال تقول لك، «صديقي العزيز، بمجرد أن تعجبني سأخبرك بهذا وسوف أكون أكثر راحة منك؛ لأنّ لدي الكثير من الاحترام لك».

يحيا الإشباع من كونستانس، تصرخ بعد فوز حبيبها: «كم أنا سعيدة لأنني لم أسلم نفسي لأحد منذ ثماني سنواتٍ وأنا فيها أختلف مع زوجي!»

ومهما وجدتُ هذا المنطق سخيفاً، يبدو لي هذا الفرح مفعماً بالنضارة.

لا بدّ لي حتماً أن أروي هنا ما هي طبيعة ندم سيدة من إشبيلية تخلّى عنها عشيقها. أحتاج إلى أن نتذكّر أن كل شيء في الحبّ هو علامة ولا سيّما أن أسامح بعض الشيء على أسلوبي.

تعتقد عيناي كرجل أنهما تميّزان تسع خصائص في الحياء.

1. المقامرة بالكثير مقابل القليل فأن تكون المرأة متحفّظة للغاية ومن ثم التصنّع غالباً؛ فنحن لا نضحك على سبيل المثال من الأشياء التي تسلينا أكثر؛ لذا فإن الأمر يتطلّب الكثير من الذكاء للحصول على القدر المناسب من الحياء. ولذلك لا تتحلّى به الكثير من النساء بما يكفي في التجمّع الصغير أو بالأصحّ لا يتطلّبن أن تكون القصص التي يتم نسجُها عنهنّ سريعة كثيراً وألا تفقد سترها إلا عند حدّ النشوة والجنون.

هل يمكن أن يكون ذلك بسبب الحياء والملل القاتل الذي لا بدّ وأنه مفروض على كثير من النساء، وأن معظمهنّ لا يقدرن شيئاً في الرجل أكثر من الصفاقة؟ أم يعتبرن الصفاقة من قوة الشخصية؟

2. القانون الثاني: حبيبي سيقدّرني أكثر.
3. قوة العادة تتغلّب على المرء حتى في اللحظات الأكثر شغفاً.
4. الحياء يمنح متعاً مغرية جداً للحبيب: فيجعله يشعر بأهمّية القوانين التي تُنتهك من أجله.
5. وللنساء بعضُ المتع الأكثر إثارة للنشوة؛ ولمّا كانت تتغلّب على عادة قوية فهي تلقي بالمزيد من الهياج في النفس. فالكونت فالمون ألفى نفسه في غرفة نوم امرأة جميلة وحصل معه هذا كلّ أسبوع ومعها ربما مرةً كلّ عامين؛ فالندرة والحياء لا بدّ لهما أن يوفّرا للنساء متعاً أكثر حيوية للغاية.
6. مساوئ الحياء هو أنه يدفع باستمرار إلى الكذب.

7. المبالغة في الحياء وصرامته يثبّطان محبّة النفوس الرقيقة والخجولة بالتحديد تلك التي خُلقت كي تمنح ملذّات الحبّ وتشعر بها.
8. عند النساء الرقيقات اللواتي لم يحظين بكثير من العشاق يكون الحياء عقبة أمام سلاسة التصرّفات، ممّا يعرضهنّ للاستسلام قليلاً إلى أن تقودهنّ صديقاتهنّ اللواتي لا يعانين من النقص نفسه في لوم أنفسهنّ. ويعرن انتباههنّ إلى كلّ حالة خاصة بدلاً من أن ينجررن بشكل أعمى وراء العادة. حياؤهنّ الحسّاس ينقل إلى تصرفاتهنّ بعض التكلّف؛ ومن فرط سجيّتهنّ يتخذن مظهر عدم التصنّع؛ لكن هذه الرعونة ترجع إلى النعمة السماوية. إذا شابه عدم تكلّفهن رقتهن فذلك لأنّ هذه النفوس الملائكية هي مغناجة دون علمها بذلك. وبسبب التواني في قطع أحلام يقظتهن، وكي يتجنّبن عناء التحدث وليجدن ما هو ممتع ومهذّب. ومن لا يكون سوى مهذب ممّن يدعى صديقاً يأخذن بالاتّكاء برقّة على ذراعه.
9. ما يحدث أنّ النساء، عندما يجعلن من أنفسهنّ مؤلِّفات، نادراً جداً ما يبلغن السمو، وهذا بفضل أقلّ رسائلهنّ الغرامية، ولأنهنّ لا يجرؤن أبداً على أن يكنّ سوى نصف صريحات: فأن يكن صريحات قد يكون بالنسبة لهنّ مثل الخروج دون شال. لا شيء أكثر تكراراً بالنسبة للرجل من الكتابة بشكل مطلق بما يمليه عليه خياله ومن دون أن يعلم إلى أين هو ذاهب.

خلاصة

الخطأ العام هو بالتصرّف مع النساء كما مع أصناف بشرية أكثر نبلاً، وأكثر تقلّباً، وخاصّة الذين لا يوجد منافسة ممكنة معهم. ننسى بسهولة كبيرة أنّ هناك قانونين جديدين وفريدين يستبدان بهذه الكائنات المتقلبة للغاية، بالتنافس مع جميع المنحدرين العاديين من الطبيعة الإنسانية؛ أقصد: الكبرياء الأنثوي والحياء، والعادات التي لا يمكن فكّ رموزها غالباً، هي بنات الحياء.

الفصل السابع والعشرون: عن النظرات

يمكننا قول كل شيء بنظرة.

إنها السلاح الكبير للغنج العفيف. يمكننا قول كل شيء بنظرة، ومع ذلك يمكننا دائماً إنكار أي نظرة؛ لأنه لا يمكن تكرارها حرفياً.

هذا يذكرني بالكونت G، ميرابو روما: أعطته الحكومة الصغيرة اللطيفة في ذلك البلد طريقة بارعة لرواية القصص، بكلمات متداخلة تقول كل شيء ولا شيء. يجعل كل شيء مسموعاً؛ غير أنّ أيّ شخص حر أن يكرّر كلّ كلماته حرفياً لا يمكن توريطه. أخبره الكاردينال لانت أنه سرق هذه الموهبة من النساء، وأنا أقول، هذا الاحتيال هو انتقام قاس، ولكنه عادل لاستبداد الرجال.

الفصل الثامن والعشرون: عن الكبرياء الأنثوي

من الكبرياء الأنثوي ولدت ما تسمّيه النساء قلّة الحساسية، أعتقد أنها تشبه ما يسمّيه الملوك المساس بالجلالة.

تسمع النساء طوال حياتهنّ بوساطة الرجال عن أشياء مزعومة ذات أهمية، ومكاسب مالية كبيرة ونجاحات في الحرب وقتلى في المبارزات، وانتقام وحشي أو مثير للإعجاب، و.. إلخ. فاللاتي يتمتّعن بنفسٍ فخورة يشعرن بأنهنَّ سبب في عدم قدرتهنّ على الوصول إلى هذه الأشياء، غير قادرات على إظهار كبرياء ملحوظ بأهمّية الأشياء التي يقوم عليها. إنهن يشعرن بقلب يخفق في صدرهنَّ الذي بقوة وفخر حركاته يتفوّق على كلّ ما يحيط بهنّ ومع ذلك، يرين أن آخر الرجال يُقدر أكثر منهنّ. إنهنّ يدركن أنه لا يمكنهنّ إظهار الكبرياء إلا بالأمور الصغيرة، أو بشكل أقلّ في الأمور التي تهمّ العاطفة فقط والتي لا يمكن أن يحكمها طرف ثالث. يعذبهنّ هذا التناقض المحزن بين تدني ثروتهنّ وكبرياء أنفسهنّ، فيأخذن بجعل كبريائهنّ محترماً انطلاقاً من حيوية فورات حماسهنّ أو عن طريق المثابرة العنيدة التي يحتفظون بها بقراراتهنّ. قبل العلاقة الحميمية، تظنّ تلك النساء عند رؤية عشيقهنّ أنه قد أقام حصراً ضدهنّ. فيتم استخدام خيالهنّ في السخط من مساعيه التي وبعد كل اعتبار لا يمكنها إلا أن تدلّ على الحبّ إذ إنه يحبّ. فبدلاً من الاستمتاع بمشاعر الرجل الذي يفضلنه يفتخرن بالزهو في هذا الصدد: وأخيرا، بالنفس الأكثر رقة عندما لا تكون حساسيتها ثابتة على شيء واحد، بمجرد أن يحببن، مثل مغناج مبتذلة، لا يعود لديهنّ سوى الزهو.

ستضحي امرأة كريمة الطبع بحياتها ألف مرة من أجل عشيقها، وتختلف معه إلى الأبد في شجار على الكبرياء، بشأن باب مفتوح أو مغلق. هذه هي نقطة شرفهم. أضاع نابليون نفسه تماماً حتى لا يتنازل عن قرية واحدة.

لقد رأيت شجاراً من هذا النوع دام أكثر من عام. فقد ضحت امرأة مميزة جداً بكل سعادتها بدلاً من أن تضع عشيقها في حالة يمكن أن يساوره أدنى شكّ حول سمو كبريائها. كانت المصالحة نتيجة المصادفة وعند صديقي، نتيجة ضعف لم تستطع التغلّب عليه، انطلاقا من مقابلة عشيقها. اعتقدت أنه على بعد أربعين مكان عن هنا فوجدته في مكان بالتأكيد لم يتوقّع رؤيتها فيه. لم تستطع إخفاء فورة سعادتها الأولى؛ فرقّ قلب الحبيب لها أكثر منها وكادا يسقطان على ركبتيهما ولم أرَ قطّ دموعاً تسيل بهذه الغزارة؛ كان مشهد السعادة غير المتوقّع. الدموع هي الابتسامة القصوى.

قدّم دوق أرجيل مثالاً جميلاً على حضور البديهة من طريق عدم الانخراط في معركة الكبرياء الأنثوي في المقابلة التي أجراها في ريتشمونت مع الملكة كارولين. كلما زاد السمو في طبع المرأة، كانت هذه العواصف أكثر قسوة.

مثلما السماء السوداء
تُنذر بالعاصفة الهوجاء.

دون جوان

هل يُحتمل أنه كلما تمتعت المرأة بالسورة العاطفية في بحر الحياة والصفات المميزة لحبيبها، سعت في هذه اللحظات القاسية التي يبدو فيها التعاطف معكوساً إلى الانتقام لما تعدّه -عادة- تفوّقاً على الرجال الآخرين؟ فهي تخشى أن ترتبك معهم.

لقد مرّ وقت طويل منذ أن قرأت كلاريس المملّة؛ يبدو لي مع ذلك أنه من باب الكبرياء الأنثوي أنها تركت نفسها تموت ولا تقبل يد لاف لاس. كان خطأ لاف لاس جسيماً ولكن؛ لمّا كانت تحبّه قليلاً فقد أمكنها أن تجد في قلبها مغفرة عن جريمة كان الحبّ سببها.

مونيم، في المقابل من ذلك، يبدو لي نموذجاً مؤثراً للحساسية الأنثوية. ما الجبين الذي لا يحمرّ من المتعة عند سماع قول هذا على لسان ممثلة جديرة بهذا الدور:

وهذا الحب المشؤوم، الذي قهرتُه
فاجأته أحابيلك وأقنعتني به
لقد اعترفتُ لك، لا بدَّ لي من دعمه؛
لا يجديك فقدان الذاكرة؛
وهذا الاعتراف المخزي، حيث أجبرتني،
سيبقى حاضراً دائماً في بالي.
كنت سأعتقد دائماً أنك غير متأكّد من إيماني؛
والقبر، يا ربّ، أقلّ حزناً عندي
مِن فراش زوج أهانني،
ومَن حاز هذه الميزة القاسية علي،
ومَن، وهو يُعدُّني لملل أبدي،
جعلني أحمرّ خجلاً بلهيب حبّ ليس له.

راسين

أتصور أن القرون القادمة ستقول: هذا ما كانت الملَكية ناجحة فيه، في إنتاج هذه الأنواع من الشخصيات ولوحتها التي رسمها الفنانون العظماء.

ومع ذلك حتى في جمهوريات العصور الوسطى أجد مثالاً مثيراً للإعجاب على هذه الحساسية التي يبدو أنها تدمّر نظامي عن تأثير الحكومات على العواطف والتي سأقدّمها بصراحة. وهي متعلّقة بهذه الأبيات المؤثّرة لـ دانتي: بما معناه:

واحسرتاه! عندما تعودُ إلى عالم الحياة أرغب -أيضاً- في إعطائي هدية تذكارية. أنا بيا؛ وهبتني سيينا الحياة: سأجد الموت في المستنقعات لدينا. من تزوّجني وقدم لي خاتمه يعرف قصتي.

المرأة التي تتحدّث بضبط النفس كان لديها سر مصير ديديمونا، وتستطيع بكلمة أن تعلن جريمة زوجها للأصدقاء الذين تركتهم على الأرض.

حاز نيلو ديلا بيترا على يد مادونا بيا، الوريثة الوحيدة لطولومي، أغنى وأنبل عائلة لسيينا. جمالها الذي أثار إعجاب توسكان ولّد في قلب زوجها الغيرة، التي وقد أججتها تقارير كاذبة وتزايد الشكوك المتواصلة قادته إلى مشروع مخيف. من الصعب أن يقرّر اليوم ما إذا كانت زوجته بريئة تماماً، لكن دانتي يقدمها لنا على هذا النحو.

اقتادها زوجها إلى مستنقع فولتير الساحلي المشهور آنذاك بتأثيرات هوائه الفاسد. لم يرغب قطّ في إخبار زوجته التعيسة عن سبب نفيها إلى مثل هذا المكان الخطير. فلم يتنازل كبرياؤها أن يبديَ أيّ شكوى أو اتهام. كان يعيش وحده معها في برج مهجور زرتُ أطلاله على شاطئ البحر. هناك لم يكسر صمته المقيت أبداً ولم يجب قطّ على أسئلة

زوجته الشابّة ولم يصغ قطّ إلى توسّلاتها. انتظر بجانبها ببرود حتى فعل الهواء الوبائي فعله. فلَم تتأخر أبخرة هذه المستنقعات عن إذبال هذه القسمات الأكثر جمالاً كما يُقال التي ظهرت في هذا القرن على هذه الأرض. توفيت في ظرف شهر. بعض المؤرّخين لتلك الأوقات البعيدة أفادوا أن نيلو استخدم الخنجر لتسريع نهايتها: ماتت في المستنقعات البحرية، بطريقة مروّعة؛ لكن طريقة موتها كانت لغزاً حتى للمعاصرين. نجا نيلو ديلا بيترا كي يقضي بقية أيامه في صمت لم يكسره قطّ.

لا شيء أكثر نبلاً وأكثر رهافة من الطريقة التي تتحدّث بها بيا الشابّة إلى دانتي. ترغب في أن تكون حاضرة الذاكرة في إحياء ذكرى الأصدقاء الذين تركتهم على وجه الأرض صغاراً؛ ومع ذلك في تسمية نفسها والإشارة إلى زوجها لا تريد أن تسمح لنفسها بأصغر شكوى من الفظاعة التي لم يُسمع عنها، ولكنها بعد اليوم وقد تعذّر إصلاحه تشير فقط إلى أنه يعرف قصة موتها. أعتقد أن هذا الثبات في الانتقام للكبرياء لا يُرى إلا في بلدان الجنوب.

في بييمونت، وجدتُ نفسي أشهد بشكل لا إرادي حقيقة مشابهة تقريباً؛ ولكن بعد ذلك لم أكن أعرف التفاصيل. تم إرسالي مع خمسة وعشرين خيالاً إلى الغابة على طول نهر سيزيا لمنع التهريب. وعند وصولنا مساءً إلى هذا المكان الموحش والمقفر رأيتُ بين الأشجار أنقاض قصر قديم. ذهبتُ إلى هناك: كانت دهشتي كبيرة فهو مسكون. وجدتُ أحد النبلاء بوجه مشؤوم. رجل كان طوله ستَّ أقدام وعمره أربعين سنة: أعطاني غرفتين على مضض. كنتُ أعزف الموسيقا هناك مع رقيب: بعد عدة أيام اكتشفنا أن رجلنا كان يرعى امرأة كنّا نسمّيها كاميل على سبيل الضحك. كنا بعيدين عن الشكّ في الحقيقة المروّعة.

توفيت بعد ستة أسابيع. كان لدي فضول محزن لرؤيتها في نعشها. دفعتُ لراهب ليعتني بها وفي منتصف الليل تقريباً بحجّة إلقاء الماء المقدّس. أدخلني إلى الكنيسة لقد وجدتُ هناك واحداً من تلك الوجوه الرائعة، التي هي جميلة حتى في حضن الموت. لها أنف كبير معقوف لن أنسى أبداً محيطه النبيل والرقيق. غادرتُ هذا المكان المشؤوم؛ وبعد خمس سنوات مفرزة من فوجي المرافق للإمبراطور في تتويجه كملك على إيطاليا رُويت لي القصة كاملة. فقد علمت أن الزوج الغيور الكونت X وجد ذات صباح ساعة يد إنكليزية معلّقةً على سرير زوجته، وهي تخصّ شاباً من البلدة التي يعيشان فيها. في ذلك اليوم ذاته أخذها إلى القلعة المدمرة، في وسط غابات سيسيا. ومثل نيلو ديلا بييترا، لم ينبس ببنت شفة قط. إذا كانت قد توسّلت له بعض الشيء، فقد قدم لها ببرودٍ وصمتِ الساعة الإنجليزية التي كان يحملها معه دائماً. أمضى زهاء ثلاث سنوات وحده معها. وأخيراً ماتت من اليأس في زهرة عمرها. حاول زوجها طعن صاحب الساعة فأخطأه، انتقل إلى جنوة وأبحر ولم تعد تُعرف أخباره. وتم توزيع أملاكه.

إذا استخدمنا الشتائم بظُرف مع النساء اللواتي يتمتعن بكبرياء أنثوي وهذا أمر سهل بحكم العادة في الحياة العسكرية، فإننا نُضجر هذه النفوس الفخورة؛ فيعتبرنك جباناً ويدركن الإهانة بسرعة كبيرة. هذه النفوس الأبية تسرّ الرجال الذين يرونها غير متسامحة مع الرجال الآخرين. أعتقد أنه المسار الوحيد الذي يجب اتخاذه فلا بدّ أن يكون هناك شجار مع جارٍ لنا لنتفاداه مع عشيقتنا.

رأت الآنسة كورنيل، الممثلة الشهيرة من لندن ذات يوم العقيد الثري يدخل عندها على حين غرة الذي كان مفيداً لها. كانت مع

عشيقها الصغير الذي لم يكن بالنسبة لها سوى ممتع. قالت للعقيد متأثرةً: «السيد فلان جاء لرؤية فرسي القزم التي أريد بيعها. أنا هنا لأمر آخر تماماً»، رد بفخر هذا العاشق الصغير الذي كان يوشك أن يضجرها والذي منذ هذا الرد أخذت تحبه بجنون. تلك النساء يتعاطفن مع كبرياء عشيقهن بدلاً من ممارسة تصرفهن بفخر على حسابه.

إن شخصية دوق لوزون (شخصية عام 1660)، وإن استطعن في اليوم الأول أن يغفرن له نقص اللطائف فهي جذّابة لتلك النساء وربما لجميع النساء المتميزات؛ وكلّما فاتتهن العظمة السامية اعتبرن البرودة هدوء العين التي ترى كل شيء والتي لا تتأثر بالتفاصيل. ألم أرَ نساء بلاط سان كلود يؤكدن أن نابليون كان له شخصية جافّة ومبتذلة؟ الرجل العظيم كالنسر كلما ارتفع قلّت رؤيته فيعاقب على عظمته بعزلة النفس.

من الكبرياء الأنثوي ولدت ما تسمّيه النساء قلّة الحساسية. أعتقد أنها تشبه ما يسمّيه الملوك المساس بالجلالة وهي جريمة تزداد خطورة عندما يقع المرء فيها دون الارتياب فيها. يمكن اتهام العشيق الأكثر رقة بأنه يفتقر إلى الحساسية إذا لم يكن لديه الكثير من الذكاء والمحزن أكثر إذا تجرأ على الانغماس في أعظم سحر للحب في سعادة أن تكون طبيعياً تماماً مع من تحبّ ولا تستمع إلى ما يُقال له.

هذه من الأشياء التي لا يمكن للقلب الذي ولد ميلاداً سليماً أن يشكّ فيها والتي يجب أن يكون المرء قد اختبرها ليؤمن بها؛ لأن المرء يوجّهه عادة العمل بالعدل والصراحة مع أصدقائه البشر.

ينبغي لنا أن نتذكّر باستمرار أننا نتعامل مع كائنات قد تعتقد على الرغم من الخطأ أنها أقلّ شأناً في قوة الشخصية، أو بمعنى أصحّ قد تفكر أننا نعدّها أقل شأناً.

ألا يجب وضع كبرياء المرأة الحقيقي في طاقة الشعور الذي تلهمه؟ كنا نمازح وصيفة الملكة زوجة فرانسوا الأول حول فقد عشيقها الذي قيل إنه قلما أحبّها. بعد مدة وجيزة عانى هذا الحبيب من مرض وبدا أخرس في البلاط. ذات يوم بعد عامين حيث فوجئنا بأنها ما زالت تحبّه قالت له: «تكلّم». فتكلّم.

الفصل التاسع والعشرون: عن شجاعة النساء

الشجاعة الأخلاقية، المتفوقة كثيراً على الأخرى، حزم المرأة التي تقاوم حبّها هو فقط الشيء الأكثر إثارة للإعجاب الذي يمكن أن يوجد على الأرض.

سأتحدّث عن فخر تمبلر، لم يكن في المعارك العنيفة قد أظهر شجاعته المتبجّحة أكثر ممّا أظهرته النساء عندما طُلب منهنّ المعاناة بالحبّ أو الواجب. [إيفانهو، المجلد III، صفحة 220.]

أتذكّر أنني صادفت العبارة الآتية في كتاب التاريخ: «كان جميع الرجال يفقدون صوابهم؛ هذا هو الوقت الذي تتفوّق فيه النساء عليهم تفوّقاً لا جدال فيه».

لشجاعتهنّ احتياطي يفتقده عشيقهم. فهن يفتخرن بالغرور في هذا الصدد ويجدن الكثير من السرور في أن يتمكنّ في خضم الخطر من الخلاف بحزم مع الرجل الذي غالباً ما يجرحهنّ بفخره بحمايته وبقوته، وتمتعهنّ بهذه الطاقة ترفعهنّ فوق الخوف أيّاً كان الذي في هذه اللحظة يسبّب ضعف الرجال. الرجل أيضاً إذا تقبّل هكذا مساعدة في هكذا لحظة، سيظهر نفسه متفوّقاً على كلّ شيء؛ لأنّ الخوف ليس في الخطر أبداً إنه فينا.

ليست المسألة أنني أزعم التقليل من قيمة شجاعة النساء: فقد رأيت من هنّ متفوّقات على الرجال الأكثر شجاعة. يلزمهنّ فقط رجل يحببنه؛ إذ إنهنّ لم يعدن يشعرن بالخطر إلا من طريقه، فيصبح الخطر المباشر والشخصي الأكثر فظاعة بالنسبة لهنّ مثل وردة يجب قطفها في حضوره.

لقد وجدت -أيضاً- لدى النساء اللواتي لم يحببن الشجاعة الأكثر فتوراً والأكثر إثارة للدهشة والأكثر خلواً من الأعصاب. صحيح أنني كنت أعتقد أنهنّ لم يكنّ شجاعات للغاية إلا لأنهنّ يتجاهلن أشجان الجراحات.

أما الشجاعة الأخلاقية المتفوقة كثيراً على الأخرى. فحزم المرأة التي تقاوم حبّها هو فقط الشيء الأكثر إثارة للإعجاب الذي يمكن أن يوجد على الأرض. جميع علامات الشجاعة المحتملة الأخرى ترّهات بجانب شيء قوي للغاية ضد الطبيعة وشاقّ للغاية. لعلهنّ يجدن قوة في هذه العادة من التضحيات التي يجعلها الحياء تتقلّص.

مصيبة النساء أنّ براهين هذه الشجاعة تظلّ دائما سرية ولا يمكن إفشاؤها تقريبًا. والمصيبة الكبرى هي أنها تُستخدم دائماً ضد سعادتهن: كان على أميرة كليف ألا تخبر زوجها بشيء وتستسلم للسيد نيمور.

لعلّ النساء يدعمهن دعماً أساسياً الكبرياء في الدفاع الجيد، ويظْنُنَّ أنّ عشيقهنّ يبدي زهوه في النيل منهنّ فكرة صغيرة وبائسة: رجل شغوف يرمي بنفسه فرحاً من القلب في كثير من المواقف المضحكة يكون لديه متسعٌ من الوقت للتفكير في الزهو! إنه مثل الراهب الذي يعتقد أنه يقبض على الشيطان والذي يكتفي بسبب الكبرياء بمسوحه وتقشّفاته.

أعتقد أنه لو وصلت مدام دو كليف إلى الشيخوخة في تلك المدة التي يتم فيها الحكم على الحياة وحيث تظهر ملذّات الكبرياء في كل بؤسهنّ لتظاهرَت بالتوبة، ولرغبَت في أن تعيش مثل مدام دو لا فاييت.

لقد قمتُ للتوّ بإعادة قراءة مئة صفحة من هذا المقال؛ فقد أعطيتُ فكرة فقيرة جداً عن الحبّ الحقيقي. عن الحبّ الذي يشغل النفس كلّها

ويملؤها تارة بأسعد الصور وتارة باليأس ولكن دائماً سامية ويجعلها لا تشعر بالكامل لكل بقية ما هو موجود. لا أعرف كيف أعبر عما أراه بوضوح كبير؛ لم أشعر قطّ بألم أكبر من نقص الموهبة. كيف أجعل بساطة المبادرات والطباع، والعمق الرزين، والنظرة المصوّرة بشكل صحيح وبكثير من الصراحة الفروق الدقيقة في الشعور، ولا سيّما، أعود إلى هذا، عدم الثقة هذا الذي لا يمكن التعبير عنه في كلّ ما لا يكون المرأة التي نحبّ؟ لا أو نعم يقولها رجل يحبّ لديه طلاوة لا يمكن إيجادها البتة في مكان آخر ولا يمكن إيجادها لدى هذا الرجل في أوقات أخرى. هذا الصباح (3 أغسطس)، مررتُ على صهوة الحصان في الساعة التاسعة أمام حديقة ماركيز زامبييري الإنجليزية الجميلة، الواقعة على تموّجات هذه التلال الأخيرة المتوّجة بأشجار طويلة تقابلها بولونيا، التي يتمتّع المرء منها بمشهد جميل لهذه لومباردي الغنية والخضراء. أجمل بلد في العالم في أيكة من الغار في حديقة زامبييري التي تحيط بالمسار الذي كنت أتبعه والذي يؤدي إلى شلال رينو في كازا ليتشيو، رأيت الكونت دلفانتي؛ كان يحلم بعمق وعلى الرغم من أننا أمضينا السهرة معاً حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل إلا أنه بادلني، بصعوبة التحية. ذهبت إلى الشلال. عبرت رينو وأخيراً بعد مرور ثلاث ساعات على الأقل وعند مروري تحت أيكة حديقة زامبييري رأيته مرة أخرى؛ كان في الوضعية نفسها بالضبط، متكئاً على شجرة صنوبر كبيرة ترتفع فوق أيكة الغار؛ أخشى أن نجد هذه التفاصيل بسيطة للغاية وألا تثبت أيّ شيء: جاء إليّ والدموع في عينيه متوسّلاً لي ألا أكتب قصة عن جموده. تأثرتُ فعرضت عليه العودة والذهاب معه لقضاء بقية اليوم في الريف. وبعد ساعتين أخبرني بكل شيء: إنها

نفس جميلة؛ لكن الصفحات التي قرأناها للتوّ باردة مقارنة بما كان يخبرني به!

في المكان الثاني، يعتقد أنه غير محبوب؛ هذا ليس رأيي. لا يمكن قراءة أي شيء عن الوجه الرخامي الجميل للكونتيسة جيجي التي قضينا معها المساء. في بعض الأحيان فقط يأتي أحمر الخدود المفاجئ والخفيف الذي لا يمكنها قمعه ليخون عواطف هذه النفس التي يعارضها الكبرياء الأنثوي الأعلى مع العواطف القوية. نرى جيدها ناصع البياض المرمري وما نراه من تلك الكتفَين الجميلتَين الجديرتَين بحمرة كانوفا. تجد فنّ تخليص عينيها السوداوين والداكنتين من مراقبة الناس التي حساسيتها كامرأة ترتاب من الاختراق؛ ولكن رأيت تلك الليلة، في شيء معيّن كانت تقوله دلفانت وتستنكره، حمرة مفاجئة تغطيها بالكامل. وجدته هذه النفس المتعالية أقلّ جدارة بها.

ولكن أخيراً عندما أكون مخطئا في تخميناتي حول سعادة دلفانت باستثناء الغرور أعتقد أنه أكثر سعادة مني اللامبالي، ومع ذلك أنا في حالة من السعادة المريحة للغاية في المظهر وفي الواقع.

الفصل الثلاثون: مشهد فريد وحزين

إن اعتبارات الكبرياء الصغيرة وآداب السلوك للناس جلبت التعاسة لبعض النساء.

النساء، بكبريائهنّ الأنثوي ينتقمن من الحمقى برجال الفكر ومن النفوس المبتذلة بالمال وكُرهاً بالقلوب السخية. يجب أن نعترف بأن هذه نتيجة جيدة.

إن اعتبارات الكبرياء الصغيرة وآداب السلوك للناس جلبت التعاسة لبعض النساء ويدافع الكبرياء وضعهن آباؤهن في وضع بغيض. وكان القدر قد خصهنّ على سبيل مواساة تتغلّب حقاً على تعاساتهنّ بسعادة أن يحبين ويكنّ محبوبات بشغف؛ ولكن ذات يوم يقتبسن من خصومهن ذات الكبرياء الأرعن الذي يكنّ أولى ضحاياه. وهذا يتسبّب بقتل السعادة الوحيدة المتبقّية لهنّ، ممّا يسبّب تعاستهنّ الخاصة بهنّ وتعاسة من يحبهنّ. صديقة لديها عشر دسائس معروفة وليس دائماً الواحدة تلو الأخرى تقنعهنّ بشدة أنهنّ إذا أحببن فسيلحق العار بهنّ في نظر الجمهور. ومع ذلك فإن هذا الجمهور الصالح الذي لا يبلغ أبداً سوى الأفكار الوضيعة يمنحهن بسخاء عشيقاً كل عام؛ لأنه كما يقول، هذه هي الأصول. وهكذا تصبح النفس محزونة بسبب هذا المشهد الغريب: امرأة رقيقة وحسّاسة للغاية ملاكاً من الطهر؛ بناء على نصيحة من رفيقتها.. التي بلا إحساس تهرب من السعادة الوحيدة والكبيرة المتبقية لها لتظهر بفستان أبيض لامع أمام قاضٍ سمين وأبلهَ نعلم أنه أعمى منذ مئة عام ويزعق: «إنها ترتدي ملابس سوداء».

الفصل الحادي والثلاثون: مقتطف من يوميات[1] سالفيانتي

الموهبة التي تصنع الفتاة.

وقد يئستُ من التعاسة التي يصغّرني فيها الحبّ فألعن وجودي. لا يهفو قلبي إلى شيء، الطقس كئيب، إنها تمطر، جاء البرد المتأخّر ليحزن ثانية الطبيعة التي كانت تبلغ الربيع بعد شتاء طويل.

شياسيتي، عقيد مسرّح بنصف راتب. صديق معقول وبارد. جاء لقضاء ساعتين معي. «يجب أن تتخلّى عن حبّها. ماذا أفعل؟ أعِد لي شغفي بالحرب. من المؤسف جداً أنك تعرّفت إليها». أنا مقتنع بهذا تقريباً، طالما أشعر بالإحباط وفقدان الهمّة. لقد استولت عليّ كآبة كبيرة اليوم. نحن نبحث معاً عن المصلحة من حمل صديقتها على الافتراء عليّ أمامها؛ لم نجد شيئاً مثل هذا المثل القديم النابولي: «المرأة التي يهجرها الحبّ والشباب تتباهى بأيّ شيء تافه». ما هو مؤكّد هو أنّ هذه المرأة القاسية مسعورة عليّ: هذه كلمة أحد أصدقائها. يمكنني الانتقام بطريقة فظيعة. لكن أمام حقدها ليس لديّ أصغر وسيلة دفاع. تركني شياسيتي. خرجت تحت المطر، ولا أعرف ماذا أفعل. فشقّتي، وهذا الصالون الذي سكنتُ فيه أثناء الأيام الأولى من تعارفنا وعندما كنتُ أقابلها كلّ مساء أصبحا لا يُطاقان لي. كل صورة وكل قطعة أثاث تلومني على السعادة التي حلمت بها في حضور هذه الأشياء والتي فقدتها إلى الأبد.

1- الخصوصية، 1 ،IIبولونيا 29أبريل1818

أجول في الشوارع تحت المطر البارد والمصادفة إذا كان بإمكاني تسميتها مصادفة تجعلني أمر تحت نوافذها. كان الليل قد حلّ، سرتُ وعيناي الدامعتان مثبتتان على نافذة غرفة نومها. فجأة، شُقَّت الستارة قليلاً وكأنه بهدف الرؤية على الأرض وسرعان ما أُغلقت. شعرتُ بحركة جسدية قريبة من القلب. لم أقو على الانتصاب: فلجأتُ تحت رواق المنزل المجاور. انتابتني آلاف المشاعر: فلعلّ المصادفة قامت بحركة الستارة هذه؛ ولكن ماذا لو كانت يدها هي التي شققتها!

هناك تعاستان في العالم: التعاسة القسرية، وتعاسة الموت الفارغ.

مع الحبّ أشعر أن سعادة غامرة على بُعد خطوتين مني وتتجاوز كلّ رغباتي، ولا تعتمد إلا على كلمة واحدة، ابتسامة واحدة.

دون شغف مثل شياسيتي، في الأيام الكئيبة لا أرى في أي مكان السعادة وأشكّ في أنها موجودة بالنسبة لي فيصبح مزاجي سوداوياً. قد يكون علينا أن نكون بلا عواطف قوية وأن يكون لدينا فقط القليل من الفضول أو الزهو.

الساعة الثانية صباحاً رأيت الحركة الخفيفة للستارة؛ في الساعة السادسة قمت بعشر زيارات، ذهبت إلى العرض؛ ولكن كلّ مكان صامت وحالم، قضيت المساء أتفحّص هذا السؤال: «بعد الكثير من الغضب والمبرَّر قليلاً جداً؛ لأنه من ثَمّ هل كنتُ أريد إهانتها [وما هو الأمر في العالم الذي لا تُبرِّره النية؟] فهل أحسَّتْ بلحظة حبّ؟»

توفّي المسكين سالفياتي الذي كتب ما سبق عن صاحبه بترارك بعد مدة من الوقت. كان صديقنا المقرّب لشياسيتي ولّي. لقد عرفنا كل أفكاره ومنه أقتبسُ كل الجزء الكئيب من هذا المقال. كان التهوّر المجسّد إلى جانب ذلك فإن المرأة التي قام بالكثير من الأعمال

الجنونية من أجلها هي الكائن الأكثر إثارة للاهتمام الذي التقيته. كان شياسيتي يقول لي: «لكن هل تعتقد أن هذا الشغف التعيس كان دون منافع على سالفياتي؟ أولاً، عانى من أكثر مصائب المال شدة التي يمكن تخيّلها. هذه المصيبة التي قادته إلى ثروة متواضعة للغاية بعد شباب لامع، والتي كانت ستثير غضبه في أي ظرف آخر لم يتذكّرها مرةً طيلة الخمسة عشر يوماً.

من ثم وهو أكثر أهمّية بالنسبة لرئيس هذا النطاق فإنّ هذا الشغف هو أول مسار حقيقي في المنطق الذي اتخذه على الإطلاق. سيبدو فريداً عند رجل ذهب إلى البلاط؛ لكنه مفهوم من طريق شجاعته المتهورة على سبيل المثال أمضى دون أن يرفّ له جَفن في اليوم الذي ألقى به في العدم؛ كان مندهشاً هناك كما هو الحال في روسيا، من عدم الشعور بأيّ شيء غير عادي؛ إنها حقيقة لم يخف قطّ من أي شيء إلى حد التفكير فيه مدة يومين. وبدلاً من هذه اللامبالاة منذ عامين كان يسعى في كل دقيقة إلى التحلّي بالشجاعة؛ حتّى ذلك الحين لم يواجه أيّ خطر.

عندما حُكم عليه نتيجة رعوناته وثقته في التأويلات الطيبة بعدم رؤية المرأة التي يحبّها إلا مرتين في الشهر. رأيناه في حالة نشوة من فرحة قضاء الليالي في التحدّث إليها؛ لأنه تم استقباله بهذه الصراحة النبيلة التي كان يعشقها فيها. كان يعتبر أنّ له ومدام X روحين لا مثيل لهما ولا بدَّ أن تتفاهما بنظرة. لم يكن بوسعه أن يفهم إلا أنها توليه أقلّ اهتمام في التأويلات الصغيرة البرجوازية التي يمكن أن تجعله مجرماً. كانت نتيجة هذه الثقة الجميلة في امرأة محاطة بأعدائها هي إغلاق بابها عليها.

كنتُ أقول له: «مع مدام X يجب على المرء ألاّ يؤمن بعظمة النفس إلا عند الرمق الأخير». فيجيب: «وهل تعتقد أنّ هناك قلباً آخرَ في العالم يوافق قلبها أفضل مني؟ - صحيح، أنا أدفع ثمن هذا الأسلوب المشوب بالعاطفة الذي يجعلني أرى ليونور في حالة غضب عند خطّ الأفق لصخور بولينيي بسبب مصيبة كلّ مشاريعي في الحياة الواقعية، وهي مصيبة تنجم عن نقص المهارة المتأنّية وعن حالات الرعونة التي تنتج عن قوة انطباع اللحظة». إننا نرى درجة الجنون.

أمّا سالفاتي، فقد كانت الحياة بالنسبة إليه مقسّمة لديه إلى خمسة عشر يوماً، التي اتخذت لون المقابلة الأخيرة كمنحة له. لكنني لاحظت عدة مرات أن السعادة التي يدين بها للترحيب الذي يبدو له أقلّ برودة كانت بالنسبة له أقلّ شدة بكثير من عدم السعادة التي تلقّاها من استقبال جافّ.[1] كانت مدام X تفتقر أحياناً إلى الصراحة معه: هذان هما الاعتراضان الوحيدان اللذان لم أجرؤ على طرحهما عليه. بالإضافة إلى أن ألمه كان أكثر حميمية، الذي لم يكن لديه حساسية من التحدّث عنه أبداً. حتى لأصدقائه الأعزاء والأكثر استثناءً من الحسد كان يرى في استقبال ليونور الجافّ انتصاراً للنفوس المبتذلة والدسّاسة على النفوس الصريحة والكريمة. لذا يأس من الفضيلة ولا سيّما من المجد. ولم يسمح لنفسه بالتحدّث إلى أصدقائه إلا عن بعض الأفكار الكئيبة على الحقيقة التي قادته إليها ولكن إضافة إلى ذلك يمكن أن يكون لها بعض الفائدة في نظر الفلسفة. كنت أشعر بالفضول لرصد هذه النفس الغريبة؛ عادة ما يُصادف الحبّ الشغوف لدى بعض الناس الحمقى قليلاً على الطريقة الألمانية.

1- إنه أمرٌ اعتقدتُ في كثير من الأحيان أن أراه في الحبّ، وهو أنّ هذا التصرّف في استخلاص المزيد من تعاسة الأشياء التعيسة أكثر من سعادة الأشياء السعيدة.

كان سالفياتي على المقابل من ذلك من عداد الرجال الأكثر حزماً والأكثر نباهة الذين عرفتهم. اعتقدت أنني رأيت بعد هذه الزيارات الجافّة أنه لم يكن هادئاً إلا عندما يبرر لنفسه قسوة ليونور. طالما أنه كان يجد أنها قد أخطأت في معاملته السيئة كان تعيساً. لم أكن لأصدق قطّ أن الحبّ مستثنى من الزهو إلى هذا الحدّ. كان يمتدح لنا بلا توقّف الحبّ بإطناب. «لو قالت لي قوة خارقة: اكسر زجاج هذه الساعة، وسوف تكون ليونور لك كما كانت عليه منذ ثلاث سنوات صديقة غير مبالية. في الحقيقة أعتقد أنه في أيّ لحظة من حياتي لن أملك الشجاعة لكسرها». كنتُ أراه في سورة جنون من الغضب وهو يقدّم هذا المنطق لدرجة أنني لم أجد الشجاعة قطّ لأقدم له الاعتراضات السابقة.

وأضاف: «مثل إصلاح لوثر في نهاية العصور الوسطى مزعزعاً المجتمع حتى في أساساته جدد العالم وأعاد بناءه على أسس معقولة هكذا هو الطبع الكريم يتجدد ويتنشط بالحب.

«عندها فقط يعرّي كل سفاسف الحياة؛ فدون هذه الثورة، نال دائماً ما لا أعرف ما هو من تكلّف واستعراض. لم أتعلم الحصول على العظمة في الشخصية إلا منذ أن أحببت طالما كانت تربيتنا في المدرسة العسكرية سخيفة.

«على الرغم من أنني تصرفتُ تصرفاً لبقاً فقد كنت طفلاً في بلاط نابليون وفي موسكو. كنتُ أُؤدّي واجبي؛ لكنني أجهل هذه السذاجة البطولية التي كانت ثمرة تضحية كاملة وعن حُسن نية. منذ سنة فقط على سبيل المثال، حتى فهم قلبي بساطة الرومان في تيف ليف. فيما مضى كنتُ أجدهم باردين مقارنة مع عقدائنا اللامعين. وما كانوا يفعلونه من أجل مدينتهم روما أجده في صميم قلبي من أجل ليونور. إذا

كنتُ سعيداً بما يكفي لأتمكّن من القيام بشيء ما من أجلها فإنّ رغبتي الأولى ستكون إخفاء ذلك. فتصرف الرجعيين والمتخلّفين كان أمراً متّفقاً عليه سلفاً وليس له الحق بمفاجأتهم. كنتُ صغيراً قبل أن أحبّ بالتحديد لأنني كنت أحاول أحياناً أن أجد نفسي كبيراً؛ كان هناك جهد معيّن أشعر به وأصفق لنفسي عليه.

«ومن جهة العواطف ما الذي لا ندين به للحبّ؟ بعد فرص مرحلة الشباب الأولى ينغلق القلب على التعاطف. الموت أو الغياب يُبعد رفقاء الطفولة فنُجبر على قضاء الحياة مع شركاء باردين نصف المسافة في متناول اليد، ونحسب دائماً أفكار الاهتمام أو الغرور».

وشيئاً فشيئاً يصبح كل الجانب الرقيق والكريم من النفس عقيماً بسبب الثقافة وفي أقلّ من ثلاثين عاماً يجد الإنسان نفسه متحجّراً بكل الأحاسيس الحلوة والرقيقة. في وسط هذه الصحراء القاحلة يفجّر الحب نبعاً من المشاعر أكثر وفرة وأكثر نضارة حتى من نبع مرحلة الشباب الأولى. إذاً طالما كان هناك أمل غامض ومجنون وطائش بلا توقّف وإخلاص بلا مقابل أبداً وما من رغبات ثابتة وعميقة أبداً؛ النفس دائماً طائشة ومتعطّشة للتجديد وتُهمل اليوم ما كانت تعشقه بالأمس. ولا شيء أكثر استغراقاً في التأمّل وأكثر غموضاً وأكثر منه في موضوعه بشكل أبدي من تبلور الحب. وحينها الأشياء الوحيدة السارة لها الحق في الإرضاء والإرضاء للحظة؛ الآن كل ما يتعلق بما نحبه وحتى أكثر الأشياء غير المبالية تلمس بعمق. عندما وصلت إلى مدينة كبيرة على بعد مئة ميل من المدينة التي تعيش فيها ليونور، وجدت نفسي خجولاً جداً ومرتجفاً من الارتباك: في كل منعطف في الشارع كنت أرتجف من مقابلة ألفيزا الصديقة الحميمة لـ مدام X، والصديقة التي لا أعرفها.

كل شيء اتخذ لوناً مبهماً ومقدساً، بالنسبة لي كان قلبي يخفق أثناء التحدث إلى علاّمة عجوز. لم أستطع دون احمرار سماع ذِكر الباب الذي تسكن بالقرب منه صديقة ليونور.

«حتى قسوة المرأة التي نحبّها لها لطائف لا نهائية التي لا نجدها في اللحظات الأكثر تزلّفاً إلى النساء الأخريات. وهكذا هذه الظلال الكبيرة في لوحات كورّيج يكون لها بحدّ ذاتها لطائف ساحرة وتدفع إلى حلم يقظة لذيذ بعيداً عن كونها، كما عند الرسامين الآخرين مقاطع قليلة الروعة، ولكنها ضرورية لإظهار قيمة المساحات المضاءة ولإعطاء بروز للأشكال.

أجل، النصف والنصف الأجمل للحياة مخفي عن الرجل الذي لم يحبّ بشغف».

كان سالفياتي بحاجة إلى كل قوة جدله للوقوف في وجه الحكيم شياسيتي الذي كان يقول له دائماً: «هل تريد أن تكون سعيداً وتكتفي بحياة خالية من الأحزان وكل يوم بقدر ضئيل من السعادة امتنع عن يانصيب العواطف العظيمة» فيردّ سالفياتي: «أعطني - إذاً- فضولك».

أعتقد أنه كانت هناك أيام كثيرة يودّ فيها لو يتمكّن من اتباع نصائح عقيدنا الحكيم؛ لقد كافح قليلاً، اعتقدتُ أنه سينجح؛ لكن هذا النشوان تغلّب على قواه تماما. ومع ذلك ما القوة التي لم تمتلكها هذه النفس؟!

أيّ قبّعة من الساتان الأبيض تشبه إلى حدّ ما قبّعة مدام X، والتي كان يراها من بعيد في الشارع، توقف خفقان قلبه مُجبرًا إياه على الاستناد إلى الحائط. حتى في لحظاته الأشد حزناً كانت سعادة مصادفتها تمنحه دائماً بعض الساعات من النشوة تتغلّب على كلّ تعاساته وكل

محاكماته العقلية. إضافة إلى ذلك إنه في الواقع عند وفاته بعد عامين من هذا الشغف السخي الذي لا حدود له دمجت شخصيته عدة عادات نبيلة، وإنه في هذا الصدد على الأقل كان يرى نفسه بشكل صحيح: فلو عاش في ظروف خدمته قليلاً لكان قد جعل الناس يتحدثون عنه. وربما - أيضاً - أنه لكثرة البساطة كانت جدارته مرت خفيَّةً فوق هذه الأرض.

الفصل الثاني والثلاثون: عن الحميمية

كيف ترسم السعادة، إذا لم تترك ذكريات؟

أعظم سعادة يمكن أن يقدّمها الحبّ هي أول شدّ على يد امرأة نحبّها. إن سعادة المغازلة على المقابل من ذلك أكثر واقعية بكثير وأكثر عرضة للمزاح.

في الحب الشغوف ليست الحميميةُ السعادةَ المثالية بقدر ما هي الخطوة الأخيرة نحو تحقيقها. ولكن كيف تُرسم السعادة إذا لم تترك ذكريات؟

عاد مورتيمر وهو يرتجف من رحلة طويلة. كان يعشق جيني. لم تُجب رسائله. بوصوله إلى لندن، كان يمتطي صهوة حصان ذهب ليجلبها من منزلها الريفي. وعند وصوله. كانت تتنزّه في المنتزه؛ يهرع إلى هناك فيخفق قلبه؛ يلتقي بها، تمدّ يدها إليه وتستقبله بارتباك: يرى أنه محبوب وهو يتجوّل معها في ممرات المنتزه. علق فستان جيني في شجيرة أكاسيا شائكة. فيما بعد كان مورتيمر سعيداً لكن جيني كانت غير مخلصة. أكّدتُ له أن جيني لم تحبّه قطّ؛ فذكر لي كدليل على حبّها الطريقة التي استقبلته بها عند عودته من البر الرئيس لكنه لم يكن قادراً على إعطائي أدنى التفاصيل. هو فقط يرتجف ارتجافاً ظاهراً لدى رؤيته شجيرة أكاسيا: إنها في الواقع الذاكرة المميّزة الوحيدة التي احتفظ بها في «أسعد لحظة في حياته.

أسرّ لي رجل حسّاس وصريح فارس سابق هذا المساء -في الجزء السفلي من قاربنا الذي ضربته الأحوال الجوية السيّئة على بحيرة غارد- بقصة علاقاته الغرامية، التي بدوري لن أسرّ بها إلى الجمهور ولكن

أعتقد أنه يحقّ لي أن أستخلص منها أن لحظة الحميمية كانت مثل تلك الأيام الجميلة من شهر مايو وقت دقيق لأجمل الزهور لحظة يمكن أن نكون قاتلة وتُذبل في برهة صغيرة أجمل الآمال.

لا يمكننا أن نمتدح كثيراً ما هو طبيعي. إنه الغنج الوحيد المسموح به في أمر جادّ مثل الحبّ في ويرثر، حيث لا ندري إلى أين نمضي؛ وفي الوقت نفسه، فرصة سعيدة للفضيلة وهي أفضل تكتيك. من دون أن يشكّ في هذا. يقول رجل متأثّر حقاً أشياء ساحرة ويتحدّث لغة لا يعرفها.

ويل للإنسان الأقلّ تصنّعاً بين الناس! حتى عندما يريد وحتى مع كلّ الفكر الممكن يفقد ثلاثة أرباع مزاياه. إذا تركنا أنفسنا نذهب من فورنا إلى المودة بعد دقيقة واحدة فسيكون لدينا لحظة من الجفاف.

يبدو لي أن كلّ فنّ الحب يقتصر على الإفصاح تحديداً عمّا تنطوي عليه درجة نشوة اللحظة أي وبمعنى آخر على الإصغاء إلى روحه. يجب ألا نصدق أنّ هذا سهل للغاية؛ فالرجل الذي يحبّ حقيقة عندما تقول له صديقته أشياء تجعله سعيداً لم يعد لديه القدرة على التحدث.

وهكذا يفقد الأفعال التي كان سيولِّدها كلامه ومن الأفضل أن يسكت بدلاً من قول أشياء رقيقة جداً في غير أوانها؛ فما تم وضعه منذ عشر ثوانٍ لم يعد كذلك على الإطلاق ويحدث تأثيراً سيّئاً في الوقت الحالي. كلما أخلّيتُ بهذه القاعدة وقلتُ شيئاً خطر لي قبل ثلاث دقائق ووجدته جميلاً، كانت ليونور لا يفوتها أن تغلبني. كنتُ أقول لنفسي من ثم وأنا أخرج: هي على حقّ: هذه من الأشياء التي لا بدّ أن تصدم امرأة حسّاسة للغاية؛ فهذه قلّة حياء في الشعور. فهنّ قد يسمحن بالأحرى، مثل أساتذة البيان ذوي الذوق السيّئ، بدرجة واحدة من

الضعف والبرود. وهنّ ليس لديهنّ ما يتخوفن منه في الناس سوى نفاق عشيقهنّ، وأقلّ قدر صغير من عدم الدقّة في التفاصيل، حتّى الأكثر براءة في العالم، يحرمهنّ من فوره كلّ سعادة ويلقي بهنّ في عدم الثقة.

النساء الشريفات ينفرن من الحِدّة وما هو غير متوقّع اللذين مع ذلك من طباع العاطفة؛ زد على ذلك أن الحدة تُنذر الحياء بالخطر فيدافعن عن أنفسهنّ.

عندما تتخذ حركة ما من الغَيرة أو الاستياء حالة من رباطة الجأش، يمكننا عامّة أن نشرع بأحاديث خاصة بتوليد هذه النشوة المفضّلة للحب، وإذًا، بعد المرحلتين أو الثلاث الأولى من العرض، لم نفوّت الفرصة لنقول بالضبط ما تقترحه النفس، سنمنح ملذات حيوية لمن نحب. خطأ معظم الرجال هو أنهم يريدون النجاح في قول شيء يجدونه جميلاً، وذكياً، ومؤثراً؛ بدلاً من أن يريحوا أنفسهم من تصنّع الناس، إلى تلك الدرجة من الحميمية والطبيعية للتعبير بسذاجة عمّا تشعر به في الوقت الحالي.

إذا كان لدينا هذه الشجاعة، فسنحصل على مكافأتنا من فورنا عن طريق نوع من التوفيق. إنّ هذه المكافأة السريعة بقدر ما هي غير إرادية للمتع التي نمنحها لمن نحبّه، هي التي تجعل هذا الشغف قوياً جداً على الآخرين.

إذا كانت هناك الطبيعية المثالية، يحدث الخلط بين سعادة شخصين. بسبب التعاطف وكثير من القوانين الأخرى لجبلّتنا، فهي ببساطة تامّة أعظم سعادة يمكن أن توجد.

لا شيء أقلّ سهولة من تحديد معنى هذه الكلمة «طبيعية» شرط ضروري للسعادة انطلاقاً من الحب.

ما يسمّى بالطبيعي هو ما لا يبتعد عن الأسلوب المعتاد في التصرّف. وغني عن القول إنه يجب ليس فقط ألا نكذب أبداً على من نحبّ، بل وحتّى ألاّ نُجمّل على الإطلاق وألا نشوّه نقاء سمة الحقيقة. لأنه إذا فعلنا سينصبّ الاهتمام على التجميل، ولم يعد يستجيب ببساطة مثل مفتاح البيانو إلى الشعور الذي يظهر في عيوننا. سرعان ما لاحظَت ذلك ممّا لا أعرف من أي برود تعاني، وبدورها تلجأ إلى التغنّج. ألا يمكن أن يكون هذا هو السبب الخفيّ هنا ممّا يجعل من المستحيل أن تحب امرأة ذات عقل أقل من اللازم! هذا لأنه يمكننا معها التظاهر بلا عقاب، ولمّا كان التظاهر أكثر راحة بسبب العادة فإننا ننغمس في فقدان ما هو طبيعي. ومذ ذاك لم يعد الحبّ حباً، ويسقط فيما هو مجرد صفقة عادية: الفرق الوحيد هو أنه بدلاً من المال نكسب المتعة أو الزهو، أو مزيجاً من الاثنين. ولكن من الصعب ألا نشعر بدرجة من الاحتقار للمرأة التي يمكننا أن ننافق عليها مع الإفلات من العقاب، ومن ثَمّ لا يحتاج الأمر في التخلّي عنها فجأة إلا إلى حظّ أفضل في هذا الصدد. يمكن للعادة أو العهود أن تبقى. ولكنّني أتحدّث عن ميل القلب، الذي طبيعته تقتضي أن يطير إلى أعظم متعة.

بالعودة إلى هذه الكلمة طبيعي، الطبيعي والاعتيادي شيئان. إذا أخذنا هاتين الكلمتين بذات المعنى، فمن الواضح أنه كلما زادت حساسية المرء، كان من الصعب أن يكون طبيعياً؛ لأن العادة تأثيرها أقلّ قوة على طريقة الوجود والتصرّف، وعند الرجل أكثر في كل ظرف. كل صفحات حياة شخص بارد هي نفسها؛ خذه اليوم وخذه أمس، دائماً ذات اليد الخشبية.

الرجل الحسّاس بمجرد أن لهف قلبه لم يعد يجد في نفسه آثاراً لعادة توجّه أفعاله؛ فكيف يمكنه اتّباع طريق لم يعد يشعر به؟

إنه يشعر بالثقل الهائل المرتبط بكل كلمة يقولها لمن يحبّ، ويبدو له أنّ الكلمة ستقرّر مصيره. كيف سيتمكّن من عدم السعي إلى القول الحسن؟ أو على الأقلّ كيف لن يشعر بأنه يحسن القول؟ لذلك لم يعد هناك صراحة. إذاً لا ينبغي للمرء أن يدّعي الصراحة، وهذه النوعية من النفس لا تعود بأي شيء على نفسها.

أعتقد أننا قد وصلنا إلى الدرجة الأخيرة من الطبيعي الذي يمكن أن يدعيه القلب الأكثر حساسية في الحبّ.

لا يمكن للرجل الشغوف إلا أن يعانق بحرارة، إذ إنّ منبعه الوحيد في العاصفة، العهد بأنه لن يغيّر أبداً الحقيقة بأيّ شكل من الأشكال وأن يقرأ قلبه بشكل صحيح؛ فإذا كانت المحادثة حيوية ومتقطعة، يمكنه أن يأمل بلحظات جميلة لما هو طبيعي، وإلا، فلن يكون طبيعياً تماماً إلا في الساعات التي يحبّ فيها بجنون أقل قليلاً.

بجانب ما نحبّه، يبقى، بصعوبة، الطبيعي في الحركات، التي تكون عاداتها مع ذلك متجذّرة بعمق في العضلات. عندما كنتُ أعطي ذراعي إلى ليونور، كان يبدو لي دائماً أنني على وشك السقوط وأفكّر في السير بشكل سليم. كل ما يمكننا فعله هو ألا نتصنّع طوعاً أبداً؛ يكفي الاقتناع بأن الافتقار إلى الطبيعي هو أكبر عيب ممكن ويمكن أن يكون بسهولة مصدر أكبر المصائب. فقلب المرأة التي تحبّها لم يعد يسمع قلبك، وتفقد أنت تلك الحركة العصبية واللاإرادية للصراحة التي تستجيب للصراحة. وهذا إضاعة كل الوسائل للمسها، قلتُ تقريباً عن الإغراء ليس الأمر أنني أدّعي إنكار أن المرأة الجديرة بالحبّ يمكن أن

ترى مصيرها في هذا الشعار الجميل للبلاب، الذي يموت إذا لم يتعلّق؛ إنه قانون الطبيعة، ولكنه دائماً خطوة حاسمة للسعادة، التي يخطوها الإنسان الذي نحبّه.

يبدو لي أن المرأة المنطقية لا يتحتم عليها أن تمنح كل شيء إلى عشيقها إلا عندما لم تعد تقوى على الدفاع عن نفسها، وأقلّ شكّ حول صدق قلبك سرعان ما يعطيها القليل من القوة على الأقل بما يكفي لتأخير هزيمتها ليوم آخر. هل من الضروري إضافة أنه، من أجل جعل كل هذا منتهى السخف، يكفي تطبيقه على حبّ الاستساغة؟

الفصل الثالث والثلاثون: قليل من الشك

الخوف له ملذاته.

دائماً القليل من الشكّ في التهدئة، وهذا ما يُحدث التعطّش في كل وقت، وهو ما يكوّن حياة الحب السعيد. ولمّا كان الخوف لا يتخلّى عنه أبداً، فإن ملذّاته لن تكون مملّة أبداً. إن طبيعة هذه السعادة، هي الجدية المتناهية.

الفصل الرابع والثلاثون: عن المسارّات

في الحرب ما هو عبثي بقدر ما هو قاس تسبّبه لنا الأحكام السالفة التي روّجها الطغاة عندنا، اخدمني اليوم، وغداً سيكون دوري.

ليس هناك غطرسة في العالم يعاقب عليها بسرعة أكبر من الغطرسة التي تجعلك تسرّ إلى صديق حميم بحب شغوف. إنه يعلم إذا كان ما تقوله صحيحاً أن لديك متعاً تفوق ألف مرة متعه التي تجعلك تحتقر متعه.

ما زال الأمر أسوأ بكثير بين النساء حيث إن ثروة حياتهن هي استيحاء عاطفة ما وعادة تكون المسارّة -أيضاً- قد كشفت لطفها في أنظار الحبيب.

من ناحية أخرى، لتنهش المرء هذه الحمى، ليس في عالم الحاجة الأخلاقية أكثر إلحاحاً من حاجة صديق أمامه يمكن للمرء أن يتفكّر في الشكوك الرهيبة التي تساور النفس في كل لحظة؛ لأنه في هذه العاطفة الرهيبة، دائماً الشيء المتخيَّل هو الشيء الموجود.

كتب في عام 1817: «إن وجود عيب كبير في شخصية سالفياتي، وفي ذلك مناقض كثيراً لعيب نابليون، وهو أنه عندما يصل في حديث عن مصالح الشغف، إلى إثبات شيء ما أخلاقياً، لا يمكنه أن يأخذ على عاتقه الانطلاق من هذه القاعدة كحقيقة ثابتة إلى الأبد؛ وعلى الرغم منه، ولتعاسته الكبيرة يزجّ به باستمرار في الحديث». وهذا لأنه من السهل أن يكون لدينا الشجاعة في الطموح. فالتبلور الذي لا تقوّضه الرغبة في الحصول على الشيء يستخدم في تعزيز الشجاعة؛ وفي حالة الحب إنه في خدمة الشيء الذي يجب أن يكون لدينا الشجاعة ضده.

يمكن للمرأة أن تجد صديقة خائنة، ويمكنها - أيضاً- أن تجد صديقة ملولة.

أميرة تبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، ملولة تلاحقها الحاجة إلى التصرّف، والتآمر، وما إلى ذلك، و.. إلخ. مستاءة من برود عشيقها، ومع ذلك، غير قادرة على الأمل في ولادة حب آخر ولا تعرف ما يجب القيام به مع النشاط الذي يستنفذها، وليس لها تسلية أخرى سوى نوبات الفكاهة السوداء، تستطيع بقوة بالفعل أن تجد انشغالاً، يعني متعة، وهدفاً في الحياة، في جعل العاطفة الحقيقية تعسة، عاطفة أن يكون لديها الغطرسة في الشعور بأنها واحدة أخرى غير ما هي عليه، بينما ينام عشيقها بجانبها. هذه هي الحالة الوحيدة التي يولِّد فيها الحقد السعادة؛ وهذا لأنه يوفّر الانشغال والعمل.

في اللحظات الأولى، من دواعي سروري القيام بشيء ما، بمجرد أن يشتبه المجتمع بالمشروع، فإن طفرة النجاح تعطي سحراً لهذا الانشغال. والغيرة بالنسبة للصديقة تتخذ قناع الحقد تجاه الحبيب؛ وإلا، فكيف يمكننا أن نكره سورة غضب إنسان لم نره قطّ؟ نحن لا نحرص على عدم الاعتراف بالحسد؛ لأننا يجب أن نعترف أولاً بالجدارة، ولدينا متملقون لا يدعمون أنفسهم في البلاط إلا من خلال تقديم أشياء سخيفة إلى العشيقة.

قد تعتقد بشدة كبيرة المُسرّ إليها الخائنة، وهي تسمح لنفسها بأفعال الديجور الأخير، أنها مدفوعة فقط بالرغبة في عدم فقدان أي صداقة ثمينة. وتقول المرأة الملولة لنفسها إن الصداقة نفسها تكمن في قلب ينهشه الحب وانشغالات البال القاتلة؛ إلى جانب الحب، لا يمكن للصداقة أن تدوم إلا بوساطة المسارّات. وعلى هذا، ما هو الأكثر مقتاً بسبب الحسد من هكذا مسارّات؟

الوحيدون الذين يتم استقبالهم استقبالاً جيداً بين النساء هم أولئك اللاتي ترافقهن صراحة هذا المنطق: صديقتي العزيزة، في الحرب ما هو عبثي بقدر ما هو قاسٍ تسبّبه لنا الأحكام السالفة التي روّجها الطغاة عندنا، اخدمني اليوم، وغداً سيكون دوري.

قبل هذا الاستثناء كان هناك استثناء الصداقة الحقيقية التي ولدت في مرحلة الطفولة ولم تفسدها أي غيرة منذ ذلك الحين.

لا يتم تقبّل المسارّات كثيراً في الحب الشغوف إلا بين تلاميذ المدارس المغرَمين بالحب، وبين الشابّات اللواتي ينهشهنّ الفضول، والرقة في استخدامها وربما قد دفعتهنّ غريزتهنّ التي تقول لهن إن هذه هي الصفقة الرابحة في حياتهن، التي لا يمكنهن الانشغال بها قبل الأوان.

رأى الجميع فتيات في الثالثة من العمر يقمن بواجبات التهذيب على أكمل وجه. فحب الاستساغة يتأجّج والحبّ الشغوف يبرد بالمسارّات.

إلى جانب الأخطار هناك صعوبة المسارّات. في حالة الحبّ الشغوف ما لا يمكننا أن نعبّر عنه (لأنّ اللغة غليظة على بلوغ هذه التباينات) لا يوجد أقلّ من ذلك؛ فقط لما كانت هذه أمور دقيقة جداً فنحن أكثر عرضة للخطأ في مراقبتها. والمراقب المتأثر جداً يراقب مراقبة سيّئة؛ ويكون ظالماً تجاه المصادفة.

ربما يكون الشيء الأكثر حكمة هو أن تجعل من نفسك المُسَرّ له الخاص بها. اكتب هذا المساء تحت أسماء مستعارة ولكن مع كل التفاصيل المميزة. الحوار الذي أجريتَه للتوّ مع صديقتك والصعوبة التي تربكك. وبعد ثمانية أيام إذا كنت تحمل الحب الشغوف فستكون

إنساناً آخر: فحينذاك عند قراءة الاستشارة، ستتمكن من إعطاء نفسك رأياً سديداً. بين الرجال، بمجرد أن يكون هناك أكثر من اثنين ويمكن أن يظهر الحسد، يجبرك التهذيب على عدم التحدّث إلا عن الحبّ الجسدي: فانظر إلى نهاية العشاء للرجال. فهذه قصائد ننشدها[1] وتجلب متعة لا محدودة؛ لأن كلّ واحد يأخذ حرفياً المديح ومن فورات حماسة جاره، الذي في أحيان كثيرة لا يريد سوى أن يظهر مرحاً أو مهذّباً. إنّ حالات تودّد بترارك الساحرة أو الغزليّات الفرنسية[2] قد تكون غير لائقة.

1- نشيدة: قصيدة تشتمل على أربعة عشر بيتاً، اخترعها شعراء بروفنسا أو إيطاليا في القرن الثالث عشر وانتقلت إلى فرنسا في القرن السادسَ عشرَ على يد كليمان مارو (المترجم).

2- غزلية: *في إيطاليا منذ القرن الرابع عشر: قصيدة غنائية لا تتعدى الاثني عشر بيتاً من البحر اليامبي تعبّر عن غزل رقيق في أسلوب ذكيّ مجازيّ. وقد انتشر هذا النوع من القصائد في كلّ أنحاء غرب أوربّا، وكثيراً ما كان يصاحبه الغناء الفردي أو الجماعي.

الفصل الخامس والثلاثون: عن الغَيرة

تفاهات خفيفة مثل الهواء تبدو لشخص غيور كأدلة قاطعة مثل تلك التي يستمدّها المرءُ من الإنجيل المقدّس.

عندما نحبّ مع كلّ شخص جديد يَلفت النظر أو الذاكرة وقد حُشر في منبر واهتمّ بالإصغاء إلى حديث غرف النوم أو بالذهاب بعجلة لتبديل مخفر أمامي تحت نيران العدوّ. نضيف دائماً إتقاناً جديداً إلى الفكرة التي أخذناها عن عشيقته أو نكتشف وسيلة جديدة تبدو ممتازة في البداية في الظهور بها أننا محبوبون أكثر من اللزوم.

يتم دفع كل خطوة من الخيال بلحظة من البهجة. لا عجب أن مثل هذه الطريقة في الوجود محبّبة.

في اللحظة التي تولد فيها الغَيرة، تبقى العادة نفسها للنفس، ولكن كي تحدث تأثيراً معاكساً. كل الاتقان الذي تضيفه إلى تاج الشخص الذي تحبّه، والذي ربما يحبّ شخصاً آخر غيرك بعيداً عن توفيره استمتاعاً رائعاً يتحوّل إلى خنجر في قلبك. صوت يصرخ لك: هذه المتعة المبهجة منافسك هو الذي سيستمتع بها.

والأشياء التي تشدّك، دون أن تولد التأثير الأول هذا، بدلاً من أن تظهر لك كما في الماضي وسيلة جديدة تجعلك تحبّ، تُريك ميزة جديدة للمنافس.

أنت تلتقي امرأة جميلة تدرب حصانها على العدوِ في المنتزه والمنافس مشهور بخيوله الجميلة التي تجعله يقطع العشرة آلاف في خمسين دقيقة. في هذه الحالة يولد الغضب بسهولة؛ ولم نعد نتذكّر إلا في الحب التملك لا يساوي شيئاً، والتمتع يساوي كل شيء؛ فنحن نبالغ

بسعادة المنافس، ونبالغ بالغطرسة التي تعطيها له هذه السعادة، ونصل إلى ذروة الاضطرابات أي إلى منتهى التعاسة الملوّثة أيضاً ببقية أمل.

قد يكون العلاج الوحيد هو مراقبة سعادة المنافس عن كثب. غالباً ما ستراه ينام بسلام في الصالون حيث توجد هذه المرأة التي مع كل قبّعة تشبه قبّعتها والتي تراها من بعيد في الشارع يتوقّف خفقان قلبك. هل تريد إيقاظه يكفي أن تظهر غَيرتك. وربما سيسرّك أن تعلمه بقيمة المرأة التي فضّلته عليك وسيدين لك بالحبّ الذي سيكنُّه لها.

فيما يتعلّق بالمنافس لم يعد يوجد حلّ وسط: فإنه يلزم إمّا المزاح معه بالطريقة الأكثر انفراجاً ما أمكن وإما إخافته.

كون الغَيرة أعظم الشرور سيجد المرء أن عرض حياته هو إلهاء ممتع. لأنه عندئذ لا يتم تسميم جميع أحلام اليقظة وتتحوّل إلى اللون الأسود بسبب الآلية المعروضة أعلاه؛ فيمكننا في بعض الأحيان أن نتخيّل أننا نقتل هذا المنافس.

وفقًا لهذا المبدأ فإنه يجب على المرء ألا يرسل أبداً قوّات إلى العدوّ فعليك إخفاء حبّك عن المنافس، وتحت ذريعة الزهو وبعيداً عن الحبّ قدر الإمكان، أخبره بسرّية تامّة وبكلّ أدب ممكن وبهيئة أكثر هدوءًا وبساطة: «سيّدي، أنا لا أعرف لماذا يرتئي الجمهور أن ينسبَ لي الصغيرة كهذه؛ فإننا نتكرّم حتى بالاعتقاد أنني مغروم بها؛ إن كنتَ تريدها أنت أتنازل لك عنها برحابة صدر. إذا كنتُ أعرّض نفسي للعب دور مثير للسخرية. وبعد ستة أشهر خذها طالما يعجبك هذا؛ لكن اليوم الشرف الذي لا أعلم لماذا نربطه بتلك الأشياء يجبرني على أن أخبرك مع أسفي الشديد، أنه إذا لم يكن لديك بالمصادفة حقّ انتظار أن يأتي دورك يجب أن يموت أحدنا».

بما أنه لا سلطة لنا عليك إلا من خلال إزاحتك من هذا الشيء أو جعلك تأمل في الأشياء التي يكون الشغف الوحيد بها يساوي كلّ المكافأة، وإذا تمكنت من جعل نفسك تعتقد أنك غير مبالٍ، فجأة لم يعد لدى منافسك أسلحة!

منافسك على الأرجح رجلٌ غيرُ شغوف وربّما رجلٌ حذرٌ جداً بمجرد أن يقتنع بعزمك سيسارع إلى التنازل عن المرأة المعنية إذا كان بإمكانه إيجاد ذريعة صادقة. لهذا السبب يجب عليك وضع بعض المرح في بيانك وتغطية العملية برمّتها بأقصى درجات السرية.

ما يجعل ألم الغَيرة حاداً جداً هو أن الزهو لا يمكن أن يساعد في تحمّلها وبالطريقة التي أتحدّث بها عن الزهو، فزهوك له ما يغذّيه. يمكنك أن تعتبر نفسك شجاعاً، إذا أُكرهتَ على احتقار نفسك كشخص محبوب.

إذا فضّلنا عدم أخذ الأشياء بشكل مأساوي، فلابدّ من السفر، والذهاب إلى أربعين مكاناً من هنا، والتحدّث عن راقصة يبدو أن سحرها يوقفك أثناء مرورك.

طالما أن المنافس لديه باعث مشترك، فإنه يظنّك مواسيًا.

في كثير من الأحيان يكون أفضل رهان هو الانتظار دون أن يرفّ لنا جَفن أن المنافس يضنى بالقرب من المحبوبة بسبب غبائه. لأنه ما لم يكن هناك شغف كبير تم اكتسابه شيئاً فشيئاً وفي مرحلة الشباب الأولى، فإن المرأة الذكية لا تحبّ الرجل العادي مدة طويلة. في حالة الغَيرة بعد العَلاقة الحميمة، ما يزال هناك حاجة لأن يكون هناك عدم مبالاة وعدم ثبات حقيقي؛ لأن كثير من النساء اللاتي يسيء إليهنّ محبوب ما زلن يحببنه يصبحن مرتبطات بالرجل الذي يظهر الغَيرة وتصبح اللعبة حقيقة.

دخلتُ في بعض التفاصيل؛ لأنه في لحظات الغَيرة هذه نفقد صوابنا عادةً؛ نصائح مكتوبة منذ زمن طويل بشكل صائب للغاية والشيء الرئيس هو التظاهر بالهدوء، فمن المناسب أن تتخذ الأسلوب في الكتابة الفلسفية.

إذا لم يكن لدينا عمل نقوم به ونحن نستطيع الاستمتاع بالبحث عن الراحة فسنجد بعض المتعة في قراءة عطيل؛ فهو سيثير الشبهة حول بعض المظاهر الأكثر إقناعاً. سنمعن النظر بمتعة في هذه الكلمات:

تفاهات خفيفة مثل الهواء

تبدو لشخص غيور كأدلة قاطعة

مثل تلك التي يستمدّها المرءُ من الإنجيل المقدّس.

عطيل، الفصل الثالث.

لقد أحسستُ أنّ منظر بحر جميل هو عزاء. الصباح الذي كان هادئاً ومشرقاً، أعطى تأثيراً لطيفاً لمنظر الجبل الضائع الذي شوهد من القلعة عند النظر إلى اليابسة والمحيط المجيد المليء بآلاف الموجات الفضية المتموجة التي امتدّت على الجانب الآخر المهيب حتى عظمة الرضا عن حافّة الأفق. مع هذه المشاهد من الهدوء الساكن. يتعاطف قلب الإنسان حتى في أكثر حالاته المزعجة وتستلهم أعمال الشرف والفضيلة من تأثيرها المهيب. [عروس لامرمور، المجلد الأول، صفحة 193]

عثرت على شيء كتبه سالفياتي: «20 تموز (يوليو) 1818. غالباً ما أطبق، كما أظنّ، بشكل غير معقول على مدى الحياة شعوراً بأنّ شخصاً طموحاً أو مواطناً صالحاً يعاني أثناء معركة، إذا وجد نفسه مستَخدَماً في الحفاظ على الحديقة كاحتياطي أو في أي وظيفة أخرى دون خطر

ودون فعل. كنت سأندم على أربعين عاماً بعد أن تجاوزت سنّ الحبّ دون شغف عميق. كنت سأشعر بهذا الاستياء المرير والمهين، حينما أدرك بعد فوات الأوان أنني خُدعت في ترك الحياة تمرّ دون أن أحياها.

«أمضيت ثلاث ساعات أمس مع المرأة التي أحبّها ومع منافس تريد أن توهمني بحسن معاملتها. بلا شكّ كانت هناك لحظات من المرارة في مراقبة عينيها الجميلتين المثبتتين عليه وعند مغادرتي منزلها تنتابني سورات شديدة من ويلات الأمل القصوى. ولكن يا لَلأشياء الجديدة! ويا لَلأفكار الحية! ويا لَلاستقراءات السريعة! وعلى الرغم من السعادة الظاهرة للمنافس، بأيّ كبرياء وأيّ متع كان حبّي يشعر أنه يتفوّق على حبّه! قلت لنفسي: هاتان الوجنتان ستبدوان شاحبتين مع الخوف الأكثر سفالة عند أصغر التضحيات التي سيقدمها حبّي أثناء اللعب كما أقول بسعادة؛ على سبيل المثال وضع يدي في القبّعة لسحب إحدى هاتين التذكرتين: أن أكون محبوباً منها والأخرى أن أموت من فوري؛ وهذا الشعور على قدم المساواة عندي، لدرجة أنه لم يمنعني بتاتاً من أن أكون لطيفاً في الحديث. لو قيل لي ذلك قبل عامين، لكنت سخرتُ من نفسي».

قرأتُ في رحلة القبطانين لويس وكلارك التي قاما بها في منابع ميسوري عام 1806 في الصفحة 215:

«أفراد قبيلة ريكاراس فقراء لكنهم طيبون وأسخياء؛ عشنا طويلاً بما فيه الكفاية في ثلاث من قراهم. زوجاتهم أجمل من زوجات أي قبيلة أخرى صادفناها؛ هم - أيضاً- على استعداد تامّ لعدم جعل محبيهنّ يسقمون من الحبّ. وجدنا مثالاً جديداً على هذه الحقيقة، وهو أنه يكفيك أن تجوب العالم لترى أنّ كل شيء متغيّر. وسط قبيلة ريكاراس

إنها خطيئة كبيرة إذا قامت المرأة من دون موافقة زوجها أو شقيقها، بوهب جسدها. ولكن مع ذلك فإنّ الأشقاء والأزواج يكونون سعداء للغاية بحصولهم على فرصة القيام بهذه المجاملة الصغيرة لأصدقائهم.

كان لدينا زنجي بين شعبنا؛ أحدث وقعاً كبيراً بين الناس الذين كانوا أول مرة يرون رجلاً من هذا اللون. وسرعان ما كان المفضّل لدى الجنس اللطيف، وبدلاً من أن يشعروا بالغَيرة منه رأينا الأزواج سعداء برؤيته قادماً إلى بيوتهم. الشيء المضحك هو أنه في داخل هذه الأكواخ الضيقة، كل شيء مرئي».

الفصل السادس والثلاثون: تتمة عن الغَيرة

إنها ستتركك لأنها واثقة منك كثيراً. لقد قتلتَ الخوف ولم يعد من الممكن أن تتولد شكوك صغيرة عن الحبّ السعيد.

أما المرأة المشتبه في أنها متقلّبة فهي تتخلّى عنك لأنك تثبّط عزيمة التبلور وقد يكون لك في قلبها دعم بحكم العادة. إنها ستتركك لأنها واثقة منك كثيراً. لقد قتلتَ الخوف ولم يعد من الممكن أن تتولد شكوك صغيرة عن الحبّ السعيد؛ فأقلِقْها وبالأخصّ احذر من عبثية الاحتجاجات.

في المدة الطويلة التي عشتَها معها ستكتشف بلا شكّ ما المرأة في المدينة أو المجتمع التي تشعر هي بالغيرة منها وتخشى منها أكثر من غيرها. طارح هذه المرأة الحب؛ ولكن بعيداً جداً عن إظهار غزلك للملأ. اسعَ إلى إخفائه وابحث عن هذا بحسن نية؛ ثق بهذا في عيون الكراهية لرؤية كل شيء والشعور بكل شيء. القطيعة العميقة لجميع النساء[1] التي ستعاني منها عدة أشهر لا بدّ أن تجعل هذا الأمر سهلاً عليك. تذكّر أننا في الوضع الذي أنت فيه نفسد كل شيء بسبب مظهر العاطفة؛ زر قليلاً المرأة المحبوبة، واشرب الشمبانيا مع صحبة حسنة السيرة.

للحكم على حبّ عشيقتك، تذكّر:

1. أنه كلما زاد دخول المتعة الجسدية في أساس الحب في ما كانت تحدّده في السابق الحميمية كان أكثر عرضة للتقلّب ولا سيّما للخيانة. ينطبق هذا خاصةً على الحبّ الذي يُلائم تبلوره عزّ الشباب في سنّ السادسة عشرة.

1- قارنّا فرع الشجرة المزيّن بالماس بفرع الشجرة العاري من الأوراق، والتباين يجعل الذكريات أكثر حيوية.

2. حبّ شخصين يحبّ بعضهما بعضاً ليس هو ذاته تقريباً أبداً. فالحب الشغوف له مراحله التي أثناءها بالتناوب يحبّ أحدهما أكثر. غالباً ما يستجيب الغزل البسيط أو حبّ الزهو إلى الحبّ الشغوف وبالأحرى المرأة هي التي تحبّ بحماسة. مهما كان الحبّ الذي يشعر به أحد العاشقين بمجرد أن يكون غيوراً يقتضي أنّ الآخر يفي بشروط الحبّ الشغوف؛ فالزهو يتظاهر داخله بجميع احتياجات القلب الرقيق. وأخيراً، لا شيء يُضجر حبّ الاستساغة مثل الحبّ الشغوف في شريكه.

في كثيرٍ من الأحيان رجل الفكر، بتودّده لامرأة لا يحقّق سوى أنه يجعلها تفكّر في الحبّ ويليّن نفسها. ترحبّ كثيراً بهذا الرجل الذكي الذي يمنحها هذه المتعة. فيحصل على بعض الآمال.

وذات يوم ستلتقي هذه المرأة بالرجل الذي يجعلها تشعر بما وصفه الآخر.

لا أدري ما آثار غيرة الرجل على قلب المرأة التي يحبّها. ومن جانب عاشق ممل لا بد للغَيرة أن تثير اشمئزازاً كلّياً يصل إلى حدّ الكراهية إذا كان الشخص المثير للغَيرة محبوباً أكثر من الغيور؛ لأننا لا نرغب في الغَيرة إلا من أولئك الذين يمكن أن نغار منهم، وهذا ما كانت تقوله مدام دو كولانج

إذا كنّا نحبّ الغيور وليس له الحق يمكن للغَيرة أن تصدم هذا الكبرياء الأنثوي العصيّ جداً على المسايرة والتعرّف عليه. يمكن للغَيرة أن تروق للنساء الفخورات كطريقة جديدة لإظهار سلطتهن.

يمكن للغَيرة أن ترضي كطريقة جديدة لإثبات الحب. يمكن أن تثير الغَيرة حياء امرأة بالغة الحساسية. يمكن للغَيرة أن ترضي كذلك

كمُظهِر لشجاعة الحبيب. لاحظ جيداً أنّ الشجاعة هي ما نحبّ وليس الشجاعة على الطريقة التورينية التي يمكن أن تنسجم بقوة كبيرة مع قلب بارد.

إحدى نتائج مبدأ التبلور هي أنه يجب على المرأة ألاّ تقول نعم للحبيب الذي خدعته إذا أرادت يوماً فعل شيء بهذا الرجل.

هذا من دواعي سروري أن أستمرَّ في الاستمتاع بهذه الصورة المثالية التي كوّناها عن الشخص الذي يشغلنا والتي قادتنا إلى هذه الـ نعم المشؤومة.

سوف نبحث بعيداً جداً، أفضل من أن نموت،
ذريعة رحيمة لنعيش ونتألم.

أندريه شينييه

نحن نعرف في فرنسا حكاية مادموازيل سومّيري التي قد ضُبطت بالجرم المشهود من قبل عشيقها حيث أنكرت له الفعلة بوقاحة، حينما صرخ الآخر: «آه! أنا أرى بوضوح تام». قالت له: «إنك لم تعد تحبّني فأنت تصدق ما تراه أكثر ممّا أقول لك».

للتصالح مع عشيقة تعبدها وخانتك فهذا لأنها كرّست نفسها لتقويض تبلور لا يتوقّف تكونه بطعنات من الخنجر. ولا بدّ للحب أن يموت وسوف يشعر قلبك مع تمزقات رهيبة بكل خطوات احتضاره. إنها واحدة من أكثر الحالات التعسة لهذا الشغف والحياة: يجب على المرء أن يمتلك القوة بعدم التصالح إلا كصديق.

الفصل السابع والثلاثون: الاعتراف بالغيرة

لا تجرؤ النساء المسكينات على الاعتراف بأنهن تعرضن لهذا التعذيب القاسي، طالما يجعلهن هذا الأمر مثاراً للسخرية للغاية. ولا بدّ ألا يندمل هذا الجرح المؤلم أبداً.

أما الغيرة عند النساء فهذا لأنهّن قليلات الثقة، فيجازفن مجازفة لا محدودة أكثر منا، وكلما ضحين بالحب قلّت لديهن وسائل التسلية وقلّت أكثر بشكل خاص وسائل التحقق من أفعال العشيق. تشعر المرأة بالحطّ من قدرها بسبب الغَيرة؛ فهي تظنّ نفسها أضحوكة بيد عشيقها وأنه يسخر خاصةً من أكثر اندفاعاتها رقة؛ وعليها أن تميل إلى القسوة بيد أنها لا تستطيع قتل منافستها بموجب القانون.

عند النساء لا بد للغيرة إذاً أن تكون شراً بغيضاً أيضاً إن أمكن أكثر منها عند الرجال. إنها كل ما يستطيع قلب الإنسان تحمله من غضب عاجز وازدراء ذاتي دون أن يتحطّم.

لا أعرف دواءً آخر لألم فظيع لهذه الدرجة سوى موت من يلهمه أو من يعاني منه. يمكننا رؤية الغيرة الفرنسية في قصة مدام دو لابومّيري لجاك لو فاتاليست.

يقول لاروشفوكولد: «نحن نخجل من الاعتراف بأننا نشعر بالغَيرة ونتظاهر بشرف أنّنا نمتلكها وأن نكون قادرين على امتلاكها». لا تجرؤ النساء المسكينات على الاعتراف بأنهن تعرضن لهذا التعذيب القاسي، طالما يجعلهن هذا الأمر مثاراً للسخرية للغاية. ولا بدّ ألا يندمل هذا الجرح المؤلم أبداً.

إذا كان الباعث البارد قد يعرض نفسه لنار الخيال بظل مظهر النجاح فأود أن أقول للنساء المسكينات غير السعيدات بالغيرة: «هناك بونٌ شاسعٌ بين الخيانة عند الرجال وعندكن. فعندكن هذا الفعل هو عمل مباشر جزئياً ومؤشر جزئياً. انطلاقا من تأثير تعليم مدرستنا العسكرية إنها لا تؤشّر على شيء عند الرجل. وانطلاقاً من تأثير الحياء فهي -في المقابل- الأكثر حسماً من جميع علامات الإخلاص عند النساء. فالعادة السيئة تجعلها ضرورة للرجال، فأثناء مرحلة الشباب الأولى مثال على ما يسمّى الكبار في المدرسة بحيث أنها فعل نضع فيه كل زهوّنا، وكل ما يثبت جدارتنا في عدد النجاحات من هذا النوع. فتربيتك تفعل عندك فعلاً بالاتجاه المعاكس».

أما قيمة الفعل كمؤشر: -ففي نوبة الغضب أقلب الطاولة على قدم جاري؛ وذلك يسبّب له ألماً شديداً، ولكن يمكن تسوية الوضع بشكل كبير، أو أن أقوم بحركة تهينه.

الفرق في الخيانة بين الجنسين حقيقي للغاية لدرجة أنه يمكن للمرأة الشغوفة أن تغفر الخيانة وهو أمر مستحيل للرجل.

هذه هي تجربة حاسمة للتفريق بين الحبّ الشغوف والحبّ المتغطرس فعند النساء، تقتل الخيانة ت قريباً الأول وتفاقم الآخر.

تخفي النساء الفخورات غيرتهنّ بالكبرياء. يقضين أمسياتٍ طويلةً وصامتة وباردة مع هذا الرجل الذي يعشقنه والذي يخفن أن يخسرنه والذي يرون أنفسهن غير محبوبات في نظره. ولا بدّ أن يكون هذا أحد أكبر عذاباتهنّ المحتملة وأحد المصادر - أيضاً- الحافلة أكثر بالتعاسة في الحب. لشفاء هؤلاء النساء الجديرات للغاية بكل احترامنا يجب أن يكون في الرجل مسعى استثنائي وقوي وخاصة ألا يبدو أنه يرى ما يحدث: على سبيل المثال رحلة طويلة معهنّ يتم الإقدام عليها في أربع وعشرين ساعة.

الفصل الثامن والثلاثون: عن التباهي بالاعتزاز بالنفس

الحبّ عن طريق التباهي يمرّ في لحظة، بعكس الحب الشغوف.

التباهي هو نزوة من الزهو: لا أريد أن يتغلّب خصمي عليّ وأنا آخذ هذا الخصم بالذات حكَماً على جدارتي. أريد أن أؤثر في قلبه. ولهذا السبب نذهب إلى أبعد بكثير ممّا هو معقول. في بعض الأحيان لتبرير تهوّره الخاصّ به نصل إلى حدّ القول لأنفسنا أنّ هذا المنافس يدعي الاحتيال علينا.

التباهي كونه مرض الشرف هو أكثر تواتراً في المَلَكيات ولا ينبغي أن يظهر إلا نادراً في البلدان التي تسود فيها عادة تقدير الأفعال حسب درجة فائدتها. في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال.

كل إنسان وأيّ فرنسي أكثر من أيّ أحد آخر يكره أن يُعدّ مغبوناً؛ لكن طيش الشخصية الملكية الفرنسية القديمة كان يمنع التباهي من إحداث دمار كبير في غير المغازلة أو حبّ الاستساغة. وكان التباهي لا يولّد بعض الفظاعات الملحوظة إلا في المَلَكيات حيث بسبب المناخ تكون الشخصية أكثر سوداوية (البرتغال، لو بييمونت).

يجعل سكّان المقاطعات في فرنسا أنفسهم نموذجاً مثيراً للسخرية لما يجب أن يكون عليه اعتبار الرجل الشهم في المجتمع. فضلاً عن ذلك يتحينون الفرصة ويكونون هنا طيلة حياتهم يراقبون إذا لم يتخذ أحد قراراً خطيراً. وهكذا من الطبيعي أكثر أن يكونوا متباهين دائماً وهذا الهوس يجعل حتى حبّهم مثاراً للسخرية. وهذا إضافة إلى الحسد ما يجعل الإقامة في المدن الصغيرة لا تطاق وهذا ما يجب أن يقوله المرء لنفسه عندما يُعجب بالحالة الجمالية لإحداها. إن العواطف التي

هي أكثر نبلاً وأكثر شرفاً مشلولة بسبب احتكاكها بأحطّ ما هو موجود في منتجات الحضارة. وكي ينتهوا من جعل أنفسهم فظيعين لا يتحدّث هؤلاء البرجوازيون إلا عن فساد المدن الكبرى.

لا يمكن للتباهي أن يكون موجوداً في الحبّ الشغوف فهو من الكبرياء الأنثوي: «إذا سمحتُ بمعاملتي بقسوة من قبل حبيبي فسيحتقرني ولن يكون قادراً على أن يحبّني بعد الآن»؛ أو هو الغَيرة بكلّ حالات جنونها.

الغَيرة تبتغي موت الشخص الذي تخشاه. الرجل المتباهي بعيد عن هذا كلَّ البعد، فهو يريد أن يبقى عدوه على قيد الحياة وأن يكون خاصة شاهداً على انتصاره.

يشقّ على الرجل المتباهي أن يرى منافسه يتخلّى عن المنافسة؛ لأن هذا الرجل قد يكون لديه الوقاحة ليقول لنفسه في صميم قلبه: لو كنت قد استمررت في إشغال نفسي بهذا الكائن، لكنت تغلبت عليه.

في التباهي، نحن لا نكترث للهدف الظاهر على الإطلاق، فلا يتعلّق الأمر إلا بالنصر. هذا ما نراه بوضوح في حالات الحبّ لفتيات الأوبرا؛ إذا أقصيتَ المنافس، فإنّ الشغف المزعوم، الذي كان يذهب إلى حدّ رمي نفسه من النافذة، يفشل من فوره.

الحبّ عن طريق التباهي يمرّ في لحظة، بعكس الحب الشغوف. يكفي أن يعترف الخصم، في مسعى لا يقبل الجدل، بالتخلّي عن الصراع. ومع ذلك، أتردّدُ في تقديم قاعدة السلوك هذه، وليس لدي سوى مثال واحد يثير شكوكي. هذه هي الحقيقة، وسيحكم القارئ.

دونا ديانا هي فتاة شابّة في الثالثة والعشرين من عمرها وهي ابنة واحد من أثرى الأثرياء وأكثر برجوازيّ إشبيلية اعتزازاً. إنها جميلة

بلا شكّ ولكن بجمال ملحوظ وتتمتّع بذكاء لا محدود وبمزيد من الكبرياء. كانت تحبّ بشغف على الأقل في المظهر ضابطاً شابّاً لا تريده عائلتها. غادر الضابط إلى أمريكا مع موريلو؛ فكانا يتراسلان بلا انقطاع. وذات يوم في منزل والدة دونا ديانا وسط الكثير من الناس أعلن أحمق عن وفاة هذا الشابّ المحبوب. تحوّلت كلّ الأنظار إليها، ولم تقل سوى هذه الكلمات: خسارة، هذا الشابّ الذي في ريعان الصبا! وكنّا قرأنا بالضبط، في ذلك اليوم، مسرحية للعجوز ماسينجر تنتهي بطريقة مأساوية، ولكن التي تتلقّى البطلة فيها بكلّ هذا الهدوء الظاهر وفاة عشيقها. كنتُ أرى الأم ترتعش رغم كبريائها وكراهيتها؛ فخرج الأب لإخفاء فرحته. في خضم كل هذا والمتفرجين المحظورين وعيونهم المسلّطة على الراوي الأحمق كانت دونا ديانا، الوحيدة الهادئة حيث تابعت الحديث وكأن شيئاً لم يكن. أمرت أمها الخائفة خادمتها بمراقبتها لم يبدُ شيء تغيّر في طريقة وجودها.

بعد عامين من ذلك قام شابّ وسيمّ جداً بطلب ودها. وهذه المرة أيضاً وللسبب نفسه دائماً؛ لأنّ الخاطب لم يكن من الأشراف، عارض والدا دونا ديانا هذا الزواج بعنف؛ فأعلنت أنه سيتم. ونشأ تباه بالاعتزاز بالنفس بين الفتاة الشابّة وأبيها. فمُنع الشاب من دخول المنزل. ولم تعد تُصطحب دونا ديانا إلى الريف ولا إلى الكنيسة أيضاً تقريباً؛ وبعناية مطلوبة جُرّدت من كل الوسائل الممكنة في مقابلة عشيقها. فيتنكر ويراها سراً على مراحل طويلة. فتعاند أكثر فأكثر وترفض أكثر العرسان شهرة، وحتى لقب ومؤسسة كبيرة في بلاط فرديناند السابع. تتحدّث المدينة كلّها عن تعاسات هذين العاشقين وصمودهما البطولي. وأخيراً، تتقدّم غالبية دونا ديانا؛ وتُفهم أباها أنها ستتمتّع بحقّ تقرير مصيرها.

بدأت العائلة، وقد أُكرهت، في آخر معاقلها بمفاوضات الزواج؛ وعندما خلص الأمر إلى شبه اتفاق في اجتماع رسمي للعائلتين، بعد ستّ سنوات من الثبات رفض الشابّ دونا ديانا.

بعد ربع ساعة من ذلك لم يعد يظهر هناك. كان ألمها خفيفاً؛ هل كانت تحبّ بالتباهي؟ أم هي نفس كبيرة تكره أن تعرض نفسها بألمها كمشهد للعالم؟

في كثير من الأحيان على ما أظنّ لا يمكن أن يصل الحبّ الشغوف إلى السعادة إلا من طريق ولادة التباهي بالاعتزاز بالنفس؛ عندها يحصل في المظهر على كلّ ما يمكن أن يرغب فيه وستكون شكاواه سخيفة وستبدو جنونية؛ لا يستطيع أن يعترف بتعاسته. ومع ذلك فإنّ هذه التعاسة يلمسها ويتحقّق منها تحقّقا متواصلاً؛ تتشابك براهينه إذا جاز لي أن أقول ذلك مع أكثر الظروف إغراء والأكثر جاهزية لتقديم أوهام ساحرة. تأتي هذه التعاسة لتظهر وجهها البشع في أكثر اللحظات رقة كما لو أنها تتحدّى العاشق وتجعله يشعر في آن واحد بكل السعادة بأن يكون محبوباً من شخص ساحر وغير حسّاس يضمّه بين ذراعيه وبأنّ هذه السعادة لن تكون سعادته أبداً. ربّما بعد الغَيرة تأتي التعاسة الأفظع.

ما زلنا نتذكّر في مدينة كبيرة رجلاً لطيفاً ورقيقاً يوجّهه غضبًا من هذا النوع لقتل عشيقته التي لم تكن تحبّه إلا بسبب التباهي على أخته. ذات مساء دعاها للذهاب في رحلة بحرية وحدهما في زورق جميل أعدّه بنفسه؛ وحين وصل إلى عرض البحر لمس نابضاً فانفتح القارب واختفى إلى الأبد.

رأيت رجلاً يبلغ من العمر ستين عاماً يأخذ بالإنفاق على الممثّلة الأكثر نزوة والأكثر جنوناً والأكثر أنساً والأكثر إدهاشاً في مسرح لندن

مس كورنيل. كان يُقال له: «وهل تطمع أن تكون مخلصة لك؟ ـ على الإطلاق؛ فقط أنها ستحبني، وربّما بجنون».

وقد أحبّته مدة عام كامل، وغالباً ما جنّت بهذا الحب وذهبت إلى ما يصل إلى ثلاثة أشهر متتالية دون أن تعزو إليه سبباً للشكوى. فقد أقام تباهيًا باعتزاز بالنفس مذهل من نواحٍ كثيرة بين عشيقته وابنته.

ينتصر التباهي في حبّ الاستساغة الذي يصنع مصيره. إنّ التجربة هي التي يمكننا انطلاقًا منها التفريق بين حبّ الاستساغة وبين الحبّ الشغوف. إنها مقولة حرب قديمة نقولها للشباب عندما يصلون إلى الفوج إنه إذا كان لدى المرء بطاقة إسكان في منزل توجد فيه شقيقتان ويريد أن يحبّ إحداهما عليه أن يغازل الأخرى. لدى معظم الشابّات الإسبانيات اللواتي يمارسن الحبّ إذا كنت تريد أن تكون محبوباً، يكفي أن تظهر بحُسن نية وبتواضع أنه ليس لديك شيء في قلبك تجاه عشيقة المنزل. لقد استخلصتُ هذه الحكمة المفيدة من الجنرال لاسال الودود. هذه هي أخطر طريقة للهجوم على الحبّ الشغوف.

التباهي بالاعتزاز بالنفس هو الرابط بين أسعد الزيجات بعد تلك التي تكوّنت من الحب. يضمن كثير من الأزواج لأنفسهم حبَّ زوجاتهم سنوات طويلة باتخاذهم عشيقة صغيرة بعد شهرين من الزواج. نحن نخلق عادة عدم التفكير هذه إلا في رجل واحد والروابط الأسرية تجعلها لا تقهر.

إذا رأينا في القرن وفي بلاط لويس الخامس عشر سيدة عظيمة (مدام دو شوازو) تعشق زوجها فذلك لأنه كان يبدو أنه مهتمّ بشدة بأخته دوقة غرامونت. العشيقة الأكثر إهمالاً ما إن تُرينا أنها تفضل رجلاً آخر حتى تقضّ مضجعنا وتلقي في قلوبنا كلّ مظاهر العاطفة.

إن شجاعة الإيطالي هي سورة غضب، وشجاعة الألماني لحظة نشوة، وشجاعة الإسباني سمة كبرياء. إذا كانت هناك أمّة تكون فيها الشجاعة في الغالب بمثابة تباهٍ بالاعتزاز بالنفس بين جنود كلّ سريّة بين أفواج كل فرقة في الهزيمة لمّا كان لم يعد هناك نقطة ارتكاز، فلن يعرف المرء كيف يوقف جيوش هذه الأمة. إن توقّع الخطر والسعي لدرئه قد يكون من أول الأشياء السخيفة وسط هؤلاء الهاربين المزهوّين.

يقول أحد الفلاسفة الفرنسيين الذين هم أكثر ظرفاً: «لا يلزم المرء إلا فتح أيّ علاقة كانت لرحلة إلى المتوحّشين في أمريكا الشمالية لكي يعرف أن المصير العادي لأسرى الحرب هو ليس فقط أن يُحرقوا أحياءً، ويُؤكلوا بل أن يكونوا مقيدين قبلاً إلى عمود بالقرب من محرقة مشتعلة ليُعذَّبوا هناك عدة ساعات بكل ما يمكن للهياج أن يتخيّله من الأكثر شراسة والأكثر تفناً. يجب قراءة ما يرويه المسافرون عن هذه المشاهد المروّعة الشهود الحاضرون على فرحة آكل لحم البشر وخاصة هيجان النساء والأطفال ومتعتهم الفظيعة في التنافس في القسوة. عليك أن ترى ما يضيفونه من الثبات البطولي، ورباطة الجأش التي لا يمكن تغييرها لدى الأسير، الذي لا يعطي أي علامة على الألم فحسب، بل يتجاسر على جلاديه ويتحداهم بكل ما للكبرياء من زهو أكثر. والمفارقة الأكثر مرارة، والسخرية الأكثر إهانة؛ في إنشاده مآثره الخاصة وتعداده أقارب وأصدقاء المتفرجين الذين قتلهم، وعرضه تفاصيل التعذيب الذي أذاقهم إياه واتهامه كل أولئك الذين يحيطون به بالجبن والخوف والجهل في معرفة كيفية التعذيب؛ إلى أن يلفظ النفس الأخير لصوته ومسبّته الأخيرة مع حياته. وقد سقط إلى أشلاء والتُهمَ حياً أمام عينيه من قبل أعدائه المنتشين بالهيجان. كل هذا سيكون لا

يصدق عند الأمم المتحضّرة، وسيبدو خرافة في نظر قادتنا رماة القنابل الأكثر جرأة وسوف يتمّ إبطاله ذات يوم من قبل الأجيال القادمة».

تعود هذه الظاهرة الفسيولوجية إلى حالة معيّنة من الأسير نفسه الذي يقيم بينه من جهة، وبين جميع جلاديه من جهة أخرى، صراعاً على الاعتزاز بالذات، ورهاناً من الزهو الذي لن يتخلّى عنه.

لاحظ جرّاحونا العسكريون الشجعان في كثير من الأحيان أن الجرحى الذين في حالة ذهنية وإحساس هادئَين، أطلقوا صرخات بصوت عالٍ أثناء عمليات معينة لا يُظهرون في المقابل إلا الهدوء وعظمة النفس إذا كانوا مستعدين بطريقة أو بأخرى. إن الأمر مسألة تباهٍ بالشرف فمن الضروري التظاهر في البداية بحرص ثم بتناقض مزعج أنهم ليسوا في وضع يسمح لهم بتحمّل العملية دون أن يصرخوا.

الفصل التاسع والثلاثون: عن الحبّ ذي المشاجرات

لكي يستطيع الشغف العيش، لا بدّ للشخص الأدنى أن يسيء معاملة شريكه وإلا فلن يتمكّن الأخير من إغلاق النافذة دون أن يعتقد الآخر أنه أُهين.

هناك نوعان من هذا الأمر:

1. نوع يكون فيه مفتعِل الشجار يحبّ؛
2. ونوع لا يكون فيه يحبّ.

إذا كان أحد العاشقين متفوّقاً جداً في المزايا التي يقدّرها كلاهما، فلا بدّ أن يموت حبّ الآخر لأن الخوف من الاحتقار سيوقف التبلور تماماً عاجلاً أم آجلاً.

لا شيء بغيض في نظر الناس العاديين مثل تفوّق العقل: هذا هو مصدر الكراهية في عالمنا اليوم؛ وإذا لم نكن ندين بالكراهية الشديدة لهذا المبدأ فهذا فقط لأن الأشخاص المنفصلين عنه غير ملزمين بالعيش معاً. ماذا سيكون عن الحبّ حيث إن كل شيء طبيعي، وخاصة من جانب الشخص المتفوّق ولا يتقنّع التفوّق بأيّ عناية اجتماعية؟

لكي يستطيع الشغف العيش لا بدّ للشخص الأدنى أن يسيء معاملة شريكه، وإلا فلن يتمكّن الأخير من إغلاق النافذة دون أن يعتقد الآخر أنه أُهين.

أمّا الكائن المتفوق فهو يغترّ والحبّ الذي يشعر به لا يكون في خطر بل تقريباً كل نقاط الضعف فيمن نحبّه تجعله الأغلى على قلبنا أكثر.

مباشرة بعد الحبّ الشغوف والمُعامَل بالمثل بين الناس الذين من قدرة عقلية واحدة لا بدّ أن نضعَ الحبّ ذا المشاجرات في المدة التي لا يكون فيها مفتعِل الشجار يحبّ. وسنجد أمثلة على ذلك في الحكايات المتعلّقة بدوقة بيرّي (مذكّرات ديكلوس). مساهماً في طبيعة العادات الفاترة القائمة على الجانب المبتذل والأناني للحياة والشريكات اللواتي لا يفارقن الرجل إلا إلى القبر، يمكن أن يستمرّ هذا الحبّ مدة أطول من الحبّ الشغوف بحدّ ذاته. لكن هذا لم يعد حباً إنها عادة يجلبها الحبّ وليس فيها من هذه العاطفة سوى الذكريات والمتعة الجسدية. وهذه العادة تفترض بالضرورة نفوساً أقل نبلاً. فكلّ يوم هناك دراما صغيرة. «هل سيوبخني؟» التي تشغل الخيال، كما في الحبّ الشغوف كلّ يوم كنّا نحتاج إلى دليل جديد على الحنان. انظر إلى الحكايات حول مدام دو هوديتوت وسان لامبير.

من الممكن أن يرفض الكبرياء التعوّد على هذا النوع من الاهتمام؛ لذا وبعد بضعة أشهر من العواصف يقتل الكبرياء الحبّ. لكننا نرى هذا الشغف النبيل يقاوم مدة طويلة قبل أن يتلاشى. إن المشاجرات الصغيرة في الحب السعيد تخدع طويلاً قلباً ما يزال يحبّ ويرى نفسه يتعرّض لسوء المعاملة. يمكن لبعض المصالحات اللطيفة أن تجعل الانتقال أكثر تحمّلاً. بحجّة بعض الحزن السري وبعض سوء الحظّ نعذر الرجل الذي أحببناه كثيراً؛ وسنعتاد في النهاية على الشجار. أين نجد في الواقع خارج الحبّ الشغوف وخارج اللعبة وخارج حيازة السلطة[1] مصدراً آخر للاهتمامات اليومية يضاهي ذاك المصدر في الحيوية؟ وإذا مات مُفتعِل الشجار نرى الضحية التي نجت لا تفرّج عن نفسها أبداً. هذا

1- مهما قال بعض الوزراء المنافقين إنّ السلطة هي أولى الملذّات. يبدو لي أنّ الحبّ وحده يمكن أن يتغلّب عليها، والحبّ مرض هنيء لا يمكننا شراؤه مثل وزارة.

المبدأ يشكّل الرباط لكثير من الزيجات البرجوازية؛ يطيب للشخص الموبَّخ أن يتحدث طوال اليوم عمّن كان يحبّه بالشكل الأمثل.

هناك نوع من الحبّ المزيّف ذي المشاجرات. اقتبستُ من رسالة امرأة حادة الذكاء الفصل 33:

«هناك دائماً شكّ صغير يجب تهدئته وهذا ما يسبّب التعطّش المستمر إلى الحبّ الشغوف لمّا كان الخوف الأشد لا يفارقه أبداً، فإنّ ملذّاته لا يمكن أن تكون مملّة أبداً».

عند الأشخاص الفظّين أو سيئي التربية أو ذوي طبيعة عنيفة للغاية فإنّ هذا الشكّ الصغير الذي يجب تهدئته وهذا الخوف الخفيف يتجلّيان في الشجار.

إذا لم يكن الشخص المحبوب هو الحساسية القصوى ثمرة التربية شديدة الاهتمام يمكنه أن يجد المزيد من الحيوية ومن ثمّ المزيد من المتعة في حبّ من هذا النوع؛ وحتّى مع كل الحساسية الممكنة إذا رأينا الهائج الضحية الأولى لفورات غضبه فمن الصعب جداً ألا نحبّ المزيد منها. وربّما أكثر ما أسف عليه اللورد مورتيمر في عشيقته كانت الشمعدانات التي تلقيها على رأسه. في الواقع إذا الكبرياء غفر وتقبل هكذا أحاسيس فيجب الاعتراف بأنها تشنّ حرباً قاسية على الملل هذا العدوّ اللدود للناس السعداء.

يقول سان سيمون، المؤرّخ الوحيد الذي كان في فرنسا، المجلد 5، الصفحة 45:

«بعد كثير من العلاقات الغرامية العابرة، وقعت دوقة بيرّي في حبّ ريوم جديّاً، أصغر عائلة آيدي وابن أخت مدام دو بيرون. لم يكن يتمتّع بوجه جميل ولا عقل سليم؛ كان فتى سميناً وقصيراً، ممتلئ الخدين

وشاحباً مع كثير من البثور يشبه كثيراً الخراج؛ كانت لديه أسنان جميلة ولم يتخيّل أنه يحدث شغفاً أصبح في أقلّ من لمح البصر، جارفاً واستمرّ دائماً ولكن دون أن يمنع العلاقات الغرامية العابرة والميول المختصرة؛ لم يكن لديه شيءٌ من القوة ولكن الكثير من الإخوة والأخوات الذين لا يملكون المزيد منها. مسيو ومدام دو بونس سيدة جناح مدام دوقة دو بيرّي كانا من أقاربهم ومن المقاطعة نفسها؛ استقدما الشابّ الذي كان ملازماً في الفرسان، لمحاولة فعل شيء معه. وما كاد يصل حتى ظهر الميل وكان السيد في لوكسمبورج.»

مسيو دو لوزن الذي كان ابن أخته يضحك في سرّه من هذا الأمر؛ كان مبتهجاً ويرى نفسه يولد من جديد فيه في لوكسمبورغ في زمن مادموازيل؛ يعطيه بعض التعليمات وريوم الذي كان لطيفاً -وبشكل طبيعي- مهذباً ومحترماً وفتى صالحاً ونزيهاً، يصغي إليهما: ولكن سرعان ما شعر بقوة محاسنه التي لا يمكن إلا أن تأسر النزوة غير المفهومة لهذه الأميرة. ودون أن يبالغ في هذا مع شخص آخر جعل نفسه محبوبا من قبل الجميع؛ لكنه عامل دوقته كما عامل مسيو لوزن مادموازيل. وسرعان ما تمّ تزيينه بأغلى الدانتيل وأثمن الملابس وتزويده بالمال والأقراط والجواهر؛ كان يتظاهر بأنه مرغوب، ويستمتع بإثارة غيرة الأميرة وظهوره غيوراً هو بحدّ ذاته؛ وغالباً ما كان يُبكيها: وشيئاً فشيئاً هيّأها إلى عدم القيام بشيء دون إذنه ولا حتّى الأشياء التي غير ذي بال: أحياناً وقد استعدت للخروج كي تذهب إلى الأوبرا، كان يجعلها تبقى؛ وأحياناً أخرى يجعلها تذهب إلى هناك رغماً عنها؛ ويجبرها أن تُحسن إلى سيدات لم تكن تحبهن البتة أو اللاتي تغار منهن وتسيء إلى أناس كانوا يروقون لها والذين يغار منهم. حتى زينتها

لم يكن لها أقلّ حرية فيها؛ فكان يتسلّى بجعلها تنزع قبّعتها أو بتغيير ملابسها. وعندما تكون على أهبة الاستعداد؛ وهذا في كثير من الأحيان، وأحياناً أمام الملأ لدرجة أنها اعتادت هذا ففي المساء تأخذ أوامره في شأن زينتها وانشغالها في اليوم اللاحق وفي اليوم اللاحق كان يغيّر كل شيء فتبكي الأميرة بحرقة؛ وأخيراً وصل بها الأمر إلى إرسال رسائل له عن طريق الخدم الذين هم موضع ثقة؛ لأنه استقر تقريباً في لوكسمبورغ عند وصوله؛ فالرسائل كانت تُكرّر عدة مرات أثناء تبرجها كي تعرف أيّ الشرائط ستضع، وما إلى ذلك مع الملابس والحلي الأخرى وكان على الدوام تقريباً يجعلها ترتدي ما لا تريده قطعاً. إذا تجرأتْ أحياناً على الإجازة لنفسها بأصغر شيء دون إذنه كان يعاملها كخادمة وغالباً ما تستمرّ الدموع عدة أيام.

«هذه الأميرة، الرائعة للغاية التي كان يسرّها كثيراً إظهار وممارسة أكبر كبرياء لا حدّ له تحطّ من نفسها انطلاقا من تقديم وجبات غامضة معه ومع أناس عديمي الأخلاق. وهي التي لا يستطيع أحد أن يأكل معها إذا لم يكن أميراً من الأسرة المالكة. اليسوعي ريغليه، الذي عرفته طفلاً وثقفته وتم قبوله في هذه الوجبات الخاصة دون أن يخجل من هذا ولا من أن الدوقة تضايقت من هذا: كانت مدام دو موشي موضع ثقة في كل هذه الخصوصيات الغريبة؛ هي وريوم كانا يستدعيان الضيوف ويختاران الأيام المناسبة. كانت هذه السيدة توفّق بين العشاق وكانت هذه الحياة عامة تماماً في لوكسمبورغ، حيث كلّ شيء يتوجّه إلى ريوم، الذي من جهته كان حريصاً على العيش براحة مع الجميع، وبهيئة احترام برفضه علانية لأميرته الوحيدة. وأمام الجميع يرد عليها بردود مفاجئة كانت تجعل الحاضرين يغضّون أنظارهم وتجعل وجه الدوقة يحمرّ

خجلاً، التي لم تكبت قطّ تصرفاتها الشغوفة تجاهه». كان ريوم يمثّل للدوقة الدواء الناجع للملل.

امرأة مشهورة تقول للجنرال بونابارت على حين غرة الذي كان آنذاك بطلاً شاباً مكلّلاً بالمجد ودون جرائم بحقّ الحرية: «أيها الجنرال، لا يمكن للمرأة أن تكون سوى زوجتك أو أختك». لم يفهم البطل المديح؛ انتقمنا لأنفسنا بالشتائم. هؤلاء النساء يحببن أن يحتقرهنّ حبيبهنّ فهنّ لا يحببنه إلا قاسياً.

الفصل التاسع والثلاثون مكرّر ثانية: علاجات الحب

إذا كان من الصعب جداً نسيان امرأة وجدتَ معها السعادة، فذلك لأن هناك لحظات معينة لا يمكن للخيال أن يكلّ أو يملّ من تمثيلها وتزيينها.

كانت قفزة لوكاد صورة جميلة في العصور القديمة. في الواقع علاج الحبّ يكاد يكون مستحيلاً. يجب ألا يكون هناك فقط الخطر الذي يستدعي بشدة اهتمام الإنسان برعاية الحفاظ على نفسه ولكن يلزم ما هو أكثر صعوبة بكثير وهو استمرارية الخطر الداهم، والذي نستطيع تفاديه ببراعة لكي يكون لعادة التفكير في الحفاظ على نفسنا متسع من الوقت لتولد.

قلما رأيتُ أن عاصفة استمرت ستة عشر يوماً مثل عاصفة دون جوان، أو غرق السيد كوشليه بين المغاربة؛ وإلا، فإننا نعتاد على الخطر بسرعة حتى إننا نبدأ بالتفكير فيمن نحبّ مع المزيد من السحر أيضاً عندما نكون في مكان بارز وعلى بعد عشرين خطوة من العدو.

قلنا ذلك مراراً وتكراراً إنّ حبّ الرجل الذي يحبّ كثيراً أن يستمتع أو يرتعش في كلّ ما يتخيّله، لا يوجد شيء في الطبيعة لا يحدثه بما يحبّ. وعلى ذلك الاستمتاع والارتعاش هو عمل مثير للاهتمام للغاية وبجانبه يصبح جميع الآخرين شاحبين من الخوف.

يجب أولاً أن يكون الصديق الذي يريد علاج المريض إلى جانب المرأة الحبيبة دائماً، وجميع الأصدقاء الذين يتمتّعون بالحماسة أكثر من الفكر لا يتوانون عن القيام بالعكس. وهو أن نهاجم هذه المجموعة من الأوهام الساحرة التي أطلقنا عليها في السابق اسم التبلور بقوى غير متكافئة للغاية.

يجب أن يضع الصديق المعالج نصب عينيه أنه إذا كان هناك أي عبثية للاعتقاد كما يقتضي للحبيب إما تبديدها أو التخلّي عن كلّ ما يربطه بالحياة فسوف يبددها، وبكل الروح الممكنة سوف ينكر في عشيقته الرذائل الأكثر وضوحاً والخيانات الأكثر فظاعة. وهكذا هو الأمر أنه في الحبّ الشغوف مع القليل من الوقت يُغتفَر كل شيء.

في الشخصيات المعقولة والباردة لكي يبدّد الحبيب الرذائل سينبغي ألا يلاحظها إلا بعد عدة أشهر من الشغف.

بعيداً عن السعي بشكل فاضح وصريح إلى إلهاء الحبيب يجب على الصديق المعالج أن يحدثه كفاية سواء عن حبّه أو عشيقته وفي الوقت نفسه أن يختلق طائفة من الأحداث الصغيرة تحت قدميه. عندما يعزل السفر لا يوجد علاج ولا حتى شيء يذكرنا بحنية بما نحبه أكثر من التناقضات. إنه في وسط صالونات باريس المرموقة وبالقرب من النساء المشاد بهنّ على أنهنّ الأكثر أنساً أحببت أكثر من أحببت عشيقتي البائسة المنعزلة والحزينة في شقّتها الصغيرة في أقصى رومانيا.

كنتُ أرقب على النوّاس الرائع في الصالون المرموق حيث كنت معزولاً الساعة التي تخرج فيها سيراً على الأقدام تحت المطر للذهاب لرؤية صديقتها. وأنا أسعى إلى نسيانها رأيتُ أن التناقضات هي مصدر الذكريات الأقل حيوية ولكنها الأكثر روعة بكثير من تلك التي نذهب للبحث عنها في الأماكن حيث التقينا بها سابقاً.

لكي يكون الغياب مفيداً يجب أن يكون الصديق الشافي دائماً موجوداً لجعل الحبيب يفكر في جميع المنعكسات الممكنة على أحداث حبّه، ويجب عليه أن يحاول في جعل تأمّلاته المملّة لطولها أو لعدم أهمّيتها ممّا يمنحهما تأثير الأماكن المشتركة: على سبيل المثال أن تكون حنوناً عاطفياً بعد عشاء أبهجه النبيذ اللذيذ.

إذا كان من الصعب جداً نسيان امرأة وجدتَ معها السعادة، فذلك لأن هناك لحظاتٍ معينة لا يمكن للخيال أن يكلّ أو يملّ من تمثيلها وتزيينها.

لن أقول شيئاً عن الكبرياء، العلاج القاسي والناجع ولكن ليس معَدّاً لعلاج النفوس الرقيقة.

المشاهد الأولى من روميو شكسبير تشكّل صورة رائعة؛ شتّان ما بين الرجل الذي يقول لنفسه بحزن: «لقد تخلّت عن الحبّ»، وبين الرجل الذي يصرخ في ذروة السعادة: «تعال إلى ما يمكن للحزن أن يكون!»

الفصل التاسع والثلاثون مكرّر للمرة الثالثة: الدواء

سوف يموتُ شغفُها مثل مصباح لعدم توافرِ ما يجبُ أن يتغذّى عليه اللهب

يجب أن يحذر الحبّ الشافي جيداً من الأسباب السيّئة، مثلاً التحدّث عن الجحود. فبإنعاش التبلور نُعدّ له نصراً ومتعة جديدة.

لا يمكن أن يكون الجحود موجوداً في الحبّ؛ فالمتعة الراهنة تدفع الثمن دائماً وتتجاوز التضحيات الكبرى في المظاهر. لا أرى أخطاء أخرى محتملة غير قلة الصراحة؛ فعليك -فحسب- إلقاء اللوم على حالة قلبك.

يكفي للصديق المعالج أن يهاجم الحبّ وجهاً لوجه، حتى يجيب الحبيب: «إنّ الوقوع في الحبّ حتى مع غضب من نحبّه لا يقلّ في هذا لأنزل إلى أسلوبك كتاجر عن الحصول على بطاقة اليانصيب التي تكون سعادتها بألف مكان فوق كل ما يمكنك تقديمه لي في عالمك اللامبالي والمصلحة الذاتية. لا بدّ أن يكون عندك الكثير من الغرور والكثير من التفاهة لتكون سعيداً لأنك تلقى استقبالاً جيداً. أنا لا ألوم أبداً الرجال على التصرّف هكذا في عالمهم. ولكن بالقرب من ليونور، وجدتُ عالماً حيث كان كل شيء رائعاً ورقيقاً وكريماً. الفضيلة الأكثر سمواً التي لا تصدق تقريباً في عالمك في محادثاتنا لم يكن يُحسب حساب إلا لفضيلة عادية ويومية. على الأقلّ دعني أحلم بسعادة قضاء حياتي مع هكذا كائن. على الرغم من أنني أستطيع أن أرى جيداً أن الافتراء أودى بي ولم يعد لدي أي أمل على الأقل سوف أضحي به بانتقامي».

قلما نستطيع التوقف عن الحب إلا في البدايات. إلى جانب المغادرة السريعة وتشتيت الانتباه الإجباري لعالم الكبار كما في

حالة الكونتيسة كالمبر. هناك كثير من الحيل الصغيرة التي يمكن أن يستخدمها الصديق المعالج. على سبيل المثال سوف يسقط في نظرك، كما لو كان بالمصادفة، أن المرأة التي تحبّها لا تحمل لك، بصرف النظر عن موضوع الحرب، احترام الأدب والاعتبار الذي كانت تمنحه للمنافس. الأشياء الصغيرة تكفي لأن كل شيء هو علامة في الحبّ؛ على سبيل المثال لا تعطيك ذراعها للصعود إلى غرفتها؛ هذه الترهة وقد اعتبرها القلب الشغوف مأساوية، رابط الإذلال بكل حكم يشكّل التبلور، يسمّم مصدر الحبّ ويمكن أن يدمّره.

يمكن أن نتهمّ المرأة التي أساءت التصرّف مع صديقنا بعيب جسدي وسخيف من المستحيل التحقّق منه؛ إذا استطاع الحبيب التحقّق من الافتراء حتى عندما كان يجده مبرراً فقد يجعله الخيال غير مفضل وقد لا يظهر هنا في وقت قريب. لا يوجد سوى الخيال يمكنه أن يقاوم نفسه بنفسه؛ كان هنري الثالث يعرف ذلك حق المعرفة عندما كان يشهّر بدوقة مونبنسير المشهورة.

لذا فإنّ الخيال هو الذي يجب أن نحتفظ به بشكل خاص لدى فتاة شابّة نريد الحفاظ عليها من الحبّ. وكلما كانت أقل سخافة في التفكير كانت نفسها نبيلة وكريمة وكلما كانت باختصار جديرة باحترامنا، زاد الخطر الذي تتعرّض له.

من الخطر دائماً أن يعاني الشخص الشاب من أن ذكرياته مرتبطة مراراً وتكراراً وبإعجاب كبير بالشخص ذاته. إذا أدّى الامتنان أو الإعجاب أو الفضول إلى مضاعفة روابط الذاكرة، فمن المؤكد أنه يكون على حافّة الهاوية. كلما زاد الضجر من الحياة المعتادة زادت مفاعيل السموم المسمّاة بالامتنان والإعجاب والفضول. فيلزم إذاً ترويح عن النفس سريع، وفوري وحيوي.

لذا، فإنّ القليل من القسوة وعدم التدخّل للوهلة الأولى إذا تمّ إعطاء الدواء بشكل طبيعي يكاد يكون الطريقة الأكيدة لكسب الاحترام من المرأة الذكية.

النهاية